

شذرات من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

الأستاذ الدكتور

عبد الفتاح عاشور

أستاذ الشير وعلوم القرآن

ورئيس قسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة

دار البيان

٢٠٠٠م



بيروت

للطباعة والنشر والاستيراد والتصدير
بطاقة ضريبية رقم ١٦٦٧٠٠ م. نصر تان
ملف ضريبي : ٥/١٦/٢٤/٢٦٥

قائمة من قبل الناشر - مطبعة نصر / القاهرة - ت : ٤٠٤٠٢٦٨
عمارات الجبل الأخضر أمام نادي الكرة - مدينة نصر - القاهرة - ت وفاكس : ٤٨٢٢٤٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستئذيه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، ونبيه وحبيبه ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح للجماعة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

"وبعد"

فهذه " شذرات من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم " أبرزت عظمة الإسلام وبينت أنه الدين الحق الجدير بالبقاء ، وأنه لا سعادة للإنسانية إلا في ظل ما جاء به هذا الدين العظيم من عقيدة تسكب في النفس الأمن والاستقرار وتشعر الإنسان بقيمته في هذه الحياة ، وتربط بدايته بنهايته في حياة هادئة وادعة فيها الرضا عن الله الرحيم الرحمن ، ومن نبع هذه العقيدة تأتي الشريعة طريقاً لحياة مستقيمة واضحة تحدد علاقة الإنسان بربه في عبادات فيها الخشوع والخضوع لله رب العالمين يتحرر بها العبد من كل عبودية لغير مولاه ، كما ترسم الشريعة منهجاً لا يطاوله منهج في علاقة الناس بعضهم ببعض فيما عُرف في الفقه الإسلامي بالمعاملات والمواريث والنكاح والجهاد وما إلى ذلك مما هو مفصل في شريعتنا الغراء ، وعلى أساس من عقيدة الإيمان يقوم بناء

أخلاقي مشرق بنور الوحي الإلهي مقصده ربط الإنسان بأخيه الإنسان
برباط المحبة والأخوة الصادقة، وما في ذلك من صدق، وأمانة، ووفاء،
ونجدة وكرم ومروءة، وطيب لسان، وخس عشرة، وأداء حقوق.

ولما تيسر لنا إبراز هذه المعاني من خلال دراسة ربما كانت جديدة
في الدراسات القرآنية عُرِفَت بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، فيسبها
يتناول المفسر موضوعاً أو قضية من حلال الآيات القرآنية يجمعها من
كتاب، فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وما أجمل منه في مكان فصل
في مكان آخر، وما أطلق هنا قيد هناك، وقد يحتاج المفسر إلى ما جاء
في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن السنة هي المذكرة الإيضاحية
والبيان انجلي لما جاء في القرآن الكريم قال تعالى: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ
لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }^(١) وحينذاك يبدو له
الموضوع مكتمل البناء يقسمه إلى عناصر، يؤدي كل منها للآخر،
وبذلك يشرق القرآن على دنيا الناس متألئ القسمات، واضح المعالم،
يقود خطاهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد ساهمت أقلام
مخلصة، في تقديم هذا اللون من التفسير، وتناولت كثيراً من القضايا،
لا يتسع المقام لذكرها وذكرهم، فجزاهم الله خيراً وتقبل منهم هذا الجهد
الطيب، وهأنذا أدلي بدلوي معهم، وأعترف من بحر للقرآن العظيم كما
اغترفوا، أروي معهم ظماً أمتاً بل ظماً الإنسانية إلى معرفة طريق
الحق، والوصول إلى شاطئ الأمان، بعد أن شقي الإنسان ببعده عن
ربه، وهجره للقرآن منهجاً وطريقاً، وسوف أتناول بإذن الله في هذه

الدراسة القرآنية في التفسير الموضوعي بعض الموضوعات ، كالإنسان في القرآن ، والمرأة في القرآن والأخلاق في القرآن، وما إلى ذلك مسن موضوعات تتناسب في اختيارها وعدد صفحاتها مع ما نريده من إبراز لعظمة القرآن وتكامل موضوعاته التي تتناول كل جوانب الحياة، فلا تترك منها جانباً إلا وهو مشرق بنور الله ، ينير للإنسانية طريق السعادة في الدنيا والآخرة، ولكن يبدو أننا بحاجة إلى نبذة مختصرة بين يدي هذه الشذرات نتعرف فيها على التفسير الموضوعي ما هو ؟ وكيف نشأ ؟ وكيف وصل إلى ما هو عليه الآن حتى أصبح معلماً واضحاً يدعو الكثير من الباحثين إلى أن يجعلوه منطلقاً لتقديم الفكر الإسلامي في حلة مشوقة بآيات القرآن الكريم . أسأل الله أن يجعل هذا القرآن ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء همومنا وذهاب غمومنا وأن يفتح به قلوبنا ويشرح به صدوراً تحمل رايته ، وتحمي أركانه ، وتنتشره في العالمين ، وأن يجعل في هذا العمل في ميزان حسناتنا ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . والحمد لله رب العالمين.

أ. د / عبد الفتاح عاشور

بين يدي الشُّذرات

شذرات من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم *؟؟ ما هي الشُّذرات؟ وما هو التفسير؟ وهل هناك فرق بينه وبين التأويل؟ وما معنى أن التفسير موضوعي؟ تساؤلات نجيب عليها بين يدي هذه الدراسة ، قبل أن نلمح إلى نشأة التفسير الموضوعي وتطوره ، ووصوله إلى ما هو عليه الآن ..

يقول ابن منظور : " الشُّذْرُ : قطع من الذهب يُلْقَط من المعدن من غير إذابة بالحجارة ، ومما يصاغ من الذهب فرائد يفصل بها اللؤلؤ والجوهر (١) " وقريب منه قول صاحب القاموس المحيط : " (الشُّذْر) قطع من الذهب تُلْقَط من معدنه بلا إذابة ، أو خرز يفصل بها النظم ، أو هو اللؤلؤ الصغار (٢) " فنحن إذن سنلقت من كنوز القرآن وجواهره ولآئنه آيات ننضدها ، ونظمها عقوداً تأخذ بالقلوب والأبصار ، حين تبدو لنا هذه الآيات وقد جُمعت تحت عنوان واحد، في موضوع متكامل، يرشدك إلى أن هذا القرآن من عند الله .

فما كان لكلام متفرق في ثلاث وعشرين سنة ، يكتب جزء منه كلما اقتضت المناسبة أو عن لصاحبه أن يكتب شيئاً ما، ثم يكون في النهاية موضوعاً له قيمته ، إلا أن يكون هذا كلام الله العليم الخبير الذي أنزل هذا الوحي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مفرقاً عبر الأيام

(١) لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفرقي المصري م/٤ مادة " شذر " ص ٢٢٢٠ ط دلو المعروف .

(٢) القاموس المحيط : لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزا يدي ج ٢ ص ٥٧ ط مؤسسة الحلبي وشركاه بالقاهرة .

والليالي، تنزل منه السورة أو الآيات أو الآية أو بعض الآية فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتاب الوحي : ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا فلما اكتمل القرآن نزولاً ورتبه جبريل بأمر من الله في العرضة الأخيرة في رمضان من العام العاشر من الهجرة بدا هذا القرآن محكم السرد ، مترابط الحلقات ترتبط كل آية بسابقتها ولاحقتها ، وتؤدي كل سورة لما بعدها في تناغم وتناسق فسبحان من أنزله " قرأنا عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون " .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عما خفي عليهم من معاني هذا القرآن وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبين لهم ذلك بل كان يوضح لهم ما جاء فيه مجملاً كما كان من تفصيله لأحكام العبادات وكثير من ألوان المعاملات ، وما إلى ذلك مما يحتاج إلى بيان ، وهذا هو التفسير في معناه اللغوي : فإنه في اللغة : الإيضاح والبيان ، أما معناه الاصطلاحي عند علماء علوم القرآن فقد عرفوه بتعريفات عدة أقربها أنه : علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية . ومثل هذا التعريف قد يصدق على ما أثر عن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتهد فيه الصحابة أو التابعون ليبينوا للناس ما خفي عليهم من معاني القرآن ، وقد يصدق كذلك على ما ذكره من بعد هؤلاء فيما عرف بالتفسير بالرأي، لكن ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من هذا القبيل فهو ليس بحثاً عن أحوال القرآن وما فيه من ألوان الهداية والبيان من حيث دلالة ألفاظه وعباراته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية لارسول صلى الله عليه وسلم ، إنما بيانه صلوات الله وسلامه عليه للقرآن هو الشق الثاني للوحي ، لأنه

كما قال تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝﴾ (١) وفي الحديث "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه" (٢) وعن المقدم بن مئد يكرب أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : "يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله ..." (٣)

ولذلك كانت طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله ، قال تعالى : "مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ" (٤) وكان الأمر من الله بالأخذ عنه - أمراً وتركاً كما قال سبحانه : ﴿وَمَا عَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (٥)

فاتضح لنا من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم مبين للقرآن ومفصل له ، وبيانه وتفصيله بل ما أضاف من أحكام غير ما جاء في القرآن إنما كان ذلك كله وحياً من الله ، وليس من قبيل إعمال الفكر وإجالة النظر في الآيات لبيان معناها بعد تحصيل جملة من العلوم والمعارف كما هو الشأن فيمن فسروا كتاب الله بقدر طاقتهم البشرية حتى إنهم حين ينتهون من تناولهم للآيات يقولون : والله أعلم .

(١) النجم ٥٣ / ١-٥ .

(٢) رواه أبو داود ج ٤ ص ٢٧٩ .

(٣) رواه ابن ماجه ٦/١ ، وأبو داود ٢٧٩/٤ ، والبيهقي ٥/١

(٤) النساء ٨٠/٤

(٥) الحشر ٥٩ / ٧

لأن هذا كان منهم اجتهداً في فهم كلام ربهم بحسب ما اهتدوا إليه في دراستهم ونظرهم في الآيات الأخرى وفيما بلغهم من سنة رسولهم صلى الله عليه وسلم أو ما أثر عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم الذين شاهدوا نزول هذا القرآن وعاشوا أسباب نزوله والمناسبات التي جاءت فيها الآيات، إلى غير ذلك من دلالات الألفاظ على معانيها ..

وإذا كنا قد عرفنا ما هو التفسير لغة واصطلاحاً ، وعرفنا أن بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن تفسير بالمعنى اللغوي وهو البين والإيضاح ، لا بالمعنى الاصطلاحي الذي تعارف عليه علماء التفسير وعلوم القرآن ، فلنعرف أيضاً ما هو التأويل لغة واصطلاحاً ، وهل هناك فرق بينه وبين التفسير ؟

والتأويل لغة كما يقول الجوهري : تفسير ما يؤول إليه الشيء ، مأخوذ من الأول وهو الرجوع ، تقول آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً بمعنى رجع (١)

أما في الاصطلاح فإن أقرب ما قيل فيه ما ذكره البغوي وغيره إذ يقول : التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط (٢) .

وما أرى إلا أن التفسير كذلك فهو غوص في بحار القرآن لاستخراج لآئنه ، لا الوقوف عند ظاهر الآيات دون النظر إلى سياقها

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة أول ١٢ / ٣٣

(٢) الإنشاق في علوم القرآن ٢ / ٢٢٢

وأسباب نزولها وما تدل عليه ألفاظها ، وهذا هو الذي قُده مجاهد نعيمه
 ابن عباس رضى الله عنه ، وسار عليه الإمام الطبري في تفسيره فهو
 حين يذكر الآية ليفسرها يقول : القول في تأويل قوله تعالى كذا ، وتأويل
 كذا ، وبعد أن يذكر رأيه في الآية يقول : وينحو للذي قلنا قال أهل
 التأويل ، فيذكر من أقوالهم ما يؤيد ما ذهب إليه ، وهذا هو الزمخشري
 يسمي كتابه : " الكشف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه
 التأويل ، ومن بعده الإمام البيضاوي سمي تفسيره : أنوار التنزيل
 وأسرار التأويل ، والقاسمي سمي تفسيره : محاسن التأويل . مما يدل
 على أن التفسير والتأويل بمعنى واحد ، وإن قال بغير ذلك بعض العلماء
 في القديم والحديث . مما لسنّا في حاجة إلى ذكره ، لأننا نقدم دراسة
 مختصرة بين يدي موضوعات سندرسها من خلال ما يسمى بالتفسير
 الموضوعي ، وهذا يجعلنا نستعرض ألوان التفسير بحسب مناهج
المفسرين لنرى موقع التفسير الموضوعي من هذه المناهج ، وأنواع
 التفسير أربعة :

١- التفسير الإجمالي : وفيه يعرض المفسر لجملّة من الآيات مبيّناً
 ما فيها من دروس وعبر ، دون أن يخوض في تفصيل يحلل الكلمات أو
 يناقش الأحكام إنما هو فقط يذكر هداية الله في كتابه ، ومن ذلك تلك
 الأحاديث التي تقدّم للتلاوة القرآنية في الإذاعة أو التلفزيون ، أو تلك
 التي تلقى للعامة في المساجد ونحوها .

٢- التفسير التحليلي : وفيه يقف المفسر أمام الآية أو الآيات يذكر
 أسباب نزولها إن كان لها سبب نزول ويربطها بالآيات السابقة ويتناولها
 كلمة كلمة ذاكرةً لمعنى كل كلمة ومبيّناً موقعها الإعرابي ، وقد يتناول ما

في الآية من أحكام إن كتب الآيات تحمل بعض الأحكام ، وكل مفسر تغلب عليه ثقافته ونزعتة ، فالمحدث تغلبه صنعة في علم الحديث فبهنتم بالأسانيد والآثار واللغوي يهتم باللغة ، والبلاغي يوجه همه إلى وحـ البلاغة في القرآن ، والفقيه يصول ويجول في بيان آراء الفقهاء وفـ يرجح مذهبه ، وهكذا وجل كتب التفسير من هذا اللون ومنها تفسير الطبري وابن كثير والزمخشري والبيضاوي والقرطبي وغيرهم من المفسرين إلى يوم الناس هذا ، يتبعون القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، أو سورة من سورته ، أو جملة من آياته وفق هذا المنهج الذي ذكرناه .

٣- التفسير المقارن : وفيه يجمع المفسر أقوال المفسرين في آية أو جملة من الآيات ليقارن بينها مرجحاً منها ما يرى أنه أقرب إلى هداية القرآن ودلالاته وذلك كمن يجمع أقوال المفسرين في آيات الصيام في سورة البقرة ، أو آيات الحج في سورة الحج ، وهذا اللون قريب من التفسير الموضوعي إلا أنه يتوسع في النقل من أقول أئمة التفسير ويقارن بينها ويختار منها ما ترجحه الأدلة . وإن كان هذا من خلال موضوع واحد .

٤- التفسير الموضوعي : ولعل فيما سبق من سطور ما يرشد إلى هذا اللون ، إذ هو جمع للآيات في موضوع واحد ، والنظر فيها لوضع كل مجموعة منها في عنصر من عناصر الموضوع ، ثم يأخذ المفسر في عرض موضوعه من خلال هذه العناصر ، مستعيناً في ذلك بكل ألوان التفسير السابقة :-

فقد يحتاج إلى إجمال معنى الآية ، أو بسطها ، أو استطلاع آراء المفسرين فيها ليصل إلى تحديد ما ترشد إليه هذه الآيات ، وبين يديه هذِي النبوة وما أثر عن شاهدها نزول هذا القرآن وأدركوا أسرارها .

وفهموا مرامييه وهؤلاء هم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وحين يستوعب المفسر هذه العناصر يكون قد عرض موضوعا
متكاملاً، مشرق القسّمات يزود عن حياض القرآن كيد الكائنين . وشبه
المبطلين ، والمكتبة الإسلامية في حاجة ماسة إلى هذا اللون من التفسير
إذ لا توجد منه سوى أبحاث متناثرة ، لا يقوم الكثير منها على منهج
علمي واضح ، وربما كانت أقرب إلى الدراسات القرآنية ، أو الدراسات
الإسلامية العامة أو ما شابه ذلك . وإذا كنا نجد بكثرة موسوعات في
التفسير التحليلي فإننا نأمل أن نجد ذلك في التفسير الموضوعي ، حين
تُصنف موضوعات القرآن ، وترتب ، ويتناولها المتخصصون بالشرح
والإيضاح دون الخروج على ما جاء في آيات القرآن إلى مباحث فرعية
قد تطغى على الهدف الذي من أجله كانت الدراسة كما حدث ذلك في
التفسير التحليلي حين تحول التفسير إلى مباحث في اللغة أو الفقه أو
الفلسفة أو ما شابه ذلك عند كثير من المفسرين .

وإذا ما قيل : " التفسير الموضوعي " فإنه يطلق على هذا اللون من
التفسير وإن كان هناك من أدخل في التفسير الموضوعي ما
يسمى "بالوحدة الموضوعية في السور القرآنية" بمعنى أن كل سورة لها
هدف أو عدة أهداف تدور آيات السورة كلها حول هذا الهدف أو هذه
الأهداف، وهذا يختلف عما عرف بعلم المناسبات حين يربط المفسرون
بين سورة وسورة أو آية وآية لأن هذا كما تري بحث في أجزاء السورة
وذلك بحث في مجمل السورة، وإن كان الباحث قد يحتاج إلى هذا العلم
كما يحتاج إلى ألوان التفسير الأخرى ليشرح الهدف أو الأهداف التي
يقوم عليها بناء السورة التي يريد تفسيرها تفسيراً موضوعياً.

نشأة التفسير الموضوعي وتطوره :

عرفنا أن التفسير الموضوعي معناه : معالجة موضوع واحد تحمله آيات مبثوثة في كتاب الله ، تجمع هذه الآيات وتقسم إلى عناصر يؤدي كل منها للآخر ، وبذلك تتضح جنبات القضية وضوحاً تاماً ، ولا يبقى فيها مجال لشبهة أو خفاء ..، أو هو معالجة موضوع واحد أو عدة موضوعات في سورة من سور القرآن ، فيما عرف بالوحدة الموضوعية في السور القرآنية.

وقد أشرق هذا اللون مع غيره من ألوان التفسير من يوم نزول القرآن الذي أتى في كثير من آياته يفسر بعضه بعضاً ، من ذلك ما أجمله في قوله تعالى {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ} (١)

وفصله فيما نزل في سورة الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} (٢)

ومن ذلك ما جاء مجملاً في قوله : {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ} [٣] وقد فصل ذلك فيما نذكر من رسله وأنبيائه ..

وكثيراً ما تنزل الآيات توضح بعض ما خفي على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنا تبدو أهمية معرفة سبب النزول فهو يعين

(١) سورة البقر : ١١٨

(٢) الأنعام : ١٤٦

(٣) النساء : ١٦٤

على فهم المراد من الآيات ، إذا جمعت في موضوع واحد ، ومثال ذلك ما أخرجه الحاكم عن أبي بن كعب أنه لما نزلت في بيان عدد النساء آية سورة البقرة : { وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ } [١] والآية الأخرى { وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا } [٢] قالوا : قد بقيت عدد لم تذكر ، وهي عدد الصغار والكبار فنزل قول الله : { وَاللَّائِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتِ الْأُحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } [٣]

وفي السنة النبوية نلمح هذا الجمع بين الآيات لاستخلاص المعنى المراد ، من ذلك " ما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } [٤] شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه؟ قال : إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : { إِنْ الشُّوْكَ نَظَّمْ عَظِيمٌ } [٥]

فالكلمة في القرآن قد يكون لها أكثر من معنى ، وجمعها يوضح المعنى المقصود كما نرى في هذا الحديث الشريف .
ومن ذلك ما جاء في السنة من قواعد تفسيرية كقوله صلى الله عليه وسلم " ويل : واد في جهنم " (٦)

(١) البقرة ٢٢٨

(٢) البقرة ٢٣٤

(٣) الطلاق : ٤

(٤) الأنعام : ٨٢

(٥) لقمان : ١٣

(٦) رواه الترمذي بسند حسن من حديث أبي سعيد الخدري .

وكقوله صلوات الله وسلامه عليه : " كل حرف يُتكرر من القرآن يذكر فيه القوت فهو الطاعة " (١) إلى غير ذلك مما جاء في المسألة المطهرة مما يبين أن اللفظة القرآنية إذا تتبعناها في القرآن الكريم قد يتحد معناها ، وقد يختلف ، وهو ليس باختلاف تضاد إنما هو اختلاف يؤدي في النهاية إلى أن يكون المعنى واضحاً كل الوضوح ..

وعلى هذا الدرب سار الصحابة والتابعون عليهم رضوان الله : من ذلك ما كان من أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أراد عمر أن يقيم حد الزنا على امرأة وضعت بعد زواجها بسنة أشهر لأن العادة جرت أن تكون مدة الحمل تسعة أشهر ولكن علياً ذكره بقول الله تعالى : { وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا } [٢] مع قوله تعالى : { وَالْوَالِدَاتُ يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ } ومعنى ذلك أن المدة الباقية للحمل بعد الحولين ستكون ستة أشهر ، وبهذا يدرأ الحد عن المرأة ، فاستجاب لذلك عمر (٣).

وهذا ما دعا العلماء في القرون الأولى وما بعدها إلى النظر في الآيات المتصلة بموضوع واحد لجمعها ودراستها ، فقد ألف في المنسوخ والمنسوخ : قتادة بن دعامة . المدوسي - المتوفي سنة ١١٨ هـ

وأبو عبيد القاسم بن سلام - المتوفي سنة ٢٢٤ هـ

وأبو جعفر النحاس - المتوفي في سنة ٣٣٨ هـ

وألف في معاني القرآن : أبو زكرياء الفراء - المتوفي سنة ٢٠٧ هـ

(١) رواه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد أيضاً .

(٢) الأحطاف : ١٥

(٣) الإحكام في أصول الأحكام : لابن حزم الظاهري ٢ / ١٢٥ .

وألف في غريب القرآن: أبو بكر السجستاني- المتوفي سنة ٣٣٠ هـ
والزاعب الأصفهاني - المتوفي سنة ٥٠٣ هـ
وألف في إعجاز القرآن : الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ هـ
والرمانى المتوفي سنة ٣٨٦ هـ
والخطابي المتوفي سنة ٣٨٨ هـ
والباقلاني المتوفي سنة ٤٧١ هـ
والجرجاني المتوفي سنة ٤٧١ هـ
وألف في أسباب النزول: علي بن المديني المتوفي سنة ٢٣٤ هـ
وأبو الحسن الواحدي المتوفي سنة ٤٦٨ هـ
وألف في أقسام القرآن :ابن قيم الجوزية المتوفي سنة ٧٢١ هـ
و ألف في أحكام القرآن الجصاص المتوفي سنة ٢٧٠ هـ
وابن العربي المتوفي سنة ٥٤٣ هـ

ولعلنا نلمح أن العلاقة العامة هي التي جمعت بين الموضوع الواحد
كما نرى في أحكام القرآن فالمناسبة بين أطراف الموضوع أن الآيات
تبحث في حكم شرعي وإن كان منها آيات في الصلاة وأخرى في الزكاة
أو الصيام أو الحج ، ولهذا اتجه التفسير الموضوعي أخيراً نحو التحديد
الموضوعي ، وهذا يؤدي إلى دراسة الموضوع عن قرب وتجلية معانيه
بصورة أوضح .

وقد أثنى على هذه الطريقة كثير من العلماء منهم الشيخ محمود
شلتوت رحمه الله الذي قسّم طرق التفسير إلى طريقتين ، انتقد أولاهما
وهي الطريقة التقليدية التي يتتبع المفسر فيها القرآن آية بعد آية يفسر كل
آية كما نرى في كتب التفسير المعلومة لنا ثم قال : أما الطريقة الثانية
فهي أن يعمد أولاً إلى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد ، ثم

يضعها أمامه كمواد يحللها ويفقه معانيها ، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض ، فيتجلى له الحكم ، ويتبين المرمى الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع ، وبذلك يضع كل شيء موضعه ، ولا يكرر آية على معنى لا تريده . كما يغفل عن مزايا الصَّوْغِ الإلهي الحكيم ، وهذه الطريقة في نظرنا هي الطريقة المثلى ، وخصوصاً في التفسير الذي يراد إذاعته على الناس ، بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية ، وإلى أن موضوعات القرآن ليست نظريات بحثة يشغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية فيما يحدث للأفراد والجماعات من أفضية ، ويتصل بحياتهم من شئون ، وهي تمكن المفسر من علاج موضوعات عملية كثيرة ، كل موضوع فيها قائم بنفسه ، لا يتصل بسواه ، ولا يختلط بغيره ، فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة ، ويعرفون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعية " كالقرآن وأصول التشريع ، والقرآن والعلم ، والقرآن والأسرة ، والقرآن وأدب الاجتماع ، والقرآن والسياسة ، والقرآن والتضحية ، والقرآن والبر . وهكذا " (١) .

وبدأت دراسات ناضجة في هذا الاتجاه الطيب . من ذلك ما كتبه الدكتور أحمد الشرباصي من موضوعات كان ينشرها في مجلة منبر الإسلام ومجلة الأزهر ومنها الموضوعات التالية : حديث القرآن عن اللغو ، العزة في القرآن الكريم ، الرجولة في القرآن ، القلة والكثرة في القرآن ، حديث القرآن عن التطيُّر ، حديث الفتوة في القرآن ، حديث الزلزال في القرآن ، حديث الغرور في القرآن ، حديث السرف في القرآن (٢) إلى غير ذلك من الأحاديث النافعة .

وقد كتب الزميل أ.د / عبد الستار فتح الله سعيد ، دراسة ممتعة في كتابه : المدخل إلى التفسير الموضوعي فأجاد وأفاد في تأصيل القواعد التي يشاد عليها هذا اللون من التفسير ، وجعل لذلك الباب الأول ، وفي

(١) الإسلام والعلاقات الدولية ص ١٠ للشيخ محمود شلتوت .

(٢) انظر : قصة التفسير للدكتور أحمد بشر نصفي ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

الباب الثاني قدم أمثلة تطبيقية لتلك القواعد ، فاختار الموضوعات التالية:
الوحدانية والتوحيد ، المعية في القرآن الكريم ، التبعية في القرآن الكريم ،
العلم والعلماء في القرآن ، الآخرة ومشاهدتها في القرآن. وللزميل د. /
مصطفى مسلم دراسة قيمة عنوانها/مباحث في التفسير الموضوعي، في
٣٧٣ صفحة، ولكثير من زملائنا وشيوخنا بحوث طيبة في هذا العلم :
علم التفسير الموضوعي ، تأصيلاً وأمثلة.

ولهذه الغاية سَمَر قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين
بجامعة الأزهر - عن ساعد الجد ، واختار لطلاب الدراسات العليا
موضوعات قرآنية غطت مساحة لا بأس بها من موضوعات القرآن، علي
مستوي القرآن كله أو علي مستوي سورة من سورته ، وحذا حذو أصول
الدين طلاب الدراسات العليا في الجامعات العربية والإسلامية وكثير من
الكتاب والباحثين وأصبح الطريق ممهداً لتحقيق الأمل في إخراج
موسوعة تضم تلك الموضوعات وتفهرسها لتكون في متناول الباحثين
وعشاق المعرفة ، ونحن علي هذا الدرب نسير بتوفيق الله منذ زمن بدءاً
من رسالتي التي حصلت بها علي الدكتوراه عام ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م
وموضوعها : " منهج القرآن في تربية المجتمع " إلى غير ذلك من الكتب
التي ألفتها منذ سنوات مضت ومنها : الحج في القرآن الكريم دراسة
موضوعية لآيات الحج في القرآن الكريم عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ،
والمسلم في عالم اليوم ، بحوث في الأخوة والمواودة وبناء المجتمع
المسلم، في جزئين عام ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م " ومن ذلك هذه
الموضوعات التي سأعرض لها بإذن الله ، ومن أجلها قدّمت هذه
الشذرات ، دون التوسع في الموضوع ، إنما هي مقدمة تكشف لنا ما هو
التفسير الموضوعي وكيف نشأ ؟ وكيف وصل إلى ما هو عليه الآن ،
والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

المراجع /

- ١- الإنشقاق في علوم القرآن للإمام السيوطي ط الرابعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧١ م مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .
- ٢- التفسير الموضوعي : لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية - جمع أصوله وحقق نصوصه وخرج أحاديثه د / عبد الرحمن عميرة - دار الاعتصام بالقاهرة .
- ٣- دراسات في التفسير الموضوعي للقصاص القرآني - د / أحمد جمال العمري - مكتبة الخانجي بالقاهرة ط الأولى ١٩٠٦ هـ / ١٩٨٦ م
- ٤- القاموس المحيط - للفيروزا بادي / مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزا بادي ط الثانية ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م ط مصطفى الحلبي بمصر .
- ٥- لسان العرب لابن منظور / أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري - ط دار المعارف
- ٦- مباحث في التفسير الموضوعي / أ.د/ مصطفى مسلم - ط الثانية ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م دار القلم/ دمشق
- ٧- مباحث في علم التفسير د / عبد الستار حامد ، مطبعة دار الرسالة ببغداد ١٩٨٤ م جامعة بغداد كلية الشريعة .
- ٨- المدخل إلى التفسير الموضوعي ط الثانية ١٤١١ هـ ١٩٩١ م أ.د / عبد الستار فتح الله سعيد - دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة

الفصل الأول

الإنسان في القرآن

- ١- موقعه في الوجود: مستخلف ومكرم
- ٢- صلته بالكون: صلة انتفاع .. صلة تفكر
- ٣- صلته بالله : صلة عبودية لله وتحرر من عبودية غيره، صلة تكليف ومسئولية .
- ٤- إنسانية الإنسان مقياس تقدمه وارتقائه .

الإنسان في القرآن :

تمهيد :

الإنسان في القرآن ؟ ماذا تعنى كلمة " الإنسان " ؟ وماذا عن كون الإنسان في القرآن ؟ حتى نحدد مسار دراستنا لهذا الموضوع ؟
يقول الفيروز آبادي في القاموس المحيط : " الإنسان : البشر كالإنسان الواحد إنسي ، وأنسي جمعه. أناس ، والمرأة : إنسان ، وبالهاء : عامية ، وسمع في شعر كأنه مولد :
لقد كسنتني في الهوى ملابس الصب الغزل
إنسانة فتانـة بدر الدحي منها خجل
وأنسة ضد أوحشة ، والشئ أبصره " (١) .

وقد ذكر ابن منظور في لسان العرب كما ذكر غيره قديما وحديثا قريبا من ذلك .

ولأننا ندرس كلمة من كلمات القرآن فلنتعرف من صاحب المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصبهاني ، على معنى كلمة الإنسان يقول :
" الإنس : خلاف الجن ، والأنس : خلاف النفور ، والإنسي : منسوب إلى الإنس ، ويقال ذلك لمن كثر أنسه ، ولكل ما يؤنس به ، ولهذا قيل : إنسي الدابة : للجانب الذي يلي الراكب ، وإنسي القوس : للجانب الذي يقبل على الرامي ، والإنسي من كل شيء : ما يلي الإنسان ، والوحشي :

(١) انظر : القاموس المحيط للفيروز آبادي ٢ / ٥٠٥ ط الثانية ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م مطبع

مصطفى الحلبي بمصر .

ما يلي الجانب الآخر ، وجمع الإنسي : أناسي ، يقول الله تعالى : { وأناسي كثيرًا } وقيل : ابن إنسيك : للنفس ، وقوله تعالى : { فإن أنستم منهم رشداً } أي أبصرتهم أنسا به ، { وأنست ناراً } وقوله تعالى : { حتى تستأنسوا } أي تجدوا إيناساً ، والإنسان : قيل سمي بذلك لأنه خلُق لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض ، ولهذا قيل : الإنسان مَدِينِي بالطبع ، من حيث إنه لا قوام لبعضهم إلا ببعض ، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه ، وقيل : سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألّفه ، وقيل هو : إِفْعِلَان ، وأصله : إنسيان ، سمي بذلك لأنه عهد إليه فنسي ^(١)

هذا إذن هو الإنسان في لغتنا العربية يطلق على الذكر والأنثى ، وهو يقابل الجن ، فهذا ظاهر يُرى وذلك مستتر لا يرى ، ومن طبعه الذي خلقه الله فيه ميله إلى الأنس بغيره ، فحياته لا تستقر بل ولا تنتظم إلا مع الآخرين من أبناء جنسه ، ومن حكمة الله فيه أن جعله أيضاً يأنس بكل ما يألّفه ، كما جعله كذلك ينسى ، فالنسيان نعمة من نعم الله عليه وإلا لو ظل ذاكرة لكل أمر لمات فرحاً أو مات حزناً وكماً ، وهذه المعاني التي من أجلها سمي الإنسان إنساناً سنظل منها على ما جاء في القرآن الكريم ، وهنا نصل إلى السؤال الثاني وهو : ما معنى كون الإنسان في القرآن ؟ ومعناه : كيف عبّرت آيات القرآن عن هذا الإنسان ؟ في بيان موقعه في الوجود ، وصلته بالكون ، وصلته بخالق هذا الكون ،

(١) المفردات في غريب القرآن : للصين بن محمد ، المعروف بالراغب الأصبهاني - نشر

مكتبة الأنطط المصرية ١٩٧٠ م

كيف حددت آيات القرآن لهذا الإنسان طريقه في وضوح ، وعلمته كيف يحافظ على إنسانيته ويرقى بها ، لا أن ييئط بها إلى درك العجاسوات فيضل ويشقى .

وهذا يتطلب منا أن نجتمع الآيات القرآنية التي تحدثت عن الإنسان لترتيبها ونصنفها في عناصر متتالية وندرسها دراسة متكاملة على طريقه التفسير الموضوعي للقرآن الكريم .

والإنسان في آيات القرآن الكريم يعنى : آدم ، والإنسان والخليفة والإنس ، والناس ، والطفل ، والصبي ، والولد ، والبنات ، والوالد والوالدة ، والرجل ، والمرأة ، والزوج ، والذكر ، والأنثى ، بل وما جاء من صفات لهؤلاء ، ذكر الموصوف أم لم يذكر ، كما نرى في كلمة اليتامى ، والمساكين ، والسائلين ، والمتقين والتائبين والعابدين وما إلى ذلك من صفات كثير مدحا أو ذمّا .

ولا عجب في ذلك فهذا القرآن نزل لهذا الإنسان فكيف لا يعتنى به هذه العناية الفائقة: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا } (١) { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } (٢) .

ومثل هذه الدراصة تحتاج إلى مؤلف مستقل قد يصل إلى عدة أجزاء، ونحن هنا نكتب عجالة عن الإنسان في القرآن " في جملة موضوعات أخرى تالية لتكون في مجموعها كتاباً يظهر عظمة الفسّر

(١) النساء ٤ / ١٧٤

(٢) يونس ١٠ / ٥٧

فيما اخترناه من موضوعات لهذا الكتاب ، وقد تغنى الإشارة عن العبارة ، ولعله مما ييسر طريق البحث أن الموضوعات التالية لموضوع الإنسان ستعالج هي الأخرى جانباً من الدراسة حول الإنسان وقد سبقت الإشارة إليها في المقدمة ، ولذلك سنقتصر في دراسة موضوعنا بإذن الله على جوانب أربعة هي التي تراها في عنوان هذا الفصل .

فنقول وبالله التوفيق :

١- الإنسان : موقعه من الوجود: مستخلف ومكرم:

أ- خلق الإنسان :

الإنسان الأول آدم عليه السلام ، ومنه كانت زوجة حواء ، ومنهما تتأسل الناس ، وقد وردت كلمة " آدم " في القرآن خمساً وعشرين مرة ، وسماه الله إنساناً ، وسماه بشراً ، وأخبر بأنه خلق الناس من نفس واحدة وجعل منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء .

وقد مر خلق آدم بعدة أطوار : خلقه أولاً من التراب ثم خلطه بالماء فكان طيناً ، ثم بقي مدة حتى صار مُنْتَبِثاً أسود ثم تماسكت أجزاؤه - ويبس حتى كأنه من الفخار ، ثم نفخ فيه من روحه فصار بشراً سوياً ، كما مر خلق أبنائه في عدة أطوار كذلك : من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى أن صارت المضغة عظماً فكسى الله العظام لحماً ونفخ في هذا الجسد من روحه فإذا به هذا الإنسان الناطق العاقل. وعن خلق الله لآدم وذريته يقول الله تعالى : ١- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ

الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبَيِّنَ لَكُمْ ^(١) الْآيَةَ إِلَىٰ نِهَايَةِ مَرَاحِلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ .

٢- وقريب من ذلك قوله " { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا } ^(٢) الْآيَةَ

٣- وقوله : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ } ^(٣) الْآيَةَ

٤- وقوله : { وَمِنْ عَلَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } ^(٤)

وهذه هي المرحلة الأولى في خلق آدم حيث خلقه الله من تراب وقد قال بعض الباحثين بأن المراد في الآيات ليس هو آدم كما قال بذلك الأوائل إنما المراد به الإنسان من أبناء آدم ، ومعنى أن الله خلقه من تراب أن مكونات جسده من العناصر التي يتكون منها التراب ، وقالوا بأن هذا من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

ومع أن القرآن ليس فيه ما يتعارض مع العلم ، لكنه ليس كتاب طب أو فلك أو أحياء أو جيولوجيا ولكنه كتاب هداية ، والبحث في آياته عن سند لكل اكتشاف علمي أو حقيقة علمية مخاطرة غير مأمونة العواقب ، فكثير من الحقائق التي اعتقد الناس قروناً طويلة أنها حقائق ثابتة لا تتغير ، تبين أنها وهم وظن وليست بحقائق ، والقرآن يذكر أن آدم خلُق

(١) الحج ٢٢ / ٥

(٢) فاطر ٣٥ / ١١

(٣) غفر ٤٠ / ٦٧

(٤) الروم ٣٠ / ٢٠

من تراب فيقول : { إِنَّ مِثْلَ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ عَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }^(١) وبهذا ننظر في الآيات السابقة حين نقرأ : { خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ } ، { خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ } فنقول : بأنها تلفت أنظارنا إلى قصة الخلق الأولى حيث خلق الله آدم عليه السلام من تراب ، إذ لم يكن المخاطبون في عصر نزول القرآن حين خوطبوا بقوله : خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ليعرفوا أنهم هم خلقوا من تراب وأن أجسادهم تتكون من عناصره وأين للرجل الذي قال لصاحبه : { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا }^(٢) أن يعرف هو أو صاحبه أمثال هذه الحقائق العلمية التي تثبت أن الإنسان في أصله من التراب ، كما قال تعالى : { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }^(٣) أي خلقنا أباكم آدم .. والقرآن بذلك يفسر بعضه بعضاً .

أما عن المرحلة الثانية التي صار فيها التراب طيناً فإننا نقرأ في قصة الخلق الأول ، وما كان من أمر إبليس ، قول الله تعالى في سورة 'ص' " { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ }^(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }^(٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ }^(٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }^(٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ }^(٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ... }^(٧٦)

(١) آل عمران ٣ / ٥٩

(٢) الكهف ١٨ / ٢٧

(٣) طه ٢٠ / ٥٥

(٤) ص : ٢٨ / ٧١-٧٦

وما نجده في الإسراء : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَتَجِدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا } (١)

ولذلك حين يقول الله تعالى بأنه خلق الإنسان من طين أو يوجه خطابه إلى بني الإنسان بأنه خلقهم من طين ، فإن هذا الإنسان هو آدم عليه السلام ، يقول تعالى : { ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ } (٢) فهذه الآية صريحة في أن الإنسان هنا هو آدم عليه السلام ، ولا التقات لمن أرادوا أن يحملوا آيات القرآن فوق ما تحتل بحجة أن هذا إعجاز علمي في القرآن الكريم حيث إن القرآن أخبر بأنه خلق الإنسان من تراب أو من طين والعلم الحديث اكتشف أن الإنسان مركب من عناصر التراب والطين كما سبق أن ذكرنا.

وعلى هذا نفهم أيضا قول الله تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ } (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرار مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } (٣) وقوله : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ .. } (٤)

(١) الإسراء ١٧ / ٦١

(٢) السجدة ٣٢ / ٦ - ٨

(٣) المؤمنون ٢٣ / ١٢ - ١٤

(٤) الأنعام ٧ / ٢

فالمراد بالإنسان في آيات " المؤمنين " هو آدم ، كما أن معنى :
خلقكم من طين أي خلق أباكم آدم عليه السلام .

أما المرحلة التالية وهي تماسك أجزاء الطين تماسكاً شديداً ففيها آية
واحدة جاءت في سورة الصافات : { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ
خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ }^(١) واللازب في اللغة : الثابت الشديد
التماسك الأجزاء ..

وبعد ذلك يتغير الطين اللازب إلى أن يصير طينا متغير الرائحة
أسود وهو ما سماه القرآن بالحمأ المسنون حيث يقول الله عز وجل :
{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ }^(٢) وقيل بأن الحمأ
المسنون أي الطين المصور على هيئة إنسان والمعنى متقارب فإن هــا
الطين الممتن المتغير الأسود حين تماسك صورته الله تلك الصورة
الإنسانية وتركه حتى جف ويبس فكان صلصالاً ، كما ترى في الآيات
السابقة وفي قوله في " الرحمن " { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ
كَالْفَخَّارِ }^(٣) { وَخَلَقَ النَّجَّارَ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ }^(٤) بقي بأن يصدر الأمر
الإلهي بأن تدب الحياة في هذا الجماد الذي تنقل بأمر الله إلى أن صار
صلصالاً كالْفَخَّارِ ، وهذه هي الروح التي لا يعلم سرها إلا الإله القوي
القادر ، وبالنظر في الآيات يتضح لنا أن الله كان يخبر ملائكته في كل
طور بأنه جل وعلا سيخلق إنساناً بشراً تدب فيه الروح ويتحرك بأمر الله
بل وأخبرهم بما سيكون من أمر هذا الإنسان بعد أن يصير إنساناً ناطقاً

(١) الصافات ٢٧ / ١١

(٢) اقرأ الآيات من سورة الحجر ١٥ / ٢٦ - ٢٣

(٣) الرحمن ٥٥ / ١٤ ، ١٥

وأنه سيتولى مهمة تعمير الأرض والقيام على شئونها وفق منهج ربه ،
فإذا نفخ الله فيه الروح ، عليهم أن يقفوا له ساجدين ، لا سجود عبادة
لآدم ولكن تعظيماً لأمر الله ، وتكريماً لآدم عليه السلام .

وقد رأينا في الآيات السابقة قوله تعالى : { إني خالق بشرًا من

طين } في سورة "ص" ولذلك لم يذكر أنه قال للملائكة ذلك في سائر
الأعراف والإسراء لكنه ذكر حجة إبليس وأنه بناء على معرفته سبحانه
قال : { أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين } وقال { ألسجد
لمن خلقت طيناً } وذكر للملائكة ما جاء في سورة الحجر : { وإذ قال
ربك للملائكة إني خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون } وفي سورة
البقرة يقول لهم { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } ولعلهم علموا ذلك من الله حيث
أخبرهم بما سيكون عليه حال هذا المخلوق بعد أن تتولى ذريته مهمة
الخليفة في الأرض ، وأراد الله سبحانه أن يطلعهم على حكمته في اختيار
هذا المخلوق لهذا الأمر ، وأن الله أعطاه من المواهب والقدرات ما يؤدي
بها الوظيفة التي سيتولاها وأن الملائكة مع طهرهم ونقايتهم لا يصلحون
لهذه المهمة ، وكان سبحانه قد علّم عَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ اسْمُوهَا فَنَادَوْا بِأَسْمَاءَ هَذِهِ هَذِهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ
لَا عِلْمَ لَنَا بِأَسْمَائِهَا قَالُوا اسْمُوا لَهَا قَالُوا أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
بَشِيرٌ نَذِيرٌ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ طَغًى رَأَىٰ أَمْرًا أَنفَضَ بِأَعْيُنِهِمْ فَلَمَّا
أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمَ مَا تَبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }^(١) فظهر فضل آدم وما منحه الله من معرفة وعلم ، وكان أمر الله قد سبق بوجوب سجود الملائكة لآدم إذا ما تم خلقه ونفخ الله فيه من روحه ، فاستجاب الملائكة لأمر ربهم إلا إبليس الذي امتنع عن السجود كبراً وعناداً وحقدًا وحسدًا لأنه كما قال تعالى : { كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ }^(٢) ولم يكن من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولكنه كان معهم فأمر بالسجود معهم فأبى واحتج بأنه خلق من عنصر النار وهي في رأيه أشرف من الطين ، وانظر إلى تكبره وهو يقول لرب العزة { لِمَ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ } فاستحق اللعنة والإبعاد والطرده ، لأنه لجهله ما فقه الأمر وأن السجود ليس لآدم إنما الله تعظيمًا لأمره والتعبير القرآني عن إبعاده يدل على أن ذلك كان في الجنة لأن الله قال له : { فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا } وقال { اخْرِجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَذْحُورًا }^(٣) وقال في "الحجو" و"ص" { قَالَ فَاخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ }^(٤) ولم يسبق ذكر في الآيات لشيء يعود عليه الضمير في قوله : " منها " إنما يفهم هذا من السياق ، الذي يدل على أنها الجنة ، فإن الله سبحانه بعد هذا الدرس الذي ظهر فيه العدو من الحبيب قال : { وَإِنَّا عَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا

(١) اقرأ الآيات من سورة البقرة ٢ / ٣٠ - ٣٣

(٢) الكهف ١٨ / ٥٠

(٣) الأعراف ٨ / ١٣ ، ١٨ ،

(٤) الحجر ١٥ / ٣٤ ، ص ٢٨ / ٧٧

وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ..» (١) ولم يتركهما الشيطان فزين لهما الأكل من الشجرة المحرمة { فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنَّ لَنَا تَغْفِيرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (٢) وقد قبل الله منهما التوبة إنه هو التواب الرحيم .

ولعلنا ونحن نذكر آدم وخلق الله له نذكر خلق الله لحواء ، فإن الله لما خلق آدم شعر بحاجته الفطرية إلى من يؤانسه فخلق الله له رفيقة درب ، وشقيقة نفس من نفسه ، وجعلها من ضلعه الأيسر ، فوجدها بجواره فأنس لها وسكن إليها وزالت وحشته ، وكانت سنة الله في خلقه أن سمى كلاً من الرجل وامرأته بالزوج ، ليدل على أن كل واحد منهما مكمل للآخر ، ولذلك لا غنى للرجل عن زوج تذهب وحشته ويسكن إليها ولا غنى للمرأة عن زوج تشعر في كنفه بالأمان وراحة النفس قال تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (٣) وفي خلق حواء من آدم يقول الله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً....} (٤)

(١) الأعراف ٨ / ١٩

(٢) الأعراف ٨ / ٢٢ ، ٢٣

(٣) الروم ٣٠ / ٢١

(٤) النساء ١ / ١

هذا عن قصة الإنسان الأول أما من تتامل منه فقد مر بأطوار غير تلك الأطوار التي خلق منها آدم عليه السلام ، وتبدأ مراحل الخلق بنفء الذكر بالأنثى وتلقيح منى الرجل لبويضة الأنثى قال تعالى : { فَأَنْظُرْ الْإِنْسَانَ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ } (١) فالحيوانات المنوية لدى الرجل أو البويضة لدى المرأة ، إنما تستقي مواد تكوينها من بين الصلب والترائب كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب ، والآية الكريمة إعجاز كامل حيث تقول { من بين الصلب والترائب } ولم تقل من الصلب والترائب ، فكلية ' بين ' ليست بلاغية فحسب وإنما تعطي الدقة العلمية المتناهية " (٢) ويذكر الدكتور محمد علي البار معنى التدفق في ماء الرجل والمرأة فيقول : إن الحيوانات المنوية يحملها ماء دافق هو ماء المنى ، كذلك البويضة في المبيض تكون في حويصلة جراف محاطة بالماء فإذا انفجرت الحويصلة تدفق الماء على أفتاب البطن ، وتلقفت أهداب البوق البويضة لتدخلها إلى قناة الرحم حيث تلتقى بالحيوان المنوي لتكوّن النطفة الأمشاج .. " (٣)

وهذه النطفة الأمشاج هي التي ذكرها الله في قوله : { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً } (٤) قال ابن عباس في قوله

(١) الطارق ٨٦ / ٥ - ٧

(٢) خلق الإنسان بين الطب والقرآن د / محمد علي البار ط الخامسة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م -

الدار السعودية للنشر والتوزيع ص ١١٦

(٣) المرجع السابق ص ١٢٣

(٤) الإنسان ٣١ / ١ ، ٢

تعالى { من نطفة أمشاج } يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتماعا واختلطتا ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ومن حال إلى حال ومن كور إلى كور ، هكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس : الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة^(١) فالنطفة إذن تطلق على ثلاثة أشياء :

١- نطفة الذكر وهي الحيوانات المنوية .

٢- نطفة الأنثى وهي البويضة .

٣- النطفة الأمشاج وهي النطفة المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة أي البويضة الملقحة .

وهذا الماء الذي يُخلق منه الإنسان هو الذي يلفت الله إليه الأنظار في مقام تذكيره بنعمة خلق الإنسان وكيف أوجد من هذا الماء المهيّن هذا الإنسان الناطق العاقل ، وأن من قدر على ذلك أولاً قادر على إعادة هذا الإنسان ثانيًا للبعث والحساب فيقول سبحانه وتعالى : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا }^(٢) ويقول : { .. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ }^(٣) ثم جعل نسله من سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ^(٤) ثم سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ^(٥) ويقول : { أَلَمْ

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ٥٣

(٢) الفرقان ٢٥ - ٥٤

(٣) السجدة ٣٢ / ٧ - ٩

نَخْلَقَكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ { (١)

وهذا الماء هو النطفة التي ذكرها الله في اثني عشر موضعاً من كتابه : ومن ذلك قوله { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ } (٢) وقوله : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا .. } (٣) ، وقوله : { وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى } (٤)

أخرج الإمام أحمد في مسنده : أن يهودياً مر بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه فقالت قريش يا يهودي : إن هذا يزعم أنه نبي فقال : لأسأله عن شيء لا يعلمه إلا نبي فقال : يا محمد مِمَّ يَخْلُقُ الْإِنْسَانُ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا يهودي من كل يخلق ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم ، فقال لليهودي : هكذا كان يقول من قبلك (أي من الأنبياء) (٥) وقال الحافظ بن حجر في فتح الباري : (كتاب القدر) : والمراد بالنطفة : المنى ، وأصله الماء الصافي القليل ، والأصل في ذلك أن ماء الرجل إذا لاقى ماء المرأة بالجماع وأراد الله أن يخلق من ذلك جنيناً هيا أسباب ذلك (٦)

(١) المرسلات ٧٧ / ٢٠ - ٢٣

(٢) النحل ٦ / ٤

(٣) فاطر ٣٥ / ١١

(٤) النجم ٤٥ / ٤٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد ج ١ / ص ٦٥

(٦) فتح الباري - كتاب القدر ط ١١ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

ويقول ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن : ومنى الرجل واحدة لا تحول منه الرود ما لم يمازجه مادة أخرى من الأنثى، ويقول : إن الانضمام والأجزاء والصورة تكونت من مجموع المائتين ، وهذا هو المنصف (١) وفي نياية الأسبوع الأول من استقرار النطفة في الرحم تصير شجرة التوتة ، وتتثبت وتعلق في جدار الرحم الخلفي في النصف العلوي منه ، ولذلك سمي الله هذه المرحلة بالعلقة أو العلق فذكر "العلقة" في كتابه خمس مرات ، والعلق مرة واحدة في سورة سميت بذلك فقال : {إِسرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ..}

وفي الأسبوع الرابع تتحول العلقة إلى مضغة أي قطعة من اللحم بقدر ما يمضغ الماضغ وهي بالطبع تختلف في حجمها من واحد إلى آخر، وفي هذه المرحلة تظهر الكتل البدنية ويكون أول ظهورها في أعلى اللوح الجنيني جهة الرأس ثم يتوالى ظهور هذه الكتل من الرأس إلى مؤخرة الجنين ، وقد ذكر الله هذا الطور في سورتين من القرآن : في الحج في قوله : { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَطفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. } وفي المزمون في قوله {ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا..} ونلمح هنا أنه وصف في " الحج " المضغة بأنها " مخلقة وغير مخلقة" فما معنى هذا ؟ قال بعض المفسرين بأن هذا الوصف للنطفة فإنها عند علوقها بجدار الرحم تنقسم إلى قسمين : جزء مخلوق وهو الطبقة الداخلية والتي يتكون منها الجنين ، والجزء الآخر غير مخلوق وهو الذي يتكون من الخلايا الآكلة والمغذية .. ولكن الآية صريحة في أن هذا

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية ص ٢٤٤ ، ٢٥٦

وصف للمضغة ومعنى ذلك أن المضغة قبل الأسبوع السابع يكون الجنين غير واضح المعالم ، فإذا ما دخلت المضغة في الأسبوع السابع والثامن اتضحت معالم الطفل وتحددت صورته ، فيذه المضغة في بدايتها كانت غير مخلقة ، ما هي إلا قطعة من اللحم فإذا ما جاءت إلى نهاية مرحلتها أصبحت مخلقة واضحة المعالم فظهرت العظام ثم كسيت العظام لحماً ، كما قال تعالى : { فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين .. } {

وتلي مرحلة المضغة كما ذكرت الآية السابقة تكون العظام والعضلات ثم تأتي مرحلة التصوير والتسوية والتعديل ثم ينفخ فيه الروح وتنب فيه الحياة { ثم أنشأناه خلقاً آخر } فأين هذا الذي كان نطفة ثم علقه ثم مضغة ثم عظاماً ثم كسي لحماً من هذا الذي سرت في جسده نفخة الروح فإذا به هذا الإنسان الخصيم المبين ؟؟

ب- الإنسان المستخلف :-

الإنسان الأول : آدم عليه السلام ، وكل واحد من أبنائه إنسان ، وقد خلق الله الإنسان لغاية عظيمة هي أن يعمر الأرض وفق منهج ربه ، وقد عبّر القرآن عن هذه العمارة بالخلافة ، فذكر في سورة البقرة أن الله جاعل في الأرض خليفة ، { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }^(١) وهذا هو آدم عليه السلام كما ذكر في سورة "ص" نداء الله لداود عليه السلام : { يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. }^(٢)

(١) النقرة ٢ / ٣٠

(٢) ص ٢٨ / ٢٦

يقول الراغب في بيان معنى الخلافة : خلف فلان فلاناً : قام بالأمر : إما معه وإما بعده ، قال تعالى : { ولو نشاء لجعلنا منهم ملائكة في الأرض يخلفون } والخلافة : النيابة عن الغير - إما لغيبة المنسوب عنه ، وإما لموته ، وإما لعجزه ، وإما لتشريف المستخلف ، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أوليائه في الأرض ، قال تعالى { وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض } وقال : { ويستخلف ربي قوماً غيركم } (١)

فآدم عليه السلام كان خليفة وأبناؤه من بعده خلفاء ، وكل جيل يخلف من قبله ، وخلافة أبناؤه واضحة ظاهرة أما خلافته عليه السلام فماذا تعني ؟ هل كان هناك في الأرض خلق آخرون ، أذن الله بانتهاء عهدهم وخلق آدم ليخلفهم في عمارة الأرض قبل ذلك ، وأن هؤلاء هم الجن الذين أفسدوا في الأرض وسفكوا فيها الدماء .. وهذا قول ابن عباس من طريق الضحاك وليس بالقوي فلا يؤخذ به في الغيبيات التي لا سبيل إليها إلا عن طريق الإخبار الصحيح من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أو أن آدم سيكون خليفة عن الله في الأرض ، وكذا كل نبي من أنبيائه وكل قائم منهم على حدود الله ، كل منهم خليفة عن الله في عمارة الأرض وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم ، لا حاجة به تعالى ، ولكن لقصور المستخلف عليهم وعدم لياقتهم لتلقى الأحكام والعلوم من الذات العلية بلا واسطة " (٢) .

(١) المفردات في غريب القرآن : للراغب الأصبهاني [مرجع سابق] ص ٢٢٣

(٢) انظر الفتوحات الإلهية للعلامة للجمال ١ / ٣٨ ، وجامع البيان لابن جرير الطبري ١ / ٢٠٠ .

ورج المعاني للآلوسي ١ / ٢٢٠

وعلى هذا تكون الخلافة هي استخلاف بعضهم على بعض ، فمن نفذ حكم الله وساس به الناس فهو الجدير أن يحظى بشرف الخلافة عن الله عز وجل ، ومن لم يفعل سلب منه هذا الفضل .

أو أن الخليفة الذي ذكر الله للملائكة أنه سيجعله في الأرض هم أبناء آدم لأن الملائكة قالت : " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وهذا لم يقع من آدم فهو أول نبي في الأرض ، إنما حدث هذا من ذريته من بعده ، وقد رد ابن جرير هذا القول وأجاب عن هذه الشبهة فقال ، أغفل قائلو هذه المقالة ومتأولو الآية هذا التأويل سبيل التأويل ، وذلك أن الملائكة إذا قال لها ربها : إني جاعل في الأرض خليفة " لم تضيف الإفساد وسفك الدماء في جوابها ربها إلى خليفته في أرضه ، بل قالت : أتجعل فيها من يفسد فيها " وغير منكر أن يكون ربها أعلمها أنه يكون لخليفته ذلك ذرية يكون منهم الإفساد وسفك الدماء ، فقالت : يا ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ كما قال ابن مسعود وابن عباس ، ومن حكينا ذلك عنه من أهل التأويل " (١)

فإذا ما أجلنا النظر في آيات القرآن الكريم وما جاء فيها من لفظ الخلافة والاستخلاف والخلفاء فسنرى فيها ما ذكرناه من آدم وداود ، ونلمح أنه يذكرون بسنته في خلقه وأنه لا بقاء لجيل من الأجيال ، إذ لا بد أن يرحل ليأتي بعده جيل آخر .

وعلى الخلف أن يعتبروا بما كان من أمر سلفهم في صلاحهم أو فسادهم فيقول في الأنعام ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

(١) جامع البيان لابن جرير ٢٠٠ / ١

بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا عَمَلْتُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ
وَأَنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (١) وَفِي يُونُسَ : ﴿ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا
ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ
الْمُجْرِمِينَ ۝ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ۝ (٢) وَيُذَكِّرُنَا فِي السُّورَةِ نَفْسًا يَمَّا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِ الْمَكِيدِينَ لَنُوحِ
عَلَيْهِ السَّلَامَ وَأَنْ مِنْ آمَنَ بِهِ فَنُجِّاهُ اللَّهُ فِي الْفَلَكَ هُمَ الَّذِينَ خَلَقُوا مِنْ
أَهْلَكِهِمُ اللَّهُ فَعَلَيْهِمْ وَعَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنْ يَذْكُرُوا هَذِهِ
النِّعْمَةَ وَأَنْ يَقُومُوا بِشُكْرِهَا فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَتَبَايَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي
الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ۝ (٣) ۝

ويخاطب بهذا المعنى المكذبين برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ
وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا
خُسَارًا ۝ (٤) ۝

كما يمتن عليهم في جملة ميثاقه بأنه جعلهم خلفاء في الأرض ، إذ لم
يكونوا فكانوا ، فأين من كان قبلهم ؟ وكيف نزل بهم عذاب الله لما كذبوا
المرسلين فيقول : ﴿ أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ
وَيَجْعَلُكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ۝ (٥) ۝

(١) الأنعام ٦ / ١٦٥

(٢) يونس ١٠ / ١٣ ، ١٤

(٣) يونس ١٠ / ٧٣

(٤) فاطر ٣٥ / ٣٩

(٥) النمل ٢٧ / ٦٢

ويذكر أن هذا منيج الأنبياء في دعوة المكذبين من أممهم فهذا هود عليه السلام يقول لقومه { وَأَنذَرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قِسْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ } (١) ويتوعدهم ويبتددهم فيقول لهم : { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ } (٢) ولكنهم لم يعتبروا فقطع الله دابرهم حيث قال : { فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ } (٣) وجاء بقوم آخرين : قوم صالح ، وأخذ يذكرهم بما حل بمن كان قبلهم فيقول : { وَأَنذَرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَتَجَنَّبُونَ الْجِبَالَ بَيْوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (٤) فكذبوه وعاندوه وعقروا الناقة : { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } (٧٨) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربِّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون النصيحة (٥)

وهكذا كل الأنبياء ذكروا أقوامهم بأن الله استخلفهم بعد أجيال سابقة وعليهم أن يعتبروا بمن سبقهم ، ومن أولى العزم من الرسل موسى عليه السلام ، يقول لبني إسرائيل وهم في قلب المحنة : { اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } (١٢٨) قالوا أودينا من قبل أن تأتيانا ومن بعد ما جئتنا قال عسى

(١) الأعراف ٨ / ٦٣

(٢) هود ١١ / ٥٧

(٣) الأعراف ٨ / ٧٢

(٤) الأعراف ٨ / ٧٤

(٥) الأعراف ٨ / ٧٨ ، ٧٩

رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} (١)
 فلما نجاهم ربهم ومكنهم في الأرض وفضلهم على العالمين لم يشكروا
 على العيد ، ولم يؤدوا حق الله عليهم ، فخانوا الأمانة ونقضوا العهد
 وبدلوا كلام الله وفق أهوائهم واعتدوا على شرع الله وقتلوا الأنبياء بغير
 حق فأذلهم الله وأخزاهم { وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبِ
 مِنَ اللَّهِ } (٢)

وحين يسوق الله هذا القصص القرآني في الكتاب الذي أنزله على
 رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إنما يريد ممن نزل فيهم هذا
 القرآن أن يعتبروا : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } (٣)

ولذلك تراه يهدد المعاندين لهذا الرسول صلى الله عليه وسلم وهو
 يقول : { وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا
 يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ } (١٣٣) إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِ وَمَا
 أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } (٤) وقد حقق الله وعده لعباده المؤمنين جرياً على سنته
 في خلقه وأن من استقام على الجادة واتبع المرسلين وصبر وصابر حتى
 أفرغ كل جهده مكن الله له في الأرض ، وهياً له أسباب النصر وكان له
 ولياً وحافظاً ومؤيداً فقال سبحانه : { وَاعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ

(١) الأعراف ٨ / ١٢٨ ، ١٢٩

(٢) البقرة ٢ / ٦١

(٣) يوسف ١٢ / ١١١

(٤) الأنعام ٧ / ١٣٣ ، ١٣٤

لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَكِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (١)

من هذا يتضح لنا أن الخلافة نيابة عن الله في الأرض لتحكيم شرع الله والقيام بعمارة الأرض وفق منهج الله وهذا هو الطريق الذي بدأه آدم أول خليفة عن الله في هذه الدنيا قال تعالى بعد أن ذكر ما كان من أمر آدم وتوبته { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تَنْسَى } (٢) فمن لم يقم بهذه المهمة لا يستحق أن يكون خليفة عن ربه .. وقد قام بها آدم خير قيام ، وجاء أبناؤه من بعده خلفاء ، يخلف كل جيل من سبقه ، وهذا هو المعنى الثاني للخلافة ، وسوف تتوارد أجيال الإنسانية إلى يوم القيامة ، كل جيل يعقب من قبله ، فمن نظر في سنن الله وآياته في خلقه وأخذ الدرس والعبرة عاش سعيداً في الدنيا ولقي الله سعيداً ، ومن عمي عن الطريق فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ...

جـ الإنسان المُكْرَمُ:

هذا الإنسان - آدم وأبناؤه من بعده- مخلوق مُكْرَم ، سواء الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد لآدم ملائكته ، وقد كان هذا التكريم مثار حقد

(١) النور ٢٤ / ٥٥

(٢) طه ٢٠ / ١٢٣ - ١٢٦

وحد أدى إبليس أن يفعل ما فعل ، وأن يضمر الشر للإنسان قال تعالى : {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْنَدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُؤِخِّرَنَّ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَأَخَّتُكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَغْفِرُ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيَتِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (١) .

وإذا كان الله قد كرم آدم في السماء وعلمه الأسماء كلها وأظهر فضله في الملائكة حتى كان من أمر إبليس ما كان فإنه سبحانه بين لنا كذلك أن هذا التكريم ليس لآدم وحده إنما جعله الله لأبناء آدم فقال بعد الآيات التي ذكرناها آنفاً بأربع آيات : {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٢) } وكان على بني آدم أن يدركوا هذه الحقيقة : حقيقة تكريم الله لهم وتفضيلهم على كثير ممن خلقهم الله تفضيلاً عظيماً وذلك بشكر ولي النعمة بعبوديته ومحبته وطاعته واتباع نهج أنبيائه ورسله . ولكن فريقاً منهم ضل السبيل ، ولم يشكر ربه وعاش في دنياه لا يرى هذه الحقيقة المشرقة ، ولذلك كان التعقيب على هذه الآية بقوله {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَٰكِن يَظْلَمُونَ

(١) الإسراء ١٧ / ٦١ - ٦٥

(٢) الإسراء ١٧ / ٧٠

فَتَبَيَّنَا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (١)

وهذا التكرير يتجلى في مظاهر عدة :-

أولها : أن الله كما اختار آدم خليفة في الأرض ، جعل أبناءه من بعده خلفاء ، يحققون منهج الله ويعمرون الأرض وفق هذا المنهج الإلهي ، وفي ذلك تكرير للإنسان وأي تكرير .

وثانيها : أن الله سخر له ما في السموات وما في الأرض ولم يجعله مسخرًا لذلك تستعبده الآله ، ويستعبده المال والمتاع ، يقول الله تعالى : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ النَّهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَعَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } (٢) ويقول : { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ } (٣) والآيات في هذا كثيرة (٤)

(١) الإسراء ١٧ / ٧٢، ٧١.

(٢) إبراهيم ١٤ / ٣٢ - ٣٤

(٣) الجاثية ٤٥ / ١٢ ، ١٣

(٤) وحسب نعود إليها بالإيضاح في الفقرة التالية : صلة الإنسان بالكون

ثالثها : أن الله جعله مختاراً ، يستطيع أن يختار بين البدائل ما يشاء دون قسر أو إكبار ، ومنحه نعمة العقل وبها يوازن بين ما ينفع وما يضر ، وبها يتلقى دعوات الأنبياء وما نزل به الوحي من السماء ، وله حق القبول والرفض : { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ } (١) ولكن عليه أن يتحمل مسئولية اختياره هذا ، فلا يغلبه جهله وظلمه لنفسه واستيلاء شهوته عليه ، وإغواء الشيطان له فيختار الضلال والفسوق والفجور والعبودية للطواغيت تاركاً طريق الهدى والطاعة والانقياد لله والعبودية لربه الذي خلقه فسواه فعدله في أي صورة ما شاء ركه ، قال تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } (٢)

رابعاً : أن الله إذ جعله مختاراً لم يتركه سدى ، إنما أرسل له الرسل وأنزل له الكتب وأرشده إلى الطريق الصحيح ، وفي اختيار الرسل والأنبياء من بني آدم ، وفي إنزال الوحي عليهم تكريم ظاهر للجنس الإنساني فالمخلوقات الأخرى منقادة مسخرة لله إلا ما كان من أمر الجن والشياطين ولكن الجن في أصح الأقوال تابعون للمرسلين من بني آدم قال تعالى : { يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ } (٣)

(١) الكهف / ١٨ / ٢٩

(٢) الأحزاب / ٣٣ / ٧٢

(٣) الانعام / ٦ / ١٣٠

ويُفسر قوله تعالى: " ألم يأتكم رسل منكم " ما جاء في كل من الأحقاف والرحمن والجن ، وفيما أن الرسل إنما كانوا من الإنس ، والجن تبع لنبى في ذلك ، ففي سورة الأحقاف : { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }^(١) وفي الرحمن ، يقول تعالى : { فَيَا أَيُّهَا الْعَالَمُ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ؟ }^(٢) وهو سؤال للإنس والجن ، وفي سورة الجن : { قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا .. } إلى آخر الآيات المباركات في هذه السورة^(٣)

خامسًا : ما شرعه الله للإنسان من ألوان التكريم التي تتجلى في شريعة غراء تحفظ للإنسان حقه في الحياة ، وتكرمه طفلًا وشابًا وشيخًا وأبًا وأمًا وجارًا وصديقًا وفقيرًا وبيتمًا وحرًا ورقيقًا وابنًا وبناتًا وزوجًا وزوجة وقويًا وضعيفًا ، ورجلًا وامرأة ، وحاكمًا ومحكومًا ، وما جعله الله للإنسان من حماية تحفظه من الجهل والفقر ، وتقوّم نفسه وتبني وجدانه وعقله وبدنه ، وتمنع الآخرين من الاعتداء عليه ليحيا آمنًا مستقرًا

(١) الأحقاف ٤٦ / ٢٩ - ٣٠

(٢) الرحمن ٥٥ / ١٦ وغيرها من المواضع في السورة

(٣) سورة الجن ٧٢ / ١ ، ٢ وما بعدهما

مطمئناً ، ويدخل في ذلك كل ما ذكرناه في هذا الباب مما جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة مما لا يتسع المجال إلى ذكر تفصيلاته .

سادساً : الإنسان إذا ما انتقل من هذه الحياة الدنيا إلى الدار الآخرة يحظى بتكريم من لون فريد ، فعلى من حوله أن يلقنوه الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حتى يفارق الدنيا على الإسلام فيحظى بالنعيم المقيم في جنات النعيم فإن كان هذا الإنسان غير مسلم عرضوا عليه الإسلام فلعل الله ينقذه من النار ، فإذا ما تحقق الموت غسلوه وكفنوه في أثواب طاهرة ومن السنة أن تكون بيضاء ، ثم يصلون عليه ، ولو كان الميت صغيراً إذ ما دام قد استهل صارخاً وجب على من حضره الصلاة عليه وهي من فروض الكفائية ، ثم يُسَبَّحُ الميت إلى قبره محمولاً على أعناق الرجال إلا إذا كان هناك عذر يشق معه حمله كبُعد المسافة أو هطول المطر أو ما إلى ذلك من الأعذار ، وإذا مرت الجنازة يقوم قاموا له تكريماً ولو كان الميت غير مسلم لما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها فمن تبعها فلا يجلس حتى توضع " (١) وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم لجنازة يهودي مرت به ، وعندما سئل عن ذلك قال : أليست نفساً ؟ أخرجه البخاري (٢)

ومن مظاهر التكريم ما فرضه الإسلام من وجوب احترام جثة الميت وأنه لا يجوز أن يمس جلد الميت بأذى ولا يعتدي على الميت

(١) المسند للإمام أحمد ٢ / ٢٥٠ عن أبي سعيد الخدري

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الخنازير باب من قام لجنازة يهودي ٢ / ١٨٠

بكسر أو قطع أو ضرب أو تشويه أو تمثيل أو نحو ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كسر عظم الميت ككسره حياً (١)

كما يجب دفن جثة الميت وفي ذلك تكريم وأي تكريم ، وفي هذا نذكر ما كان من أمر قابيل وهابيل وكيف استدى قابيل على هابيل فقتله وحمل جثمانه لا يدري ماذا يصنع به يقول تعالى : { فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } (٢)

ويجب أن يتم الدفن دون تأخير ، قال تعالى : { قَبِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ } (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ... { (٢) فالفاء في قوله : فأقبره تدل على وجوب المسارعة في الدفن دون إبطاء . وزيادة في التكريم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باحترام المكان الذي يدفن فيه الميت ، فلا يجوز الجلوس على القبر ، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذا فيه إيذاء للميت ، " ولأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من الجلوس على القبر " . (٤)

وفي زيارة الميت والدعاء له بالرحمة والمغفرة ، وفي الدعاء لموتى المسلمين تواصل ومحبة وتقدير وتكريم ، وصدق الله إذ قال : { ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً } .

(١) المست ٦ / ١٠٥ عن عائشة رضى الله عنها

(٢) المائدة ٥ / ٣١

(٣) عن ٨٠ / ١٧ - ٢٢

(٤) أخرجه مسلم وأبو داود ونسائي

٢- الإنسان : وصلته بالكون :

أ- صلة انتفاع :

خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته وخلق له أنيسا يذهب وحشته هي حواء ، وأمرهما ألا يأكلا من الشجرة فوسوس لهما الشيطان وزين لهما المعصية فأكلا منها {فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (١) .

فنزل آدم وحواء إلى الأرض بعد أن تابا إلى الله وقبل الله توبتهما ، فليس نزولهما نزول طرد وإبعاد وإهانة ، إنما نزول رحمة وتكريم يعد أن لبثا في الجنة وقتا أخذوا فيه درسا فيمن هو عدوهما ، وليبصرا أبناءهما بهذا العدو حتى لا يقع واحد من هؤلاء الأبناء في شرك العدو اللدود : إبليس اللعين .

(١) الأعراف ٧ / ٢٢ - ٢٥ .

وآدم وأبناؤه من بعده خلفاء فى أرض الله يعمرونها وفق منهج الله... يستخرجون كنوزها ، ويستفيدون من خيراتها وبركاتها ، وينشئون فيها حضارة تتوالى الأجيال على بنائها وإقامتها ، فكيف يتم لهم ذلك ؟

لا يتم لهم ذلك إلا بتمكين الإنسان مما حوله من الكائنات ، وتسخيرها له وانقيادها لإرادته ، وإذا كانت كل الكائنات والمخلوقات منقادة لله ، عابدة له ، مسبحة بحمده ، وهو سبحانه مالك أمرها ومدبر شئونها ، فإنه جل وعلا أعطى الإنسان هذا الملك لينتفع به فيحقق ما كلفه به ربه من الخلافة عنه فى هذه الأرض ..

وهذا ما نراه فى آيات القرآن التى تتحدث عن تسخير المخلوقات للإنسان وتذليلها له ، وتمكينه منها ، وأن الله خلق لكم ، أو جعل لكم ، أو أنشأ لكم أو ما إلى ذلك مما يدل على هذا التمليك المقصود من الله لعباده ليؤدوا وظيفتهم فى هذه الحياة ..

وبجمع الآيات فى هذا الموضوع يتضح لنا أن مادة " التسخير " تأتى أحيانا دليلا على قدرة الله فى خلقه ، وأن المخلوقات لا تشذ عن أمره ، وأحيانا يمتن بهذا للتسخير على الإنسان ، وأن الله هو الذى جعلها منقادة لهذا الإنسان ، نقرأ فى المعنى الأول كل ما جاء من مادة التسخير اسم مفعول مفرداً أو جمعاً : وذلك فى أربعة مواضع : فى البقرة { **ولسحاب المسخر بين السماء والأرض** } وفى الأعراف : { **والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره** } ، وفى النحل فى موضعين :

١- { والنجوم مسخرات بأمره } .

٢- { ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا

الله } .

أما ما جاء منها فعلا ماضيا مستندا إلى " نا " فكله في المعنى الثاني وهو تسخير هذه المخلوقات للإنسان، من ذلك تسخير الجبال والطير يسبحن مع داود عليه السلام وذلك قوله تعالى : { وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير } وقوله : { إنا سخرنا معه الجبال يسبحن بالعشي والإشراق } .

ومن ذلك التسخير ، تسخير الريح لسليمان عليه السلام ، { فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب } .

وتسخير البعير — ذكرا وأنثى — رغم ضخامته وقوته للإنسان حتى يتمكن من قيادته والانتفاع به وذبحه والاستفادة من شعره وعظمه ولحمه وشحمه كما قال تعالى : { والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم عليها صواف (أى قائمة) فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القاتع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون } .

أما إذا جاء فعل التسخير ماضيا مستندا إلى ضمير المفرد العائد إلى لفظ الجلالة فإنه يجمع بين الأمرين ، ففي الأمر الأول نقرأ قول الله تعالى : { الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى } (١) ... { ومثل

(١) الرعد ١٣ / ٢ .

هذا ما نفروء في لقمان ، وفاطر ، والزمر ^(١) . وهذا المعنى يسوقه وهو يحدثنا عن اعتراف المشركين بربوبية الله وإن أنكروا ألوهيته فيقولون : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } ^(٢) .

أما المعنى الثاني وهو أن الله سخرها للإنسان فنقرأ فيه في سورة إبراهيم قوله تعالى :

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ النَّهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَعَبَّاتُكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } ^(٣) . ونقرأ في " النحل " قوله سبحانه : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلِيَّةً تَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ }

(١) لقمان ٣١ / ٢٠ ، فاطر ٣٥ / ١٣ ، الزمر ٣٩ / ٥ .

(٢) لعلك ٢٩ / ٦١ .

(٣) إبراهيم ١٤ / ٣٢ - ٣٤ .

تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١). ففى هذه الآيات التى ذكرتها كاملة نرى أن الله يمتن على عباده بأنه أنزل من السماء ماء من أجلهم فى شربهم وأشجارهم وأنعامهم وزراعتهم ، وأنه سخر لهم الليل والنهار والشمس والقمر ، وخلق ما خلق فى الأرض على اختلاف ألوانه لهم ، وسخر البحر لطعامهم وحليتهم وتجارتهم وأرزاقهم وألقى فى الأرض رواسي لئلا تميد بهم وتضطرب ، ومن قبل هذه الآيات فى سورة النحل نرى ما امتن به من خلق الأنعام وما جعل فيها من منافع للإنسان ، وكثيرا ما يسأل القرآن فيقول : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ } (٢). ويقول : { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } (٣). ويقرر هذا من خلال اعتراف المشركين بربوبيته ليدعوهم من ذلك إلى توحيد ألوهيته — كما سبق أن ذكرنا — فيقول : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ

(١) النحل ١٦ / ١٠ - ١٨

(٢) الحج ٢٢ / ٦٥

(٣) لقمان ٣١ / ٢٠

تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١). ويؤكد هذه الحقيقة في سورة الجاثية فيقول : { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (٢).

وهذا التسخير يعبر عنه بالتذليل وهو شدة الانقياد : نرى ذلك فيما نشاهد من انقياد الأنعام من الإبل والبقر والغنم والضأن مع ما لها من قوى تفوق قوى الإنسان بمراحل وذلك قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ } (٣). وما نراه في هذه الأرض وكيف أنها لا تستعصى على الحرث والإنبات والسير في جنباتها يقول تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } (٤).

كما نرى هذا المعنى في قول الله تعالى : { وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُم فِيهَا مَعَاشٍ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ } (٥). والتمكين في الأرض كما

(١) الزخرف ٤٣ / ٩ - ١٤

(٢) الحاشية ٤٥ / ١٢

(٣) يس ٧١ - ٧٣

(٤) الملك ٦٧ / ١٥

(٥) الأعراف ٧ / ١٠

يقول الفخر الرازي : جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا ومكانكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها^(١) إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن الله جعل هذا الكون كله في سمائه وأرضه وبحاره وأنهاره وشموسه وأقماره وجميع مخلوقاته في خدمة هذا الإنسان لا يصعب عليه شيء منه ، وجعل الحق سبحانه لذلك أسبابا من عرفيا واتخذها مركبا قادته إلى ألوان من الاكتشافات تيسر له حياته ، يستوى في ذلك المؤمن وغير المؤمن ، وإن كانت رسالات الأنبياء قد دلت على أنه لكي يصل الإنسان إلى طريق الأمان والسعادة ويبني حضارته على أسس من المحبة والتعاون والأمان لابد من امتزاج عناصر ثلاثة :

الإيمان والعلم والعمل ، وهي حبات عقد نفيس ، لو انتظمت هذه الحبات فيه ، تحلى الإنسان بأكرم حياة وأجمل مظهر وبدا إنسانا يحقق إنسانيته فإذا انفردت حبة من هذا العقد لم يصل إلى شيء مما يرجو ، فلو فقد الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر لانطلق بالعلم السذى اكتشف به قوى هذا الكون كالسكران تعطيه سلاحا فيقتل به نفسه ويقتل به غيره ، وما يحدث للإنسان في أنحاء الأرض من قتل وتشريد وما ينتشر هنا وهناك من ألوان الفساد والدمار وما يراق من دماء ، وما فيه العالم كله من دعر وخوف من أسلحة الهلاك والإبادة ، كل ذلك حدث لأن عنصر الإيمان قد غاب من هذه المنظومة الربانية ، ولو وجد الإيمان بدون "علم" لما كان هناك تقدم ، وهذا حال المسلمين في عصورهم الأخيرة إذ سبقهم غيرهم في مجالات اكتشاف مجاهل الكون في سمائه

(١) تفسير الفخر الرازي المسمى بالتفسير الكبير ط بيروت م ٥ / ج ١٣ ص ٢٠٤

وأرضه حتى أصبح المسلمون عالة عليهم في أمنهم وغذائهم وكسائهم بل وفي ترفهم ، وإذا فقد العنصر الثالث وهو العمل لن يصل الناس إلى تحقيق آمالهم ، وانظر إلى خطط أمة الإسلام وهي تتفق على طلاب العلم الملايين ولكن دون الاستفادة من كثير من هذه الطاقات الهائلة ... فالآلاف من هؤلاء المتعلمين الذين حصلوا على المؤهلات العليا ، بلا عمل ، وإن حصلت لهم بلادهم على فرص للعمل فكثيرا ما يكون في غير مجال التخصص والدراسة.

إن الله عز وجل حين خلق هذا الكون وأقدر عليه الإنسان إنما أراد للإنسان أن ينتفع بذلك كل الانتفاع وأن يستفيد منه في إعمار الأرض تحقيقا للغاية التي هبط من أجلها إلى هذه الأرض وهي أن يكون خليفة فيها يحقق بإيمانه وعلمه وعمله العبودية لله رب العالمين ، فمن أدرك هذا فاز وسعد وأمن ونجا وكان من المفحين .

٢- صلة الإنسان بالكون :

ب - صلة تفكر ...

إذا كان الله قد سخر للإنسان الكائنات لينتفع بها ، وليتمكن من القيام بمهمة الخلافة في الأرض - كما رأينا - فإنه يترتب على هذه الحقيقة أمران :

الأمر الأول : هو أنه لا يمكن أن يكون مُسخرًا ومنقادًا لكائن من هذه الكائنات في السموات والأرض ، إنه منقاد لخالق هذه الكائنات ومسخرها ومدير أمرها ، وباستقرار هذه الحقيقة يتبين لنا خطأ من قالوا

بأن الإنسان ترس في الآلة ، ومحكوم بظواهر الطبيعة ، إلا أن يقال بل أن نواميس الوجود الذي هو جزء منه تعمل عملها فيه بأمر الله وقدرته .

الأمر الثانى : هو فى صلة الإنسان بهذه المخلوقات التى أذن الله له أن ينتفع بها وذلكها له وأعطاه قيادها ... عليه أن يتفكر وينظر ويعتبر ليدرك أنها وجدت قبل وجوده ، وأنها أعظم منه خلقا وقدره ، فمن الذى أوجدها ؟ ومن الذى أعطاهما هذه الطاقات الهائلة ؟ ثم يتساءل : من الذى سخرها له وجعلها سلسلة القياد ؟ وبهذا النظر وهذا التفكير يصل من السبب إلى المسبب ومن الفعل إلى الفاعل ، فإذا ما وصل إلى ذلك علم فضل المنعم وما يجب له من حق العبودية والطاعة والخضوع والشكر والثناء.

وبهذا يتم التفاعل بين الإنسان وهذا الوجود فيشعر أنه جزء من هذا الكون يسبح معه ، كما قال تعالى : { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } (١) "وهو تعبير تنبض به كل ذرة فى هذا الكون الكبير ، وتتنفض روحا حية تسبح الله ، فإذا الكون كله حركة وحياة ، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رحية ، ترتفع فى جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال ، وإنه لمشهد كونى فريد ، حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر ، كل حبة وكل ورقة ، كل زهرة وكل ثمرة ، كل نبتة وكل شجرة ، كل حشرة وكل زاحفة ، كل حيوان وكل إنسان ، كل دابة

(١) الإسراء ١٧ / ٤٤

على الأرض ، وكل سابعة في الماء واليواء ، ومعها مكان السماء .
كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه " (١)

وهذا ما أراده القرآن وهو يعرض صفحة الوجود في السماء والأرض ، تراه يأمر بالنظر في ملكوت السموات والأرض ، والسير هنا وهناك للتفكير والاعتبار ، ويستثير كوامن العقل والفكر ، يدفعها دفعا قويا لتعقل وتتدبر ، وتفقه وتعلم ، ويستخر ممن صميت أبصارهم وأغلقت منافذ الفهم فيهم ، ولم يستفيدوا من أسماعهم وأبصارهم وعقولهم في الوصول إلى معرفة الخالق جل وعلا ...

يقول تعالى : { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ... } (٢)

ويقول : { قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } (٣)

ويقول : { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (٤)

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب م ٤ ص ٢٢٣٠ ، ٢٢٣١

(٢) الأعراف ٧ / ١٨٥

(٣) يونس ١٠ / ١٠١

(٤) الأنعام ٦ / ٩٩

ويقول : { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَتَأْكُلُ مِنْ مَاءِ صَيِّبِنَا أَمْ الْمَاءِ صَيًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَاتَّبَعْنَاهَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلَبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِإِنْعَامِكُمْ } (١)

ويقول : { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ } (٢)

وليس هذا النظر إلا للغوص في أسرار الوجود لينطق اللسان والجنان والوجدان بأن الله وحده هو رب ذلك ومصرفه ومدبره ، وأن هذا الرب له على عباده حق الطاعة والعبودية والمحبة ، فلا معبود بحق إلا هو ، كما أنه لا رب لهذا الوجود سواه .

وهذا المعنى نجده كذلك حين نقرأ الآيات التي تأتي في سياق الحديث عن مخلوقات الله فتبدأ أو تختم بالدعوة إلى التفكير كما نرى في قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى } (٣) وقوله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ

(١) سورة عبس ٨٠ / ٢٤ - ٣٢

(٢) الطارق ٨٦ / ٥ - ٧

(٣) الروم ٣ / ٨

النَّارِ} (١) إلى آخر الآيات بما فيها من هذا الدعاء الضارع لله رب العالمين .

ونقرأ في سورة الرعد : { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ لَتُنْتَغِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } وبعد هذه الآية يقول أيضا : { وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلٌ بِغَضِّهَا عَلَىٰ غَضِّ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (٢) والعقل أداة الفكر ، فالمناسبة بينهما ظاهرة .

وفى آيات النحل التى ذكرناها من قبل فى الفقرة السابقة نرى أن الآيات تختم هكذا : { إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون } ، { إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون } ، { إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون } (٣)

كما نرى دعوته للتفكر فى عالم النحل بكل ما فيه من عجائب الخلق فيقول : { وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ

(١) آل عمران ٣ / ١٩٠ ، ١٩١

(٢) الرعد ١٣ / ٤٠٣

(٣) النحل ١٦ / ١١ - ١٣ ، ٦٨ ، ٦٩

مَنْ يَطْوُنْهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } إلى غير ذلك من الآيات .

والآيات التي تستثير العقل ليتدبر ويفكر ويعتبر نراها كثيرة في القرآن منها قوله تعالى في سورة البقرة : { إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (١)

والصلة بين كتاب الله المصطور ، وكتاب الله المنظور صلة واضحة، فكل منهما يرشد إلى الخالق المتصف بصفات الجلال والكمال .

وآيات الله في الأنفس وفي الآفاق في سورة الروم تخدم على التوالي بقوله تعالى : { إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } ، { إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ } { إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } { إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ، إلى أن قال : { كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (٢)

والعقل واللب واحد ، وكثيرا ما يدعو القرآن أصحاب العقول وهم أولو الأبواب للنظر والتفكير ، وقد رأينا قول الله تعالى : { إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } (٣)

(١) البقرة ٢ / ١٦٤

(٢) الروم ٣٠ / ٢٠ - ٢٨

(٣) آل عمران ٣ / ١٩٠

إن الإنسان الذى صاغه كتاب الله ليس دُمِيَّةً تتحرك ولا حَجَرًا لا يَلِينُ ، بل إن من الحِجَارَةِ - كما قال تعالى : ﴿لَمَّا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَنْشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (١) لكن الإنسان مخلوق من جسد وروح ، يخلق بروحه وعقله وفكره فى هذا الوجود فيشعر بوجوده وسعادته وامتداد أفقه ، ورحابة هذا الكون من حوله وأن وراء هذه الأسباب مسبباً ووراء هذا الكون مكوِّناً ، جاءت رسالات الأنبياء التى ختمت برسالة الإسلام لتدله على هذا المسبب وهذا المكون وهذا الخالق وذلك الموجد ، ولتصفه له ولترشده إلى ما يجب عليه إزاء الرب الكبير المتعال من حق الطاعة والعبودية والانقياد . كما سنرى من إيضاح فى الفقرة التالية :

٣- صلة الإنسان بالله :

أ- صلة عبودية ، وتحرر من عبودية غيره : -

هذا الكون كله عابد لله ، منقاد له ، يسبح ربه ويسجد له بلغة وحركات لا نعرفها ، إذ بعد أن خلق الله السموات والأرض وما فيهما ومن فيهما خيرهما بين الانقياد له اختياراً أو كرهاً ، فسلما له القياد :

قال تعالى فى قصة خلق السموات والأرض : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (٢)

وهذه الطاعة يعبر عنها بالقنوت ، وهى أقصى درجات الخضوع والعبودية فيقول فى الرد على من قالوا بأن الله له ولد : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ

(١) الفقرة ٢ / ٧٤

(٢) فصل ٤١ / ١١

اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَئِه قَانِتُونَ} (١)
 ويعبر عنها بالسجود ، انقيادا وخضوعا وتذللا ، وهذا ما يسأل عنه
 القرآن المشركين مؤال تقرير ليقودهم إلى العبودية له فيقول : { أَوَلَمْ
 يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا
 لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) } وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
 دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ
 مَا يُؤْمَرُونَ } (٢)

والإنسان جزء من هذا الكون خلقه الله لعبادته قال تعالى : **لَوْ مَا
 خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، مَا لِرَبِّهِمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا لِيُؤْمِنُوا أَنْ
 يَفْعَلُونَ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ** { (٣)

إلا أن الله جعل هذا الإنسان مختاراً في جانب ، مقهوراً في جانب
 آخر ، فله أن يختار بين الخير والشر والإيمان والكفر والهدى والضلال ،
 وما ينفعه وما يضره ، ولكنه لا اختيار له في خلقه ورزقه وأجله ، وما
 قدره الله له من سعادة وشقاء ، فهو لا يستطيع أن يختار الزمن الذي يولد
 فيه ، ولا من يكون له أباً أو أمّاً ، ولا لونه وطوله وعرضه وصحته ،
 وهل يرغب في أن يكون رزقه واسعاً أو ضيقاً ، ولا كم سيعيش في هذه
 الدنيا ومتى يريد أن يرحل عنها ، وما إلى ذلك ، ولعل هذا ما يشير إليه

(١) البقرة ٢ / ١١٦

(٢) النحل ١٦ / ٤٨ - ٥٠

(٣) الذاريات ٥١ / ٥٦ - ٥٨

التعبير بالاستسلام لله كرهاً في قول الله تعالى : { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } (١) والتعبير بالسجود له كذلك كرهاً كما قال سبحانه : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } (٢) وكما قال : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } (٣)

ومع هذا الانقياد من كل المخلوقات بما فيها الإنسان تسبيح وتثنية للإله الخالق كما قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } (٤) وهذا التسبيح من غير الإنسان بطريقة لا نعرفها كما قال تعالى : { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } (٥)

وإذا كان الله قد سلب الإنسان حرية الاختيار فيما لا مجال للاختيار فيه وأعطاه هذه الحرية بين البدائل فيما أذن له فيه فإنما كان

(١) آل عمران ٣ / ٨٣

(٢) الرعد ٢٤ / ١٥

(٣) الحج ٢٢ / ١٨

(٤) النور ٢٤ / ٤١

(٥) الإسراء ١٧ / ٤٤

ذلك لحكمة إلهية حتى تنتظم حياة هذا الإنسان في هذه الأرض ، ويسودى رسالته التى كلف بها من قبل مولاه وهو لن يحقق هذه الرسالة على أكمل وجهها إلا بأن يجعل هذا الجانب الاختيارى لله ، فيختار الإيمان والخير والهدى والحق ، ويترك الكفر والشر والضلال والباطل ، وهذا ما دعاه إليه ربه ، وأرسل له الرسل وأنزل الكتب ، لينبئ له حقيقة الصلة التى تربطه به ، إن الله هو الذى خلقه ورزقه وأحياه ويميته ، فمن أولى به منه ؟ من يكون له على هذا الإنسان حق الطاعة والعبودية والانقياد غير رب العالمين ؟ يقول سبحانه : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } (١)

وآيات القرآن فى هذا المعنى كثيرة ، وهى تخاطب العقل والوجدان وتثبت بالأدلة القاطعة أن من كان ربا خالقا رازقا ، له ملك السموات والأرض : ملكا وملكاً وتصريفاً وتدبيراً هو الذى يجب أن يتأله له الخلق ، وأن يدين له العباد بالطاعة والمحبة ، والولاء ، شكراً لنعمته ، ووفاء بحقه ، ولنقرأ فى ذلك قول الله تعالى : { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا

(١) س روم ٣٠ / ٤٠

دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَنَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ يُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَنَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١)

وهل لهم برهان حتى يأتوا به ؟ إنه الدليل تلو الدليل والبرهان يعقب البرهان يستثير كل كوامن العقل ، وإدركات البشر ليتأملوا في خلق الله وليعلموا أنه لا رب لهم سوى الله ، وأن هذا حقه على عباده ، ففي حديث معاذ قال : أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قال معاذ : فقلت : الله ورسوله أعلم ، قال : " حق الله على العباد ألا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً " (٢)

إن الإنسان لو تأمل وعقل لأدرك أن سعادته وأمنه في الانضواء تحت لواء العبودية لخالقه ، فيها يلبي حاجة قلبه وفطرته ، ويركن إلى ركن ركين له كل صفات الكمال ، ولذلك قال تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } (٣) فإن عبد غيره توزع فكره وقلبه ، وتشتت أمره ، وحرم السعادة في الدنيا والآخرة ولذلك شبه الله المشرك بمن سقط من السماء فتسطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان محيق أو بمن كان عبداً لشركاء مختلفين فيه فلا

(١) النمل ٢٧ / ٥٩ - ٦٤

(٢) متفق عليه .

(٣) الرعد ١٣ / ٢٨

يدري ممن يطلب طعامه وشرابه وأمنه ، وكل منيع يريده خادماً له ،
ولنقرأ في ذلك قول الله تعالى : { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ
السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } (١). وقوله .
{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } (٢).

والقرآن وهو يعرض لهذه القضية نراه يبين أمرين :

الأول : أن هذه الآلهة المدعاة عاجزة ضعيفة لا تصلح للالهوية ،
والثاني : أنها لا ترضى بأن يعبدها غيرها بل وتتبرأ إلى الله ممن
عبدوها .. ففي الأمر الأول يثبت القرآن أن هذه الآلهة لا تملك لنفسها
فضلاً عن غيرها نفعا ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً يقول
تعالى : { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً } (٣)

وهذه الحجة هي التي دفع بها إبراهيم الخليل عليه السلام عبادة
قومه للأصنام : "قال" : { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً
وَلَا يَضُرُّكُمْ } (٦٦) أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ { (٤)

(١) الحج ٢٢ / ٣١

(٢) الزمر ٢٩ / ٢٩

(٣) الفرقان ٢٥ / ٣

(٤) الأنبياء ٢١ / ٦٦ ، ٦٧

وفى الرد على النصارى فى عبادتهم للمسيح عليه السلام يقول تعالى : { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ... } (١)

وفى قصة موسى فى سورة "طه" يقول تعالى لمن عبدوا العجل من دونه : { أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } (٢)

ولذلك يقول الله لرسوله : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } (٣) ، وأهل الإيمان يقولون ما ذكره الله عنهم : { قُلْ أُنَادُّوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ؟ } (٤)

إلى غير ذلك من الآيات التى تجعل الرزق والخلق والبدء والإعلاء والقدرة لله ، وتتساءل هل فيمن عبدوهم معه أو من دونه من يستطيع ذلك؟ والواقع يقول : بأنهم عاجزون ضعفاء فى حاجة إلى من يرزقهم وأن الله هو الذى خلقهم وهو الذى يعيدهم ، يقول تعالى : { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ

(١) المائدة ٥ / ٧٦

(٢) طه ٢٠ / ٨٩

(٣) يونس ١٠ / ١٠٦ ، ١٠٧

(٤) الأنعام ٦ / ٧١

الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَتَسَوْفُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١)

أما الأمر الثاني وهو أن هذه المخلوقات تتبرأ من عابديها فنقرأ في ذلك قول الله تعالى في عيسى عليه السلام : {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} (٢). إلى آخر ما قال عليه السلام ...

ونقرأ قوله تعالى : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا } (٣)

(١) يونس ٣١ / ١٠ - ٣٥

(٢) المائدة ١١٦ / ٥

(٣) العرقان ٢٥ / ١٧ ، ١٨

والمشركون أقاموا عبادتهم للأصنام على قيم خاطيء ، فادعوا أن
 الملائكة - وهى عالم روحانى - حلت بأصنامهم فهم حين يعبدون
 الأصنام ترفع الملائكة التى بها عبادتهم إلى الله تعالى وهذا ما ذكره الله
 من قولهم : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } (١) . وما قاله عنهم :
 { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَنَا بِضُرِّهِمْ وَلَا يُنْقِضُهُمْ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ
 شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
 الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } (٢) ، ولذلك يتبرأ هؤلاء الملائكة
 مما نسب إليهم قال تعالى : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ
 أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ } (٣٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ
 كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ } (٣)

وإذا استقر فى القلب والوجدان والمشاعر أن الله هو الواحد الأحد
 الفرد الصمد المتصف بصفات الجلال والكمال وأن كل المخلوقات عبيده ،
 وكل المخلوقات إليه فقيرة محتاجة وهو الغنى الحميد ، إذا استولى هذا
 الإيمان على الإنسان فتعلق بربه ولاذ بجنابه ، واتجه إليه بكل كيانه ،
 واستجاب لندائه ، ودان له بالطاعة والمحبة والعبودية ، أشرق كيانه
 ووجدانه بنور الحق ، وصيَّق اليقين ، ونظر من هذا الأفق السامق
 الباسق فوجد طلبته عند مولاه ، فلم يطلب شيئاً من أحد سواه ، وهذا ما
 أرساه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القلوب المؤمنة حتى حررها

(١) الزمر ٣٩ / ٣

(٢) يونس ١٠ / ١٨

(٣) ساء ٣٤ / ٤٠ - ٤٢

أرساه رسول الله صلى الله عليه وسلم في القلوب للمؤمنه حتى حررها من كل عبودية لغير الله ، هذا عبد الله بن عبد الله رضي الله عنهما غلام لم يجاوز العاشرة من عمره يُركيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحته ثم يسأله : "يا غلام ألا أعلمك كلمات ؟؟ احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجدد تجاهك إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام وطويت الصحف" (١) وكم في هذه التوجيهات النبوية من أسرار وأنوار ومناهج تربية وسلوك ، ونبع هذه التوجيهات من كتاب الله الذي أسقط الوسائط بين الخلق والخالق ، وفتح الباب للتائبين والطلابين وأصحاب الحاجات ، بل جعل من اتخذ هذه الوسائط مشركا لأنه منحها ما لا يحق لها وجعل لها ما لا يحق لها من حق العبودية والطاعة فقال سبحانه : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } (٢) ، وقال : { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } (٣)

(١) الترمذی قیامة ٥٩ مسند أحمد ١ / ٢٩٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧

(٢) النقرة ٢ / ١٨٦

(٣) غافر ٤٠ / ٦٠

بل إن الله يغضب ممن لم يسأله روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لم يسأل الله يغضب عليه " (١) . وفي هذا يقول الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يُسأل يغضب

وإذا كنا قد عرفنا ما في توجيه القلوب والمشاعر والأحاسيس وجهة واحدة تلخص في الاستسلام المطلق لله بالدعاء والضراعة وأن هذا قد حرر المؤمنين من كل عبودية لغير مولاهم فلا بد أن نلفت الأنظار إلى ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة وأن الدنيا دار ممرٌ وأن الآخرة دار القرار ، وأن ما بأيدي من فيها عارية ومن فيها ضيف ، والضيف مرتحل والعارية مُسْتَرْدَّة ، وأن الإنسان مستخلف فيما خولّه الله من أعراضها إلى حين ، وهي معانٍ إن استقرت في القلوب حررتها من العبودية للدنيا والدرهم ومظاهر الزينة ومباهج الحياة فأهل الإيمان يمتلكون ذلك في أيديهم ، يسخرونها لأغراض نبيلة وغايات سامية ، لكنها لا تستعبدهم ، ولذلك دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على من ذللتسه الدنيا واستعبدته مظاهرها فقال : " تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش " (٢) أي إذا أصابته شوكة لم يجد مناقشا يعالج بها شوكته .

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤ / ٨٥

(٢) رواه البخاري في الجهاد وفي الرقائق ، وابن ماجه في الزهد .

فأى حرية لأهل الإيمان بعد هذه الحرية ؟ إنهم ينظرون إلى الدنيا من أفقهم الربانى ، يؤمنون بقدر الله ، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ... همهم إذن واحد هو هم الآخرة والوصول إليها بالأمين فائزين ، لا تستعبدهم شهوة ولا يستولى على قلوبهم عرض زائل ، ولا يخضعون لمخلوق مهما بلغ سلطانه ، إنهم عبَاد الله يلجئون إليه بالدعاء ، ويضرعون إليهم بالرجاء ، له يسجدون وعليه وحده يتوكلون ، فنعم ما يصنعون.

٣-صلة الإنسان بالله:

ب- صلة تكليف ومسئولية.

الإنسان عابد لله طوعاً أو كرها ، منقاداً لخالقه فيما لا مجال للاختيار فيه ، وهذا المعنى يتساوى فيه المؤمن والكافر ، فإذا انقاد الإنسان لله فيما جعل له فيه اختياراً فأمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً فهو عبد لله طائع له ، وهذه هى الصلة الحقيقية الجديرة بالإنسان حتى لا يكون نعمة نشاراً فى هذا الوجود المسبح لربه ، العابد له ، فماذا تعنى هذه العبودية لله ؟ هل هى علاقة محبة وتعلق بالإله الذى بيده الخير كله والملك كله فحسب ؟ يشعر العابد فى محراب مولاه بضغفه وعجزه وحاجته فيجأ لربه يسأله من فضله وواسع جوده وكرمه ، وكفى ؟ أو أن هذه العلاقة تفرض على العبد المؤمن بربه فوق هذا مسؤوليات وتكاليف ، فى أدائها برهان على صدق عبوديته لربه ؟ إننا إذا أجلنا النظر فى كتاب الله وسنة رسوله

صلى الله عليه وسلم سيتضح لنا أن صلة الإنسان بالله ، صلة عبودية له وهذا يعنى أننا صلة تكليف ومسئولية ، وهذه هي الأمانة التى تحملها الإنسان الأول آدم عليه السلام وتحملها تبعاً له أبناؤه من بعده ، والتى عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها كما قال تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } (١)

قال العوفي عن ابن عباس يعنى بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم : إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يارب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى : وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الأمانة: الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا منه من غير معصية ولكن تعظيم الدين الله ألايقوموا بها ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها .. (٢)

فالإنسان إذن مؤتمن على دين الله ، بكل ما فى هذا الدين مما جاء به وحى الله المنزل فى كتابه أو ما جاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم فهو شق الوحى كما قال عليه الصلاة والسلام " ألا إني أوتيت القرآن

(١)الأحزاب ٧٢/٣٣

(٢)انظر تفسير ابن كثير ٥٢٢/٣

ومثله معه " (١) وفي أداء هذه الأمانة صدق العبودية لله ، وبمقدار أدائها تكون درجة العبودية والتي هي الغاية من خلق الخلق كما قال تعالى :
{ وما خلقت الجن والإانس إلا ليعبدون } (٢)

ولذلك كانت العبادة اسما جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، ويدخل فيها كل ما جاء به الدين من صلاة ، وزكاة وصيام وحج ودعاء وذكر وقراءة للقرآن وخلق كريم كصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والرحمة بالضعفاء من الإنسان والحيوان ، كما يدخل في العبادة : حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك (٣)

وبهذا يتضح لنا أن صلة الإنسان بالله صلة عبودية له بكل ما تفرضه العبودية من تكاليف ، وما توجبه من التزام بمنهج الله وما يترتب على هذا من سعادة في الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

٤- إنسانية الإنسان مقياس تقدمه وارتقائه:

وردت كلمة الإنسان في القرآن - كما قلنا ٦٥ مرة ، وبالتأمل فيها وردت فيه من آيات ندرك أنها مرة تتكلم عن الإنسان من حيث إنه

(٢) رواه أبو داود ٢٩٧ / ٤

(٣) الذاریات ٥٦/٥١

(٤) انظر العبودية : لشيخ الإسلام ابن تيمية ط النائية ١٣٣٧ هـ / ١٩٧٨ م

مخلوق من سلالة من طين . ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار
وهذا هو آدم عليه السلام أو مخلوق من نطفة أمشاج وهذا هو حال أبناء
آدم عليه السلام وهذه الحقيقة تأتي في سياق بيان قدرة الله ودعوة الإنسان
إلى توحيد الله وألوهيته والإيمان بأن من قدر على ذلك قادر على إعادة
هذا الإنسان وإحيائه بعد موته للحساب والجزاء .

ومرة نتحدث الآيات عن الإنسان وما منحه الله من علم ومعرفة
{الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} (١)

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ....} (٢) وأخرى
تتحدث عن الإنسان المسئول عن أفعاله ، {وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ
فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى
بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ
فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ
رَسُولًا} (٣)

(١) الرحمن ١/٥٥-٤

(٢) العلق ٩٦/١-٥

(٣) الإسراء ١٧/١٣-١٥

{وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى}{(١)}

وكلمة " الإنسان " التي ذكرت ست مرات فى سورة القيامة كلها فى هذا المعنى وآخرها : {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(٣٦) أَلَمْ يَكْ نُطْفَأْ مِنْ مَبْيٍ يُمْنَى(٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْيِيَ الْمَوْتَى}{(٢)}

وتتحدث الآيات عن الإنسان الضعيف أمام سلطان شهوته وأن الله أعانه على هذا الضعف بما منَّ عليه من كتاب وهداية كما قال تعالى : {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا(٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}{(٣)} ولهذا جاءت آيات القرآن تحذره من الشيطان وتأخذ بيده إلى مراتب الكمال ، وتذكر له أن ما تدعوه إليه نفسه وشهوته وشيطانه من كفران نعمة الله ، وجحود فضله يؤدى به إلى التعاسة والشقاء وأن الخير له أن ينضوى تحت الحماية الإلهية والهداية الربانية وأن يسلك طريق الحق ، ولنتأمل هذه التعبيرات القرآنية: إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ ، وكان

(١) النجم ٥٣/٣٩-٤١

(٢) القيامة ٧٥/٣٦٠-٤٠

(٣) النساء ٤/٢٦-٢٨

الإنسان كفورا ، وكان الإنسان فتورا ، وكان الإنسان أكثر شئ جدلا .
 - إن الإنسان لكفور ، إن الإنسان لكفور مبين ، إن الإنسان ليطغى ، أن
 رآه استغنى ، إن الإنسان لربه لكنود ... وكل هذه الصفات والأخلاق
 الذميمة تهبط بالإنسان من القمة الباسقة التى جعله الله فيها حين اختاره
 خليفته فى الأرض ، وعلمه الأسماء كلها ، وأعلن نبأ مقدمه إلى هذه
 الأرض فى الملأ الأعلى فى موكب عظيم من الملائكة الذين أمرهم الله
 بالسجود لآدم ، تعظيماً لأمر ربهم فسجدوا إلا إبليس أبى ، وهذا
 التسامي والارتقاء فى التخلق بالأخلاق الكريمة ، والالتزام بوحى الله
 كتابا وسنة ، هو مقياس إنسانية الإنسان ، والدليل على تقدمه وارتقائه
 وإلا كان أقل شأننا من الحيوانات العجماوات كما قال تعالى : {وَلَقَدْ ذَرَأْنَاهُ
 لَجْهً كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا
 يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
 أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } (١) وكما قال سبحانه : {أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ
 أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ
 هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا .. } (٢)

وجماع الأخلاق الفاضلة التى هى عنوان تقدم الإنسان وارتقائه:
 العلم ، العلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والمعرفة

(١)الأحزاب ١٧٩/٧

(٢)الفرقان ٢٥ / ٤٣، ٤٤

الجامعة ، فإن ذلك هو الأساس لكل عمل ، والضابط لكل سلوك ، فإذا
اجتمع الإيمان والعلم والعمل في إنسان ما فهو الإنسان الإنسان ، وإذا
ضاع واحد منها فلا قيمة لأى عمل ، ولذلك قال تعالى فى الكافرين :
{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} (١) وحين سئل ابن
المبارك : من الناس ؟ قال : العلماء ، يقول الإمام الغزالي فى بيان ذلك :
لم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن
سائر البهائم هو العلم ، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك
بقوة شخصه ، فإن الجمل أقوى منه ، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه ،
ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه ،
ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه ، بل لم يخلق إلا
للعلم (٢) وهذه الخاصية هى التى امتاز بها الإنسان فى عالم الملائكة
قال تعالى : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا
أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ
لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ
عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا
سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ
أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبُ

(١) الفرقان ٢٣/٢٥

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٧/١ ط دار المعرفة - بيروت

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمَ مَا تُبْنُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } (١) والعلم هنا علم بالله وأسمائه وصفاته وما يجب له من الطاعة والعبودية وعلم بعناصر هذا الكون وكيفية الاستفادة منه ، ولا غنى لواحد من العلمين عن الآخر ، فإن علم الإنسان بربه فأطاعه واهتدى بهديه ، وفعد عن الجانب الثانى وهو العلم بعناصر هذا الكون لم يستطع أداء وظيفته فى عمارة الكون الذى سخره الله له ، كما هو حال مسلمى هذا الزمان ، وإن جيل طريق ربه وضل السبيل ولم يؤمن الإيمان الحق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفوق فى معرفة جوانب المادة كان هذا التفوق وذلك العلم وبالا عليه فإنه وإن يسّر له بعض أسباب الحياة إلا أنه أدى إلى دماره وهلاكه وضياعه وشقائه ، والإنسانية لذلك فى حاجة ماسة إلى أهل الإسلام وما مَن الله عليهم من نور النبوة ، وما لديهم من كتاب وسنة إنفاذاً لمستقبل الإنسانية من الضياع ، ولن يتم لهم ذلك إلا بجهد متواصل ، وإخلاص لله ، وعمل دعوب على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبذلك يسمو الإنسان ويرقى ويشعر بإنسانيته حين يشعر بأمنه وسعادته ، وهو يرتبط بخالق السموات والأرض ، وتلك هى الحياة الحقّة الجديرة بأن تسمى حياة ولذلك قال تعالى : { أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون } (٢)

(١) البقرة ٣٠/٢-٣٣

(٢) الأنعام ١٢٢/٧

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم على اليدى لمن استهدى أدلاء

وقدّر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففر بعلمٍ تعيش حياً به أبداً الناس موتى وأهل العلم أحياء

إن السعادة الحقيقية في الإيمان والعلم الذي يدعوك إلى العمل فهذا

هو مناط إنسانيتك ورقبك وتحضرك ولذلك قال أبو الفتح البستي:

يا خادماً الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران ؟

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

الفصل الثاني المرأة في القرآن الكريم

- ١- حقوق المرأة بين ما كانت عليه في الجاهلية، وما صارت إليه في شريعة القرآن.
- ٢- مساواتها مع الرجل في أصل الخلقة والتكليف، والمسئولية.
- ٣- الخصوصيات التشريعية للمرأة، تتناسب مع وظيفتها الاجتماعية.
- ٤- العلاقة بين المرأة والرجل تقوم على المودة والرحمة والتعاون لا على الصراع والتنازع.
- ٥- اختلاف وظيفتها عن وظيفة الرجل، أمر تقتضيه طبيعة الحياة القائمة على التخصص والتكامل.

المرأة فى القرآن الكريم

تمهيد :

المرأة والإنسان والأنثى والإناث ، والنساء والنسوة ، والفتيات ،
والبنات والبنات ، والزوج والزوجات ، والأخت والأخوات ، والأم
والأمهات ، وأمثال ذلك ، وما ورد لهذه الكلمات من صفات : ذُكرَ
الموصوف أم لم يذكر ، كل ذلك يدور حول موضوع واحد هو المرأة فى
القرآن الكريم ، وما جاء من خطاب وتكليف للرجال موجه كذلك للنساء
إلا ما قام الدليل على اختصاصه بالرجال ولكن القرآن حين يختار كلمة
من هذه الكلمات فإنما ذلك لملحظ فى هذه الكلمة ومدى مناسبتها للموضوع
الذى وردت فيه ، فهو حين يستعمل كلمة "الإنسان" مثلاً معبراً بها عن
المرأة يختلف عما إذا اختار كلمة المرأة فى ذات الموضوع ، وإذا عبر
عنها بالأنثى ، أو النساء أو البنات أو الأخت أو الأم أو وصفها بصفة
من الصفات كالإسلام والإيمان فإنه يقصد ذلك قصداً ، لينفت الأنظار إلى
ما تحمله هذه الكلمات من المعانى المؤكدة للمسألة التى يتحدث فيها ،
وهذا سر من أسرار الإعجاز البيانى فى القرآن العظيم ... وجَمَعَ الآيات
التي وردت فيها هذه الكلمات واستخلص ما فيها من دلالات وإشارات ،
يحتاج إلى بحث مستقل ، ونحن بصدد كتابة صفحات محدودات فى
جملة موضوعات فى التفسير الموضوعى ، وحسبنا أن نتناول هذا
الموضوع من خلال عدة نقاط تُظهرُ عظمة الإسلام فيما شرع ، وكيف
أنه الدين الذى صلحت به الدنيا ولن تصلح مرة أخرى إلا به ، وأنه كنوّم
المرأة وأعلى قدرها وأنزلها المنزلة اللائقة بها بنتاً وأختاً وزوجاً وأماً
وهذه النقاط التى سنتناول من خلالها هذا الموضوع كالتالى : —

١- حقوق المرأة بين ما كانت عليه في الجاهلية ، و ما صارت إليه في شريعة القرآن .

٢- مساواتها مع الرجل في أصل الخلقة ، والتكليف ، والمسئولية .

٣- الخصوصيات التشريعية للمرأة ، تتناسب مع وظيفتها الاجتماعية .

٤- العلاقة بين المرأة والرجل تقوم على المودة والرحمة والتعاون ، لا على الصراع والتنازع ‘

٥- اختلاف وظيفتها عن وظيفة الرجل ، أمر تقتضيه طبيعة الحياة القائمة على التخصص والتكامل ...

فنقول وبالله التوفيق :

١- حقوق المرأة بين ما كانت عليه في الجاهلية ، وما صارت

إليه في شريعة القرآن :-

ماذا نقصد بالجاهلية ، حتى نستطيع التاريخ ، ونعرف ماذا أعطت هذه الجاهلية من حقوق للمرأة ، وماذا أخذت المرأة منها ؟ وبالتالي تبدو لنا شريعة القرآن وضاءة مشرقة بنور الحق ، تحمل السعادة لنساء العالمين في جملة ما تحمل من السعادة لبني الإنسان ؟ ... يقول الراغب الأصفهاني : الجهل عى ثلاثة أضرب : الأول : وهو خلُّو النفس من النام ، هذا هو الأصل ‘ والثاني : اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه ، والثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل ، سواء اعتقد فيه اعتقادا

صحيحاً أو فاسداً ... (١)

وصاحب لسان العرب يجمع ذلك فى كلمة واحدة فيقول : الجهل :
نقيض العلم والجاهلية : زمن الفترة ولا إسلام (٢) .

ويقول ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة : " الجيم والياء واللام
أصلان :

أحدهما : خلاف النعم ، والآخر : الخفة وخلاف الطمانينة ... " (٣)
وسبب هذا الجهل ، وتلك الخفة وذهاب الطمانينة غياب نور
الوحي ، إما لعدم وجوده ، كما هو الشأن فى الأوقات التى تكون بين بعثة
نبي ونبي ، فما أرسل رسول بعد رسول إلا لحاجة الناس إلى ذلك ، فلن
الله لا يحاسب عباده إلا بعد أن يرسل إليهم الرسل وينزل إليهم الكتب
كما قال تعالى : { رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ
حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } (٤) .

وكما قال سبحانه : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } (٥) .

وقد يكون الوحي موجودا والرسول يبلغ رسالة ربه ، ولكن
أصحاب القلوب المريضة ، ومن أعماهم الهوى وحب الدنيا ، لا يلتفتون
إلى هذا الخير ، ولا يستجيبون لدعوة هذا الرسول ، فيعيشون فى ظلام

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن : للراغب الأصفهاني بتحقيق : نديم مرعشلى .
دار الفكر للطباعة والنشر لبنان ص ١٠٠

(٢) انظر لسان العرب : لابن منظور - مرجع سابق م / ١ ص ٧١٤

(٣) معجم مقاييس اللغة : لأبى الحسين : أحمد بن فارس بن زكريا ١ / ٤٨٩
ط الثانية ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م - بمطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة .

(٤) النساء ٤ / ١٦٥

(٥) الإسراء ١٧ / ١٥

الجهل ، وشقاء النفس ، وضيق الصدور ، وتسيطر عليهم الحيرة ،
والتعاسة ويتخبطون في دياجير الجحالة الحيلاء والضلالة العمياء ،
ولذلك بعد أن ذكر الله ما ذكر من التوراة وما في هذه الكتب المنزلة
من هداية ونور وأن الله قد فرض على من نزلت فيهم أن يحكموا بما
جاء فينا ، وأن الله جعل القرآن مصدقا لما بين يديه من هذه الكتب
ومبيها عليها فهو الكلمة الأخيرة للعالمين ، وعلى بنى الإنسان أن
يتحاكموا إليه ، بعد ذلك قال :

{ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم
يوقنون } (١) .

وحين أمر أمهات المؤمنين بالقرار في بيوتهن قال : { وقرن في
بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى } (٢) وقد اختلف الناس في
الجاهلية الأولى فقيل : في الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، وقال
الحكم بين عينة : ما بين آدم ونوح ، وقال ابن عباس : ما بين نوح
وإدريس ، وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى ، وقال الثعلبي : ما
بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، هذه هي الجاهلية الأولى أما
الجاهلية الأخرى فهي ما حدث من خروج النساء بعد الإسلام على
شرع الله وهديه ... (٣)

وبهذا يتضح لنا أن الجاهلية تطلق على تلك العصور التي تغيرت
فيها معالم الرسالات بعد أن طُمِسَتْ مَعَالِمُ الْحَق ، وَحُرِّقَتْ الْكُتُبُ الْمَنْزِلَةُ

(١) المائدة ٥٠ / ٥

(٢) الأحزاب ٣٣ / ٣٣

(٣) انظر : الفتوحات الإلهية : العلامة للجمل ٣ / ٣٦ ،

فى تلك الأمم التى عرفنا أن الله أرسل لها رسلا وأنزل فيها كتباً ، أو تلك الأمم التى لم يخبرنا كتاب ربنا أنه أرسل لها رسلا وأنزل فيها كتباً ، وإن كان قد ذكر لنا على وجه الإجمال أنه ما كان ليترك الناس يتخطون فى دياجير الباطل فقال : **{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ }** (١)

وقال : **{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ }** (٢) كما أن الجاهلية تطلق على كل من لم يحكم بشريعة الله التى أنزلها على محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا سنطوف فيما للمرأة من حقوق عند أصحاب الكتب المنزلة من اليهود والنصارى ، فى القديم والحديث إلى يومنا هذا ، وعند غيرهم من الصينيين واليونانيين والرومانيين وقدماء المصريين ، والعرب قبل الإسلام ، أما ما وقع فيه المسلمون من انحراف عن هدى الله وترك لشريعة الله ، وما نراه من سفور وتبرج فاق تبرج الجاهلية الأولى ، وأن هذا أيضا جاهلية ، فلا يدخل فى تلك المقارنة بين ما كانت عليه المرأة فى الجاهلية وما صارت إليه فى شريعة القرآن لأن القرآن ما زال محفوظاً وسوف يبقى كذلك محفوظاً بحفظ الله القائل : **{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }** (٣) والقرآن لذلك حجة عليهم ، يكشف سترهم ، ويفضح جهلهم ، ويدعوهم إلى التوبة النصوح... ولو تدبروا فيما عليه نساء العالمين فى ظل الشرائع المحرفة ، والقوانين الجائرة التى أدلت

(١) فاطر ٢٤/ ٣٥

(٢) غافر ٧٨/ ٤٠

(٣) الحجر ٩/ ١٥

المرأة ، وامتنت كرامتها ، وما جاء به كتاب ربهم من خير وسعادة وعزة وكرامة للمرأة ، لو تأملوا هذا لاعتزوا بدينهم ولفاخروا به أهل الأرض ، ولكانوا دعاة إلى هذا الدين الذى هو كلمة الله الأخيرة للناس ، ولعلموا أنه لا أمان لهم ولا سعادة لهم فى غير هذا الدين العظيم
فماذا أعطت الجاهلية للمرأة من حقوق ، ثم ماذا أعطتها القرآن الكريم ؟

وهل أعطت الجاهلية للمرأة حقوقا حتى نتحدث عنها ؟ إن التاريخ يحدثنا عما لحق بالمرأة من ظلم ، وما وقع عليها من جور ، وما سلب منها من حق حتى عاشت مهينة ذليلة فى وسط ظلام دامس أحاط بها تحت وطأة أهواء النفوس ، وانحرافات البشر ، وما ساد الناس من فوضى وهمجية قبل بزوغ فجر الإسلام ^(١) فلما أشرق الإسلام بنوره بدد الظلمات ، وأنار السبل ، فمن سار فى طريقه ، ومن استتار بنوره ، تذوق طعم الحياة الآمنة الهادئة ، ومن بقى على عناده ، وشقاقه ، وأصر على كفره وضلاله ، وأخذ يشرع لنفسه ، ضل الطريق ، ووقع فى مخابل الوحوش الضارية من هؤلاء الطواغيت الذين عبثوا بهم ، وكانت المرأة من جملة هؤلاء الذين ظلمتهم الأنظمة الجائرة ، والقوانين البشرون الظالمة ، كما سنرى ونحن نستعرض أحوال المرأة عبر العصور فى القديم والحديث.

ففى الصين :

لم يكن للمرأة قيمة تذكر ، يقول الفيلسوف الصينى " كونفوشيوس " :

(١) اقرأى ذلك : ماذا خسر العلم بالتحطاط المسلمين : لأبى الحسن الندوى ، ومنهج القرآن فى تربية المجتمع : تمهيد فى داسة موجزة للمجتمع العربى والعالمى قبيل نزول القرآن من ص ١٣ - ٨٢ / للمؤلف .

لا يجوز للمرأة أن تأمر وتنتهى ، فإن عملها قاصر على الأشغال المنزلية ولا بد من احتجابها فى البيت حتى لا يتعدى خيرها وشرها عتبة الدار وهذا ما دعا إحدى سيدات الطبقة العليا فى المجتمع الصينى إلى أن تكتب رسالة تقول فيها : " تشغل نحن النساء آخر مكانة فى الجنس البشرى ، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال " .

ومن أغانيهم : " ألا ما أتعس حظ المرأة ، ليس فى العالم كله شيء أقل قيمة منها ، إن الذكور يقفون متمكنين على الأبواب كأنهم آية سقطوا من السماء ، أما البنت فإن أحدا لا يسر لولادتها وإذا كبرت اختبأت فى حجرتها تخشى أن تنظر فى إنسان ، ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها (١) "

وفى الهند :

لم تكن المرأة أسعد حظا من نظيرتها فى الصين : إذ قد أشاع حكماءهم أن النساء عندما خلقن ، خلِقن من أجل حب الفراش والمقاعد والزينة والشهوات الدنسة ، والغضب والتجرد من الشرف وسوء السلوك ، فالنساء دنسات كالباطل نفسه ، وقالوا : بأن الزوجة الوفية يجب أن تخدم سيدها أى زوجها كما لو كان إلها ، وألا تأتى شيئا من شأنه أن يؤلمه حتى وإن خلا من الفضائل ، وكانت المرأة بناء على ذلك تخطب زوجها فى ذل وهوان ، قائلة : يا مولائى ، وتمشى خلفه بمسافة ، وقلما يوجه هو إليها كلمة واحدة ، وكانت لا تأكل معه ، بل تأكل مما يتبقى

(١) انظر : المرأة فى العصور القديمة : البهى الخولى - ط الخامسة دار للنظم - الكويت ١٩٨٤ م

منه... ولم يكن لها حق الحياة بعد وفاة زوجها إذ يجب أن تموت يوم موته ، وإن تحرق معه فى موقد واحد ، واستمرت هذه العادة حتى القرن السابع عشر إلى أن أبطلت ... " (١)

وفى اليونان :

كانت المرأة فى نظرهم رجساً من عمل الشيطان ، وما ذلك إلا لأنها مثار شهوة ولا سلطان لها على أنوثتها ، ولذلك عزلوها فى أعماق البيوت ونادى بعض مفكرهم : يجب أن يُحبس إسم المرأة فى البيت كما يُحبس جسمها ، وما العلاقة الزوجية عندهم إلا وظيفة لاستيلاد الأطفال لاتعلو كثيراً عن وظيفة الخدمة فى البيوت . وكانت من الناحية القانونية لا وزن لها فهى سلعة تباع وتشتري فى الأسواق ومن كان كذلك لاحق له فى ميراث ، ولا فى أن يُبرم عقداً من العقود ، وما إن تقدمت بلاد اليونان فى الناحية المادية حتى خرجت المرأة من خدرها وخالطت الرجال فى الأندية والمجتمعات فأثارت الشهوات وأشاعت الفاحشة ، حتى أصبح الزنا أمراً غير منكر ، وحتى غدت دور البغايا مركزاً للسياسة والأدب الرخيص . .

وفى المجتمع الرومانى :

كانت المرأة كأختها فى المجتمع اليونانى ، فاقدة لكرامتها وأهليتها، لا رأى لها، ولا مشورة بل إن فقهاء الرومان جعلوها فى عداد من يحجر عليهم لنقص عقلها ، وبالتالي فهى غير صالحة للتملك ، ولا رأى لها فى اختيار زوجها ، ومن حق أبيها أن يزوجه ولو كان هذا على غير

(١) المرجع السابق ص ١٦ .

إرادتها ، بل كانت المرأة إذا تزوجت رجلاً أُبرمت مُعةً عقداً يسمى " إتفاق السيادة " أى سيادة الزوج عليها ، وبه تنقطع صلتها بأهلها، ولقد بلغ من سيادته عليها أنها كانت تحال إليه إذا ما اتهمت فى ارتكاب جريمة ليحاكمها ويعاقبها بنفسه "

وعند اليهود :

وهم أصحاب الكتاب المنزل على موسى عليه السلام ، وهو التوراة ، نراهم قد انحرفوا عن القصد ، ولعبت الأهواء بما أنزل الله من كتاب ، ونال المرأة من جراء ذلك ظلم عظيم فحرمت من الميراث إذا كان لأبيها ذرية من البنين وعوملت معاملة الخدم ، وكان لأبيها أن يبيعها وهى طفلة أو دون البلوغ وهى عندهم لعنة لأنها أغوت آدم عليه السلام حتى أكل من الشجرة المحرمة ، فخرج بذلك من الجنة ، وتأمل معى ما جاء فى التوراة " المرأة أمرٌ من الموت ، والصالح أمام الله مَن ينجو منها " مما يدلك على أن هذا لايمكن أن يكون وحياً من الله..

وفى المسيحية :

طغت الأهواء على شريعة الحب والرحمة التى جاء بها السيد المسيح عليه السلام فتأثر رجال الكنيسة الأوائل بما رأوا من مظاهر الانحلال فى المجتمع الرومانى وخُيل إليهم أن المرأة مسئولة عن ذلك ، فقرروا كما قال القديس (تروتوليان) أن المرأة مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ، ناقضة لنواميس الله .

وفى فرنسا :

عقد مؤتمر عام ٥٨٦ م للبحث فى أمر المرأة : هل هى إنسان ؟ وبعد طول بحث رأوا أنها إنسان مخلوق لخدمة الرجل ، بل إن

رجال الكنيسة حملوا المرأة خطيئة آدم عليه السلام ، وظنوا أن حواء هي
التي أغوت آدم حتى أكل من الشجرة المحرمة فخرج من الجنة ، وبنات
حواء لذلك يتحملن هذه الخطيئة

وفي الحضارة المصرية القديمة : —

" كان للمرأة حظ من الكرامة يجيز لها الجلوس على العرش ،
ويؤتيها مكان الرعاية في الأسرة ، ولكن الأمة المصرية كانت من الأمم
التي شاعت فيها عقيدة الخطيئة بعد الميلاد ، وشاع فيها مع اعتقاد
الخطيئة الأبدية ، أن المرأة هي علة تلك الخطيئة ، وخليفة الشيطان ،
وشرك الغواية والرذيلة ، ولا نجاة للروح إلا بالنجاة من أوهاقها
وحبائلها " (١) .

وإذا كان هذا هو حال المرأة في ظل الحضارات القديمة من
الصينية والهندية واليونانية والرومانية والفرعونية بل في ظل اليهودية
والمسيحية بعد أن حُرِّفت كتبها وتغيرت معالم الحق فيها ، فماذا عن
المرأة في العصر الحديث ، وهي ما زالت ثائرة تعقد المؤتمرات
والندوات وتخرج في مظاهرات ، وتؤلف الجماعات التي تطالب بحقوق
المرأة ، وهل أخذت حقها في مساواة عادلة ، وحققت ذاتها ووجودها ؟

إنها خرجت من بيتها وما كان فيه من قهر إلى قهر من لون آخر :
خرجت لتعمل لأن مجتمعا تخلى عنها ، وتركها أبوها وأهلها

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : عباس محمود العقاد ص ١٥٢

وانظر — للفلسفة القرآنية — للعقاد ص ٨٦ ، ٨٧

وعشيرتها لتواجه مطالب الحياة بنفسها ، وعليها أن تواصل هذا الطريق إلى نياية عمرها حتى ولو كان لها أبناء من أكبر الأثرياء ، وأصبح جسدها سلعة تعرض في كل مكان ، تُعرض مفاثها بكل وسيلة ممكنة ، ولا تتورع عن السقوط في الرذيلة والفاحشة ، وحين تتزوج تفقد اسم أبيها وأسرتها وتتسب إلى زوجها ، وما تمتلكه لا حق لها في التصرف فيه إلا بموافقة ، ومهما بلغت من العلم والخبرة لا تحصل إلا على نصف ما يحصل عليه الرجل من الراتب في نفس موقعها ، لهذا كله انفرط عقد الأسرة في الغرب ، وفي البلاد التي سارت في ركابه ، ولم يعد هناك وقتٌ للقيام بحقوق الزوج وإنجاب أطفال ورعايتهم ، مما يهدد هذه المجتمعات بأوخم العواقب .

وبعد هذا العرض الموجز لما كان عليه حالى المرأة فى القديم والحديث أن لنا أن نتوقف عند الأمة العربية : فهى الأمة التى نزل فيها القرآن ، واختارها الله من بين الأمم ليخرج منها خير أمة أخرجت للناس ، وليجعلها موطنًا للرسالة الخاتمة ، ويحمّلها أمانة دعوة العالمين إلى الحق ، ولعل الله العليم الحكيم حين اختار هذه الأمة لهذه الغاية السامية ، أراد أن يضرب منها المثل فى قوة وقدرة هذا الدين على إصلاح أى فساد ، وسد أى خلل ، وإقامة كل معوج مهما بلغ فساده وخلله واعوجاجه ، وما ذلك إلا لأن هذه الأمة قبيل نزول القرآن قد وصلت إلى مرحلة من الفساد والاعوجاج لم تصلها أمة من قبل ، فإذا كان القرآن قد أصلح ذلك فهو على غيره أقدر (١) .

(١) اقرأ فى ذلك : منهج القرآن فى تربية المجتمع : للمؤلف

والمرأة فى الأمة العربية — وهى موضوع حديثنا — قد نالها من انظلم والاستبداد والامتهان والاعتداء والضياع ، ما أصاب المرأة فى كل الدنيا ، فهذا شأن الجاهلية حيثما كانت ، لا يحكمها غير قانون الهوى والقوة ، وهو قانون جائر لا يرحم : { ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين } (١) .

غير أن المرأة العربية قد تحملت من ذلك الكثير ، فجاء الإسلام بنوره فبدد عنها حجب الظلمات ، وأعطاهما حقوقها كاملة ، وأنزلها المنزلة السامية ، وكرّمها وأكرمها فى كل مرحلة من حياتها دون ثورة نسائية أو مؤتمرات ومظاهرات وندوات ، إنما هى منّة الله على خلقه إذ أرسل لهم نبى الرحمة : محمدا صلى الله عليه وسلم بدين قويم فيه سعادة بنى الإنسان فى كل مكان وزمان ...

والقرآن وهو يعرض ما كانت عليه المرأة فى البيئة العربية يبين ما يجب أن تكون عليه من كرامة ومكانة ومنزلة وما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، ولم تبق هذه التوجيهات الربانية مجرد وصايا يأخذ بها من شاء ويتركها من أراد ، إنما جعلها منهج حياة ، وسلوك أمة ، وشرع لها من الضوابط ما جعلها حقًا واجب النفاذ

فماذا عن المرأة فى المجتمع العربى قبل الإسلام ؟

لقد نظر هذا المجتمع إلى المرأة فوجدها عبئًا ثَقِيلًا ، يلزمه أن يتخفف منه ، إذ كانت الغارات التى يشنها الأقوياء على الضعفاء

تفرض على أبناء القبيلة من الذكور حماية أعراضهم ، والدفاع عن نسائهم وبناتهم فإذا ما وقعت اليزيمة أخذت نساء القبيلة وبناتها في جملة ما يؤخذ ليكن سبائا يستمع بين الأعداء ، وليذا شاع وأد البنات في كثير من قبائل العرب " وكيفية الرأد والطريقة التي يؤدي بها بشعة مفاجية للرحمة والإنسانية ، فإنهم كانوا إذا بلغت البنت ست سنوات يأمرهم أمها بتطبيبها وتزيينها ويذهب الواحد منهم بابتته هذه إلى الصحراء ، وهناك يكون قد حفر لها بئرا فيقول لها : انظري فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض ... " (١)

وصورة أخرى يرويها ابن عباس رضى الله عنهما فيقول : " كانت الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإذا ولدت ولداً حبسته " (٢) .

والوَاد المحقق للبنت المشوهة الخلقة ، تشاؤماً من هذا التشويه ...

والقرآن يصور استقبال الآباء لنبا ولادة الأنثى تصويراً موحياً فيقول : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } (٢) ويقول : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } (٤) .

(١) منهج القرآن في تربية المجتمع - ص ٢٣ - للمؤلف

(٢) العرب وأطوارهم : محمد عبد الجواد الأصمعي ١ / ٢٥٢

(٣) النحل ١٦ / ٥٨ ، ٥٩

(٤) الزخرف ٤٣ / ١٧

وسوف يحاسبهم ربهم على ذلك كما قال تعالى { وَإِذَا
الْمُوعُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ }؟ (١)

والله يسوق كراهيتهم للبنات مؤنبا ليم على فهم خاطئ اعتقدوه
زورا وبيتانا حيث تصوروا لجهلهم أن الملائكة بنات الله ، مع أن
الملائكة لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، ولذلك حين كانوا يبدون بناتهم
يقولون : أَلْحَقُوا الْبَنَاتُ بِالْبَنَاتِ ، أى أَلْحَقُوا الْبَنَاتُ الْمُوَعُودَاتُ بِالْمَلَائِكَةِ
ولذلك قال تعالى : { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنْأَةَ الْثَالِثَةَ
الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) إِنَّكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ... } (٢)

أى قسمة جائرة ظالمة ... ويقول : { فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ
الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ
إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى
الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ... } (٣) إلى غير ذلك من الآيات ، فإن
نبت البنات من الوأد ، عاشت ذليلة ، كسيرة الجناح لا مال لها ، ولا
ميراث ، فإن الميراث كان عندهم لمن يحمل السلاح ويزود عن العشيرة ،
بل إنها كانت من جملة ما يورث من المتاع ، يقول العقاد : " كل قيمتها
بين الذين يستحيونها ولا يقتلونها فى طفولتها أنها حصّة من الميراث تنقل
من الآباء إلى الأبناء ، وتباع وترهن فى قضاء المنافع وسداد
الديون ... " (٤)

(١) التكويد ٨/٨١

(٢) النجم ٥٣ / ١٩ - ٢٢

(٣) الصافات ٣٧ / ١٤٩ - ١٥٤

(٤) المرأة فى القرآن : للعقاد ص ٩١

فإذا ما تزوجت عاشت حياة زوجية كلها خوف وقيور واستغلال :
فللرجل أن يتزوج ما شاء من النساء دون التقيد بعدد ، وليس
لواحدة من هؤلاء النسوة حق عليه يطالب به ، وله أن يطلّق وقبل أن
تتبي العدة يراجعها ، يفعل ذلك إضراراً بها حتى تقتدى نفسها منه ،
وأحياناً يطلقها ويشترط عليها ألا تتزوج إلا بمن يريد أو تقتدى نفسها منه
بما كان أعطاهما كله أو بعضه ، وكثيراً ما كان أولياؤها يمنعونها من
العودة إلى زوجها الذى طلقها حميّة الجاهلية مع رغبتها ورغبة زوجها
فى إصلاح ما أفسدا واستئناف حياة زوجية هادئة ، وكان هناك نوع آخر
من التسلط يتمثل فى المرأة إذا مات عنها زوجها فقد كان من حق أحد
أبناء زوجها أن يلقى عليها ثوباً فتصير ملكاً له إن شاء تزوجها [وكان
يسمى نكاح المقت] وإن شاء زوجها من غيره ، وإلا اقتدت نفسها منه
للتزوج أو بقيت حبيسة بيتها إلى آخر حياتها ...

وكان الرجل يحلف ألا يعاشر امرأته معاشرة زوجية فتبقى هكذا
محرومة من حقها فى الاستمتاع برجلها حتى يرضى ، وقد لا يرضى
فتعيش ما تبقى من عمرها فى هذا الحرمان ، إلى غير ذلك من صنـور
المهانة والإذلال ، وما كانت تعز المرأة إلا إذا كانت زوجة أو أما لعزیز
قوم ، فتعز بعزته لا لأنها من جنس النساء ، لها من الحقوق ما يضمن
لها حياة كريمة إذ لم تعرف المرأة العربية ذلك إلا فى ظل الإسلام
العظيم — مما سنعرضه فيما تبقى من نقاط هذا البحث ، ومنه يتضح ما
صار إليه المرأة فى شريعة القرآن فنقول سائلين الله من فضله أن
يلهمنا الصواب والرشاد والسداد .

٢ - مساواتها مع الرجل في أصل الخلقة والتكليف والمسئولية :

أول مراحل الإصلاح في هذا الباب هو إزالة ما علق بالأذهان من أن المرأة دون الرجل في خلقتها ، وأن النساء من عمل الشيطان ، وأن الشيطان مولع بالظيور في شكل أنثى وأتبع الخطيئة المجسمة ، فجاء القرآن منذ اللحظة الأولى يقرر أن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة ، وخلق حواء من ضلعه الأيسر لتكون شقيقة نفسه وجزءاً من كيانه يحن إليها وتحن إليه ، ويسكن إليها وتسكن إليه ، ثم كان أبناء آدم عن طريق التزاوج بين ذكورهم وإناثهم يتدرج الإنسان في مراحل الخلق من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن تصبح المضغة عظاماً يكسوه الله لحماً فإذا هو خلق آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . وتلك المراحل لا فرق فيها بين الذكر والأنثى إلا ما منحه الله لكل منهما من خصائص تؤهله للقيام بما خلق من أجله ، وآيات القرآن ترسي هذه الحقيقة في جلاء ووضوح ، ومنها هذه الآيات المكيّة : يقول الله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (١) .

ويقول : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا.. } (٢) .

ويقول : { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ... } (٣) .

(١) الحجرات ٤٩ / ١٣

(٢) الأعراف ٧ / ١٨٩

(٣) النحل ١٦ / ٧٢

ويقول : {وَمِنْ عَآيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (١).
ويقول : {فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَمِنَ النَّعَامِ أَزْوَاجًا...} (٢).

ويقسم فى جملة ما يقسم به فى سورة الليل بالذكر والأنثى فيقول :
{ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ
سَعْيَكُمْ لَشَتَّى } (٤).

ويقرر هذا فى سورة النجم فيقول : {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَى (٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى} (٦). ويسوق هذا فى مقام إثبات قدرته
على بعث خلقه وحسابهم فيقول : {أَيُخْضَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ
سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكْ نُطْفَعُ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَخْلَقٍ
فَسُوًى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى
أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَى ؟} (٤٠).

وقد واصل القرآن طريقه فى إزالة ركام الجاهلية فتراه فى المدينة
وقد نزلت سورة كاملة تحمل اسم " سورة النساء " تبدأ بهذا النداء
الموحى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ
مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ

(١) الروم ٣٠ / ٢١

(٢) الشورى ٤٢ / ١١

(٣) الليل ٩٢ / ١ - ٤

(٤) النجم ٥٣ / ٤٥ ، ٤٦

(٥) القيامة ٧٥ / ٣٦ - ٤٠

به وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا... } (١) . وفي هذه السورة من سور
الفرآن العظيم يقرر للنساء حقوقاً ، ويزيل عنهن ظلم وظلمات القرون ،
وتستعيد المرأة مع شريعة العدل والمساواة مكانها مع الرجل في مساواة
عادلة ، بل إن الله منحها من الخصائص ما لم يمنحه للرجال ففطرها
على رقة الإحساس ، ولطف المشاعر ، ودقسة العواطف حتى تسع
بعاطفتها ولطفها ومشاعرها فلذات كبتها ، لتربي للإنسانية أجيالاً من
الرحماء ، وقلوباً تعرف معنى الحب ، لا قلوب جافة جامدة لا تعرف
الرحمة إلى قلبها سبيلاً فهي كالحجارة أو أشد قسوة .

وقد رتب القرآن على هذا الفهم وهذه الحقيقة : حقيقة المساواة في
الخلقة بين الرجل والمرأة والذكر والأنثى ، وجوب الإحساس بالنعمة في
ولادتها كما يُفرح بالذكر ، وأن ما عليه العرب من كراهية البنات ،
والشعور بالحزن والتعاسة إذا ما بشر أحدهم بالأنثى إنما هو خطأ ناتج
من عدم الإدراك لحقائق الأمور ، ولذلك ترى القرآن يعبر عن عطائه
أطفالاً لمن شاء من خلقه بأنه هبة ومِنَّة ، يستوى في ذلك الذكور والإناث
بل إنه يقدم الإناث في التذكير بهذه النعمة فيقول : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ
الذُّكُورَ (٤٩) } أو يَزُوجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ
قَدِيرٌ } (٢) .

وما دامت مساوية للذكر فهي إنسان له حق الحياة ، ومن اعتدى

(١) النساء ١ / ٤

(٢) الشورى ٤٢ / ٤٩ ، ٥٠ .

على حياتيا فوأدها — كما رأينا من حال العرب — فقد خسر خسرانا مبينا ، قال تعالى : { وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون } وقال بعد هذه الآية بآيتين : { قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموها ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين } (١) .

ومن المناسب أن نعلم أن العرب كما كانوا يندون البنات خشية العار كانوا يقتلون البنين إذا ما نزلت بهم الحاجة وضاق بهم الرزق ، بل كان بعضهم يقتل الأبناء ذكورا أو إناثا خشية فقر متوقع ، وهذا ما جاء القرآن يعالجه وهو يقول في وصاياها الجامعة في سورة الأنعام : { ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم } (٢) وهذا علاج لفقر حاصل ، وفي الإسراء يقول : { ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا... } (٣) . وهذا دواء لفقر متوقع ... ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : { ولا تقتلوا أولادكم من إملاق } وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يندون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، ولهذا ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أى الذنوب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل

(١) الأنعام ١٣٧ / ٧ ، ١٤٠ .

(٢) الأنعام ١٥١ / ٧ .

(٣) الإسراء ١٧ / ٣١ .

ولذلك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك
 " ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ
 إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ... } (١)

الآية .

ومن منطلق أنها مساوية للرجل فى أن الله خلقها كما خلقه ، ولها
 حق الحياة مثله فإنها مكلفة بما كلف به الرجل إلا ما قام الدليل على
 اختصاصه بواحد منهما وما دامت مكلفة كالرجل فلها من الجزاء مثله
 ثواباً أو عقاباً ، ومن البداية ترى القرآن يفصل فى قضية من القضايا
 التى ضلت فيها الأفهام وزلت فيها الأقدام وهى مسئولية حواء وبالتالى
 بناتها عما وقع من الأكل من الشجرة المحرمة حتى كان هذا سبباً لخروج
 آدم وحواء من الجنة ، وقد حملت الفلسفات المغرضة ، والكتسب التى
 تنسب إلى الأديان زوروا وبهتاناً - وهى كتب محرفة - حواء هذه
 الخطيئة وما ترتب عليها من تعب ومشقة للجنس البشرى ، والقرآن
 يبين أن الجنس البشرى لم يخلق ليسكن الجنة من البداية إنما خلق لغاية
 سامية هى أن يعمر هذه الأرض بمنهج الله ثم يعود الطائعون ليسكنوا هذه
 الجنة فى النهاية ، وبدأت القصة من أب البشر آدم عليه السلام - كما
 أوضحنا من قبل فى خلق آدم - وذكرنا خلافته وخلافة أبنائه فى الأرض
 لا فى السماء كما قال تعالى : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي
 الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ

(١) تفسير القرآن العظيم : لابن كثير ١ / ١٨٨ ، وانظر كتاب : الوصايا العشر - دراسة -

مقارنة آيات من أواخر سورة الأنعام - للمؤلف - الوصية الثالثة من ص ٦٨ - ٧٧

نَسَبِحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(١) وترى في
القصة في سورة البقرة قوله تعالى : {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ
الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ^(٣٥)} فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا
اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى
حِينٍ...^(٢) .

وفي الأعراف نقرا قول الله تعالى : {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ
الْجَنَّةَ فَاكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ^(١٩)} فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ
سَوَآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ
تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ^(٢٠)} وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ^(٢١)} فَدَلَّاهُمَا
بَغْرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ
وَرَقٍ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ
الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ^(٢٢)} قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٢٣)} قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ
فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ^(٢٤)} قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ
وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ^(٢٥) .

فكل من آدم وحواء أمر بالسكن في الجنة وعدم القرب من الشجرة
وكلاهما سيكون ظلما لنفسه لو عصى ربه ، وكلاهما وسوس له

(١) البقرة ٢ / ٣٠

(٢) البقرة ٢ / ٣٥ ، ٣٦

(٣) الأعراف ٨ / ١٩ - ٢٥

الشيطان وقال له ما قال ، وكلاهما وقع فى المعصية وأكل من الشجرة المحرمة ، وكلاهما توجه إليه اللوم والعتاب ، وكلاهما تاب من ذنبه واستغفر ربه ، وقد قبل الله توبتهما وكانت تجربة لهما ، ليعرفا من هو عدوهما ، وليبدأ رحلة الحياة على هذه الأرض وقد عرفا وعرف أبناؤهما من بعدهما أن الشيطان لهما عدو ، وسيبقى عدوا لأبنائهما : **لِنَبِّأَنَّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ... }** ^(١) ولذلك توجه النداء بعد ما ذكر الله ما ذكر فى سورة الأعراف إلى بنى آدم — ذكورهم وإناثهم — أربع مرات كان منها قوله تعالى : **يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَكَمَ هُوَ وَقَبِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** ^(٢) .

وفى ذلك أبلغ الدلالة على براءة أمنا حواء مما ظنّه الجاهلون ، وأنها مخاطبة منذ اللحظة الأولى بالاستجابة لنداء الله ، وأن آدم عليه السلام قد هبط إلى الأرض ومعه حواء بعد أن أكرمهما الله بالتوبة ليباشرا مهمة الخلافة فى الأرض وفق منهج محدد خلاصته ما قال الله تعالى : **إِقَالِ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هَذَاى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى ... }** ^(٣) .

(١) فاطر ٣٥ / ٥ ، ٦

(٢) الأعراف ٨ / ٢٧

(٣) طه ٢٠ / ١٢٣ ، ١٢٤

ولذلك حين يقول المخرفون بأن حواء هي التي أغوت آدم حتى أكل من الشجرة المحرمة فكان من أمره وأمرها ما كان ، فنقول لهم : كذبتهم وصدق الله ربنا ، ومثل هذا يقال لمن ادعوا زورا وبهتاناً أن عيسى عليه السلام صلب وضحى بنفسه تكفيرا عن خطيئة آدم نقول لهم: كذبتهم وضللتم فآدم ومعه حواء هبطا إلى الأرض وهما نقيان طاهران تائبان ، لا يحتاجان من أبنائهما إلى من يقدم نفسه قربانا لله تكفيرا عن خطيئة غفرها الله لهما ...

ونعود إلى قصة آدم وحواء لنرى فيها مظهرا للمساواة في التكليف والمسؤوليات والثواب والعقاب ، وأن كل واحد منهما أمر ونهى ، ووسوس له الشيطان وأخرجه مما كان فيه من ستر الطاعة ، ولذة القرب ، ونعيم الله في جنته ، وأن كل واحد منهما تاب وأناب واستغفر ربه فغفر له ، وقد تواصلت رسالات الأنبياء في تقرير هذه الحقيقة . وجاء القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه ، فإبراهيم خليل الرحمن وأبو الأنبياء ، ومن ابتلى فصبر حتى جعله الله إماما فسي الخير ، ورائدا في الدعوة إلى الحق ، هذا النبي أبوه آزر صانع الأصنام ، ونوح عليه السلام الذي يضرب به المثل في طول العمر فسي الدعوة إلى ربه كما قال تعالى : {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} (١) هذا النبي العظيم لا يصدق برسالته أقرب الناس إليه : ابنه وزوجه ، وهكذا نسرى امرأة لوط وقد كفرت بما جاء به ، وعلى الجانب الآخر : نرى امرأة

(١) العنكبوت ٢٩ / ١٤

فرعون الذى ادعى الألوهية تؤمن بالحق ، ونرى من جمعت بين الخبر من أطرافه : مريم عليها السلام ، وما كان من قنوتها وطاعتها لربها ، وكل واحدة من هؤلاء أخذت جزاءها ، والآيات فى ذلك معلومة مشهورة نكتفى منها بما جاء فى سورة التحريم من قول الله تعالى : **لَضَرْبَ اللَّهِ مِثْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين (١٠)** وضرب الله مثلا للذين عامنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا فى الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين (١١) ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين (١) .

وما كان من أمر ما ذكر الله فى التاريخ الإنسانى مما رأينا أمثلة له فى امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون ومريم ابنة عمران هو ما نراه فىمن توجهت إليهم دعوة الإسلام ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وكان من الفريقين رجال ونساء ، بل كان أول من أسلم من النساء أم المؤمنين خديجة عليها رضوان الله ورأينا من بين المهاجرين إلى الحبشة نساء تحملن تبعات الإيمان بالله ورسوله وفارقن الأهل والديار ، وكان منهم ابنة أبى سفيان بن حرب أم المؤمنين رمة ، التى هاجرت وزوجها إلى الحبشة فارتد هناك وتركها تعاني الغربة والألم ، وثنت على دينها فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى فعقد عليها وأصبحت

من أمهات المؤمنين تكريماً ليا وحفظاً ليا من الضياع ، ولعل هذا يستل سخيمة عداء أبيي للإسلام فيعود للإيمان بعد الكفر ...

وبعض النسوة كنَّ يتسللن من ديار الكفر والظلم في مكة ليلاحقن بالمسلمين في المدينة ، فماذا قال الله لرسوله والمؤمنين ؟ قال : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... } (١) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع النساء كما يبايع الرجال ، وبيعته للنساء ليست في جملة بيعته للرجال إنما كانت بيعته لهن خاصة ، وفي ذلك جاء قوله : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... } (٢) .

بل إن من أعظم الأدلة على استقلال المرأة بالمسئولية وما يترتب عليها من ثواب وعقاب ما نقرأه من آيات سورة الأحزاب في شأن أمهات المؤمنين ، فمع ما لهن من عظم المكانة ، ومع ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من منزلة كريمة عند ربه ، ومع أن الله قال في أهل بيت

(١) للمتحنة ١٠ / ٦٠

(٢) للمتحنة ١٢ / ٦٠

رسوله ومنين أميات المؤمنين : {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً...} مع ذلك كله لابد من العمل الصالح فيه وحده النجاة ، بل إن ما وعد الله من ثواب ، وما أوعد من عقاب لين فيه ما لغيرهن ، لأنين موضع القدوة لأمة الإسلام ، ومبلغات رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يطلع عليه إلا هُنَّ ، وفي ذلك نقرأ فى جملة ما نقرأ : {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)} وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنَ كَآدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} (١) إلى آخر هذه الآيات النيرات المباركات .

ومن هذا المنطلق جاءت الآيات الكثيرة فى مساواة المرأة للرجل فى هذا الجانب واستقلالها بالمسئولية ، وتحملها لنتائج ما تختار وما تقدم عليه ، فنقرأ فى ذلك قول الله تعالى : {فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض} (٢) . وقوله فى سورة التوبة فى جانب الكفر والنفاق : {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون (٦٧)} وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم

(١) الأحزاب ٣٣ / ٣٠ - ٣٢

(٢) آل عمران ٣ / ١٩٥

عذاب مقِيم} كما نقرأ فى جانب الإيمان والجهاد قوله تعالى :
{والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرُونَ بالمعروف وينهون
عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتُونَ الزكاة ويطيعُونَ الله ورسوله
أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم(٧١)} وعد الله المؤمنين
والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة
فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم} (١) .

وفى سورة النحل : {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} (٢) .

ومثل هذا المعنى نقرأه فى سورة غافر على لسان مؤمن آل
فرعون إذ يقول لقومه : {يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة
هى دار القرار(٣٩)} من عمل سيئة فلا يجزى إلّا مثلها ومن عمل صالحا
من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير
حساب} (٣) .

ومع أن النساء مخاطبات بما خوطب به الرجال إلا ما جاء الدليل
على أنه خطاب لواحد منهما فقد قالت النساء ومنهن أم المؤمنين أم سلمة
رضى الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما لنا لا نذكر فى
القرآن كما يذكر الرجال ، فنزل قوله تعالى فى سورة الأحزاب : {ليدخل
المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر
عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما(٥)} ويعذب المنافقين

(١) التوبة ٩ / ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢

(٢) النحل ١٦ / ٩٧

(٣) غافر ٤٠ / ٣٩ ، ٤٠

والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساعات مصيرا...} (١) فالرجال والنساء إذن في تكاليف العقيدة وقضائل الأخلاق ومطالب الروح والعقل والوجدان سواء ، كما أنهما في الأجر سواء .

٣- الخصوصيات التشريعية للمرأة تتناسب مع وظيفتها

الاجتماعية: -

خلق الله حواء من ضلع آدم ، {خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها...} (٢) فهي سكنه وراحته ، يأوى إليها من هجير الحياة فيجد الواحة الوارفة والسعادة الفياضة ، إنها زوجه وهو زوجها ، أم أبنائه ورفيقة دربه ، وهو رجلها ، يحميها من عوادي الزمان ، ويظللها برجولته وشهامته وقدرته على الكدح والعمل ، يكسب لها قوتها ، ويوفر لها ولأبنائها أسباب الراحة والأمان ، وهذا من دلائل القدرة الإلهية التي ترشد إلى حكمته فيما خلق ، وبعض ما يفهم من قول الله تعالى - الذي ذكرناه آنفا - : {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} (٣) .

ولهذه الغاية التي خلق الله المرأة من أجلها أعدها جسمانيا وعقليا ونفسيا ووجدانيا ، وشرع لها من الأحكام ما يتناسب مع هذه الغاية النبيلة رحمة منه وكرما وفضلا ...

ففي جانب العبادات : في الصلاة : إذا ما كانت حائضا أو نفساء لا

(١) الفتح ٤٨ / ٥ ، ٦

(٢) الزمر ٣٩ / ٦

(٣) الروم ٣٠ / ٢١

تصلى ولا تقضى هذه الصلوات ، وليس عليها الخروج لصلاة الجمعة في المسجد لا في الصلوات المفروضة ، ولا في صلاة الجمعة بل إن صلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد ، وقد وردت بذلك الأحاديث ومنها ، ما رواه أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تمنعوا نساءكم المساجد " فإن رغبت في شهود الخير وحضور الجماعة مع الإمام في المسجد فلا حرج عليها ولها ثواب الجماعة ، وإن صلت في بيتها ، كان أجرها أعظم ، روى الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها " وروى أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ... "

ولكن عليها إذا ما خرجت إلى المسجد أن تكون ملتزمة بآداب الإسلام ألا تكون متطيبة ولا متزينة ، ولا بثياب شديدة تلفت إليها الأنظار ، وألا يؤدي هذا إلى الاختلاط بالرجال ، وأن يكون الطريق إلى المسجد آمنا ليس فيه ما يجر إلى مفسدة ، إلى غير ذلك مما فيه حفظ كرامة المرأة وشرفها .

ولكم نحن بحاجة في هذا الزمان الذي خرجت فيه المرأة إلى كل مجالات الحياة ، أن نفتح لها أبواب المساجد ، وأن ندعوها إلى حضور الجماعة وأن نحبيها في بيوت الله ، ما دمنا قد حققنا الشروط التي اشترطها أئمة الإسلام وما دام هذا لا يتعارض مع واجباتها في بيتها ولنجعل من المساجد مراكز دعوة وتعليم وتنقيف لنسائنا وبناتنا ، وقد تخرجت من جامعاتنا الإسلامية في أقسامها المتخصصة في الدراسات الإسلامية من حصلن على أعلى الشهادات الجامعية وأصبحن عضوات

للتدريس ، وعميدات للكليات ، وهناك عدد كبير من الخريجات فى التخصصات الإسلامية الكثيرة ، وهناك شيوخنا الأفاضل وأساتذتنا الأجلاء ، وهؤلاء جميعا يستطيعون أن يجعلوا مساجدنا منابع خير ، ترتوى من حياضها بناتنا وفتياتنا ونساء المسلمين بعد طول غياب عن الثقافة الإسلامية ، مما يسّر لأعدائنا طريق الوصول إلى عقول نسائنا فتغيرت المعالم ، وتبدلت المفاهيم ، وغُرِزنا فى عَقْر دارنا ، ولا سبيل لنا إلا بخطة إعلامية تربوية سياسية تتعاون فيها كل الجهات المسؤولة ، لنعود بنسائنا إلى طريق هذا الدين فنحظى بالعمة والسيادة فى عالم يموج بالشهوات ، وتقوده شياطين الإثم والجن إلى تعاسته وشقائه .

هذا فى الصلاة ، أما فى الصيام ، فقد أوجب عليها الإفطار إذا اعتراها الحيض أو كانت نفساء ، ونظرا لأن الصيام لا يكون إلا فى شهر رمضان بخلاف الصلاة التى أوجبها الله خمس مرات فى اليوم واللييلة ، لم تطالب المرأة بقضاء الصلاة ، ولكن فرض عليها قضاء الصوم ، تقضيه فى أى وقت شاعت بعد رمضان ، ولا يشترط فى القضاء التتابع كما أفطرت أياما متتابعة إنما تقضى ما فاتها متابعا أو غير متتابع ، وهذا من رحمة الله بها .

وفى الحج حمى أنوثتها وكرامتها فجعل مسن شرط الاستطاعة الموجبة لأداء هذه الفريضة أن يكون معها زوجها أو أحد محارمها ممن تحرم عليه حرمة مؤبدة كابيها وأخيها ، بل إنها لا تسافر مسافاة تعد سفرا إلا و معها زوجها أو ذو محرم منها ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم ، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعه محرم ، فقال رجل : يا رسول الله إني أريد أن أخرج فى

جيش كذا وكذا و امرأتى تريد الحج ، فقال صلى الله عليه وسلم :
 "أخرج معها" (١) و أخرج الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن النبى
 صلى الله عليه وسلم نهى أن تسافر المرأة مسيرة يومين إلا ومعها زوجها
 أو ذو محرم" (٢) . وقد رأى بعض الأئمة أن المرأة إذا لم تجد زوجها
 ولا محرما فلا بد لها _ على الأقل _ من رفقة صالحة من النساء أو
 من النساء والرجال ، وليس هذا وصاية عليها ، ولا حظرا على حركتها
 ونشاطها إنما هو تكريم وحفظ لها و قيام بحقها ، و تخفيف لأعباء السفر
 ومشقاته ، و ما يمكن أن تتعرض له ممن فى قلوبهم مرض.

كما اشترط عليها للخروج للحج ألا تكون فى عدة وفاة أو طلاق
 فإن المعتدة لا تخرج من بيتها إلى أن تنقضى عدتها و كم فى ذلك من
 حكم تشريعية ، فاذا خرجت للحج أو العمرة ، ووصلت إلى الميقات
 وكانت حائضا أو نفساء لم يمنعها ذلك من إحرامها وأداء مناسكها ،
 وتفعل ما يفعل الرجال من الغسل فى هذا الموطن ، كما تفعل ذلك
 كالرجال أيضا فى المواطن التى يشرع فيها الاغتسال و منها : الإحرام
 ودخول مكة والوقوف بعرفة ، و الوقوف بالمزدلفة ، و رمى الجمرات
 الثلاث . . . وقد جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه
 قال : "النفساء والحائض تغتسل و تحرم و تقضى المناسك كلها ، غير أن لا
 تطوف بالبيت" (٣) وهى حين تؤدي مناسكها لا تصلى شيئا من الصلوات
 لا المفروضة ولا المسنونة ، فقد خفف الله علينا ذلك وروى الإمام مسلم

(١) أخرجه البخارى

(٢) أخرجه مسلم

(٣) رواد أبو داود و الترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر ، فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أصنع ؟ قال : اغتسلي و استنقري بثوب واحرمي ^(١) فإذا اغتسلت المرأة جاز لها قبل أن تلبس ملابس إحرامها أن تختضب بالحناء و أن تضع شيئا من الطيب ثم ترتدى ملابسها التي تلبسها عادة ، ولا يشترط فيها أن تكون على لون مخصوص أو هيئة مخصوصة ، إنما هي الملابس التي تتحقق فيها شروط لباس المرأة المسلمة ، غير أنها لا تستر وجهها وكفيها ، إلا إذا كان ذلك في حضور الرجال ، و قد قال صلى الله عليه وسلم : "لا تتقرب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين" ^(٢).

و روى أحمد و أبو داود وابن ماجه عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : " كان الركبان يمرون بنا ونحن محرمات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه".

فإذا ما لبست ملابس إحرامها لبث بما تريد من ألوان النسك : أفرادا أو قرانا أو تمتعا ، ثم تلبى طوال فترة إحرامها إلى ان تبدأ في رمي جمرة العقبة الكبرى ، و هي في ذلك كالرجال لكن خصوصيتها في ذلك أنها لا ترفع صوتها بالتلبية ، فإذا ما دخلت المسجد الحرام طافت بالبيت إن لم تكن حائضا أو نفساء ، وهو طواف القدوم للمفرد والقارن و طواف العمرة للمتمتع ، وليس لها أن ترمسل ^(٣) كالرجال ولا

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري و أحمد و النسائي و الترمذي .

(٣) الرمل : إسراع المشي مع مقاربة الخطو من غير وثب ، و هو ستة للرجال في طواف القدوم و طواف العمرة في الأشواط الثلاثة الأولى .

تضطجع^(١) و شأن المرأة في كل طواف أن تحاول بقدر الإمكان البعد عن الرجال بأن تختار الليل لطوافها و أن تكون في حاشية المطاف ، إلا إذا كان المطاف خاليا من الرجال فيستحب لها القرب من الكعبة ، كما لا يسن لها لمس الحجر الأسود أو تقبيله إلا عند خلو المطاف ليلا أو نهارا ، فإذا ما انتهت من طوافها وصَلَّتْ خاف مقام إبراهيم ركعتي الطواف خرجت للسعي بين الصفا والمروة ولا يسن لها أن ترقى أعلى الصفا والمروة كما يفعل الرجال إلا إذا كان المكان خاليا ، كما لا يسن لها أن ترمل بين الميلين كما يرمل الرجال ، فإن كانت متمتعة أو في عمرة قَصَرَتْ من شعرها وأَحَلَّتْ من إحرامها ، و إن كانت غير ذلك بقيت على إحرامها حتى تكمل مناسك حجها أفرادا أو قرانا ، و في اليوم الثامن تخرج للمبيت بمنى ثم تتجه في صباح يوم عرفة إلى عرفة للوقوف بها إلى مغيب الشمس ثم تفيض إلى المزدلفة ، وهي مناسك يتساوى فيها الرجال والنساء ، فإذا ما كانت في المزدلفة و صَلَّتْ المغرب والعشاء جمع تأخير ، وقفت تدعو الله بما تحب ، ثم خرجت قبل الفجر إلى منى ، فإذا وصلتها رمت جمرة العقبة ، و السنة للرجال البقاء في المزدلفة إلى طلوع شمس يوم النحر ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص للنساء والضعفة من الصبيان وغيرهم ومن يقوم على خدمتين بالخروج من المزدلفة قبل طلوع الفجر ، رحمة بهم وتخفيفا عنهم ، وقد وردت بذلك الأحاديث في أنه صلى الله عليه وسلم أنن في ذلك لأم المؤمنين سودة رضي الله عنها كما روى مسلم عن أم حبيبة — رضي

(١) الاضطجاع: أن يجعل رداءه وسطه تحت عاتقه الأيمن ، و طرفه على عاتقه الأيسر و هذا لا يمكن أن يكون للنساء لأنهن لا يلبسن لثيابهن السقرة لكل البنن عدا الوجه والكفين .

الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث بها من جمع ليل^(١) (وَجَمَعَ هِيَ الْمَزْدَلِفَةُ) وفي صحيح مسلم أن ابن عمر - رضي الله عنهما - : كان يُقَدِّمُ ضَعْفَةَ أَهْلِهِ فَيَقْقُونَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ بِالْمَزْدَلِفَةِ بِاللَّيْلِ فَيَذْكُرُونَ اللَّهَ مَا بَدَأَ لَهُمْ ، ثُمَّ يَدْفَعُونَ قَبْلَ أَنْ يَقِفَ الْإِمَامُ وَقَبْلَ أَنْ يَدْفَعَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْدُمُ "مَنَى" لَصَلَاةِ الْفَجْرِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْدُمُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَإِذَا قَدِمُوا رَمَوْا الْجَمْرَةَ ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ : "أَرْخَصَ فِي ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (٢)

و من رحمة الله بالنساء ما شرعه لهن من النيابة في رمي الجمرات في يوم النحر و ما بعده من أيام التشريق إلا إذا لم يكن هناك زحام فعليهن الرمي بأنفسهن ، روى ابن ماجه عن أبي الزبير عن جابر قال: حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا النساء و الصبيان ، فلبينا عن النساء و الصبيان و رمينا عنهم (٣)

فإذا ما تم الرمي رجعت المرأة إلى المنحر فاخترت هدياً طيباً تتوافر فيه الصفات الشرعية فنحرت هديها إن كانت قارنة أو متمتعة ، وهى لا تنحر الهدى بنفسها إنما تنيب عنها من يذبح لها، ويعد الذبح تقصر شعرها بأخذ أطراف منه ، و بهذا يحصل التحلل الأول ثم تستعد للذهاب لمكة لأداء طواف الإفاضة وهو الذى يسمى بطواف الصدر وطواف الركن ، وعليها أن تبادر لأداء هذا الطواف خشية نزول دم الحيض لأنها إن حاضت فليس لها حق دخول المسجد و الطواف بالبيت

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٤٠/٩

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٤١/٩

(٣) رواه ابن ماجه

و عليها أن تنتظر إلى أن تطير ثم تؤدي هذا الركن ، لكن ماذا تصنع إن كانت مرتبطة بسفر و رفقة ، و ليس في الإمكان البقاء فسي مكة ليذا الأمر؟ هل كان يجب أن تستعد لهذا بأخذ بعض الأدوية التي تؤخر نزول الحيض حتى يتم لها طواف الإفاضة كما رأى ذلك ابن عمر رضي الله عنهما ووصف للنساء ماء الأراك ؟ أو تأخذ برأى المالكية والحنابلة وأحد قولي الإمام الشافعي في أن عليها انتهاز فرصة إنقطاع الدم خلال أيام حيضها لتغتسل و تستنقر (أي تضع قطناً وما شابهه في موضع نزول الدم وتشدّه بشيء) ثم تؤدي طوافها ؟ أو كما قال الأحناف : لها أن تطوف ولكن عليها بدنة ، أي أنها إذا طافت و ذبحت ناقة أو بقرة فقد تم حجها ، و قال بعض أصحاب مالك بأنها إذا كانت قد طافت طواف القدوم فإنه يجزئ عن طواف الإفاضة فكلا الطوافين واجب ، و كل منهما يغني عن الآخر ، و لعل رأى الإمام ابن تيمية يحل هذا الإشكال فقد رأى أن الطواف لا بد فيه من الطهر ولا يغني طواف عن طواف ولكن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، و هذا معنى قوله تعالى : " فاتقوا الله ما استطعتم " ولقد أباح الله للمستحاضة و لمن به سلس بول الصلاة و الطواف ، و لم يؤاخذهما بعذرهما فكذاك هنا يباح للحائض المضطرة التسي لا يستطيع ترك رفقتها أن تطوف ولا شيء عليها ، بعد أن تغتسل و تأخذ الاحتياطات الواجبة التي تأخذها المستحاضة حين تؤدي صلاتها و يردّ رحمه الله على من أذن لها بالطواف وأوجب عليها دماً ، بأن الواجب إذا تركه المكلف من غير تفريط فلا دم عليه ، بخلاف إذا ما تركه ناسياً أو جاهلاً ، ويقول : وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أسقط عن الحائض طواف الوداع، و من قال إن الطهارة فرض في

الطواف وشرط فيه فليس كونها شرطا فيه أعظم من كونها شرطا في الصلاة ، و معلوم أن شروط الصلاة تسقط بالعجز ، فسقوط شروط الطواف بالعجز أولى وأحرى^(١) فإذا ما طافت طواف الإفاضة ، أدت سعيها إن لم تكن قد أدته مع طواف القنوم ، و هذا ليا إن كانت مفردة أو قارئة أما إذا كانت متمتعة فإن طوافها الأول حين دخلت مكة وسعيها إنما كان طواف العمرة و سعيها ، و عليها الآن أن تؤدي سعي الحج كما سبق في طريقة الأداء الخاصة بالنساء ، ثم تعود لمنى للمبيت بها يومين أو ثلاثة ترمى في كل يوم الجمرات الثلاث ، بنفسها إن أمكنها ذلك ، وإلا أنابت عنها من يرمى ، وهذا ما استحسنة العلماء في مثل هذه السنوات التي كثر فيها عدد الحجاج و أصبح الزحام في رمي الجمرات بل و في غيرها شديدا ، فإذا ما انتهت أيام التشريق عادت إلى مكة لطواف الوداع ، إلا إذا كانت حائضا فلا تؤدي هذا الطواف لما روى عن ابن عباس قال : أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خفف عن المرأة الحائض^(٢) و ما رواه مسلم عن عائشة في أن أم المؤمنين حفصة بعد الإفاضة وطواف الركن حاضت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فلتنفر "^(٣)

(١) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ابن تيمية ج ٢٦ ص (٢٢٥ - ٢٤١)

(٢) رواه الشيخان

(٣) رواه مسلم

فلتسافر معنا دون طواف. (١)

وفي الجهاد: ويقصد به جهاد الأعداء بقتالهم ، و هذا قد يكون فرض عين أو فرض كفاية ، فيكون فرض عين إذا التقى الجمعان فيجب على من حضر من المسلمين ، ذكراً أو أنثى أن يثبت في الميدان و ألا يفر من الزحف ، كما يكون فرض عين إذا دعا الإمام قوما للخروج إلى القتال أو عين شخصاً لذلك ، يتساوى في هذا الذكر و الأنثى ، كما يجب على الجميع أن يقاوتوا إذا هجم الكفار على بلد من بلاد المسلمين فيجب على أهل هذه البلد ومن قرب منهم ، إن لم تحصل بهم كفاية و هكذا من يليهم إلى أن يتم دفع الكافرين أو إخراجهم من البلدة التي احتلوها ، وعلى ولي أمر المسلمين أن يعلن الجهاد العام لتحقيق هذه الغاية، بل إن على المسلمين أن يبادروا بجهاد عدوهم وإن تكاسل الإمام عن ذلك ، كذلك يتعين على المسلمين رجالاً ونساء قتال عدوهم إذا كان هؤلاء الأعداء قد أسروا مسلماً أو مسلمة ، كما يجب القتال على الجندى المسلم الذي انخرط في أسلاك الجندية و يتقاضى راتباً عن ذلك ، و المرأة في هذا الجهاد المفروض كالرجل سواء بسواء ، ولكن خصوصيتها في هذا الجهاد المفروض أنها لا تشارك الرجال في الجهاد إلا للضرورة إذا

(١) يقرأ في هذا :

١- فقه النساء في الحج / محمد عطية خميس - دار القلم بيروت

٢- أحكام عبادات المرأة في الشريعة الإسلامية / د. سعاد صالح - دار الضياء - القاهرة ط

الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٣- المفصل في أحكام المرأة د/ عبد الكريم زيدان ج١ مؤسسة الرسالة بيروت ط الأولى

١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م

احتاجوا إليها ولها مع جند الله موقع متميز لا يستغنى عنه المقاتلون ألا وهو إعداد ما يلزم للمقاتلين من غذاء وكساء ، و مداواة للجرحى ، ونقلهم إلى أماكن علاجهم ، و ما إلى ذلك من أمور تقوم بها المرأة خبير قيام ، أما الجهاد الذي هو من فروض الكفاية فهو ما شرعه الله لنشر دينه وإعلاء كلمته من تبليغ دعوة الحق إلى الناس ، فيعرض عليهم الإسلام فإن قبلوه فيهم أخوة للمسلمين ييقون في ديارهم و أرضهم وملكهم لا سلطان لأحد عليهم ، و إن لم يقبلوا دين الله عرض عليهم الأمر الثاني: وهو الدخول مع المسلمين في عقد ذمة يدفعون بمقتضاه الجزية للمسلمين و يخضعون لأحكام الإسلام ، والجزية مبلغ زهيد من المال يدفعه الرجال القادرون على حمل السلاح فحسب فإن لم يرتضوا هذا أو ذاك ، قاتلهم المسلمون حتى يفتحوا بلادهم عنوة و يُخضعوهم لحكم الله ، و هذا الجهاد يجند له الجنود و تعد له القوة، ولا يجب على كل مسلم إنما يبقى الجهاد والاستشهاد أملا يراد القلوب وتهفو إليه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات ولم يغز ، و لم يحدث به نفسه فقد مات على شعبة النفاق" (١) و هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه ومن بعدهم إلى أن أوصلوا كلمة الله إلى أهل الأرض وحققوا قول الله تعالى : {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (٢) و قد خفف الله هذا الفرض

(١) رواه مسلم في الإمارة باب ثم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، وأبو داود : في

الجهاد / باب كراهية ترك الغزو ، والنسائي : في الجهاد / باب التشديد في ترك الجهاد ،

وأخرجه أحمد في مسنده ٣ / ٣٤٧ .

(٢) التوبة ٩ / ٣٣

الكفائي عن النساء ، و لم يطلب منهن ذلك ، و جعل قيامهن على تربية
أبنائهن و حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل ما يقوم به الرجال من حضور
الجمع والجماعات ومواطن القتال في سبيل الله ، فهي شريكة الرجل في
الأجر ، لأنه لن يتمكن من أداء مهمته إلا برفيقة دربه وشريكة كفاحه
ومن تقوم على بيته و أبنائه في غيابه . و قد روى البخاري بسنده عن أم
المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله نرى الجهاد
أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال: لكن أفضل الجهاد حج مبرور" (١) فقد
فهمت رضي الله عنها أن ما خاطب الله به المؤمنين من الترغيب في
الجهاد هو خطاب للمؤمنات أيضا ، و هي نقلة ربانية في تاريخ المرأة
حيث ساواها بالرجل في التكليف الشرعية ، فسألت عن الجهاد في سبيل
الله و دور المرأة فيه، فبين لها الرسول الكريم أن الحج المبرور لون من
الجهاد يناسب طبيعتها و ضعفها ، و كأنه صلى الله عليه و سلم يشير إلى
أن الله لم يكلفها بهذا فلها دور مشكور مأجور مبرور في الجهاد خلف
المجاهدين بحفظ أموالهم و أبنائهم و بيوتهم ومع ذلك إذا ما توفرت
الظروف و ساحت الفرصة و أرادت أن تشارك في هذا الجهاد فإن دين
الله لا يحرمها من هذا الخير بشرط:

١- أن تخرج بإذن زوجها .

٢- وأن يكون خروجها للحاجة إليها و فيه مصلحة راجحة

٣- وألا يكون في خروجها مفسدة لها أو لغيرها بأن تكون شابة
تخشى الفتنة على نفسها أو على غيرها.

٤- وأن يأذن إمام المسلمين لها في الخروج وفق ما يراه من

(١) رواه البخاري وغيره وابن خزيمة في صحيحه.

مصلحة في خروجها ، فإن تحققت هذه الشروط خرجت فأدت ما يناط بها من أعمال ، كما سبق ذكره في الجهاد العيني ، و تاريخ الجهاد الإسلامي يحمل علامة مضيئة كريمة للمرأة المسلمة فقد أخرج البخاري عن الربيع بنت معوذ قالت : كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه و سلم نسقى ونداوى الجرحى ، و نرد القتلى إلى المدينة " (١) . وفي مسلم عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يغزو بأمر سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا ، فيسقين الماء ويداوين الجرحى " (٢) . بل إن صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها في غزوة الخندق رأت يهوديا يطوف بالحصن الذي هي فيه فضربته ضربة أردته قتيلًا فكانت أول امرأة قتلت رجلا من المشركين " (٣)

وعن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي قالت : شهدنا القادسية - وكانت موقعة القادسية في زمن عمر بن الخطاب مع سعد بن أبي وقاص - مع أزواجنا ، فلمل أتاناً أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوى ، ثم أتينا القتلى ، فمن كان من السلمين سقيناه و رفعناه ، و من كان من المشركين أجهزنا عليه " (٤) و أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أم عطية الأنصارية قالت : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام و أداوى الجرحى ، و أقوم على المرضى " (٥)

(١) رواه البخاري

(٢) رواه مسلم

(٣) زاد المعاد لابن القيم ٤ / ١٢٤ ، ١٢٥

(٤) البداية والنهاية : لابن كثير ٦ / ٤٦

(٥) رواه مسلم ج ١٢ ص ١٩٤ ، وابن ماجه : في مسنده ج ٢ ص ٩٥٢

و أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال :
لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : و لقد
رأيت عائشة بنت أبي بكر الصديق ، و أم سليم ، و إنهما لمشمرتان أرى
خدم سوقهما تتقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواه القوم ، ثم
ترجعان فتملأنها ، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم " (١) بل إن
المرأة المسلمة خاضت غمار الحرب و الجهاد حين تَطَلَّبَ الموقف ذلك ،
فهذه أم عمارة: نسيبة بنت كعب المازنية رضي الله عنها تقول : خرجت
أول النهار (أي يوم أحد) أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء ،
فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو في أصحابه ، والدولة
والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقامت أباشر القتال و أذب عنه بالسيف و أرمى عنه بالقوس
حتى خلصت الجراح إلى ، و يوضح المقرئ في هذا الموقف لأم عمارة
فيقول كانت أم عمارة: نسيبة بنت كعب قد شهدت معركة "أحد" هي
وزوجها و ابناها ، و معها شن لتسقى الجرحى ، فقالت و أبلت بلاء
حسنا يومئذ و هي حازجة ثوبها على وسطها حتى جُرِحَتْ أَثْنَى عَشَرَ
جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، و ذلك أنها كانت بين يدي
رسول الله صلى الله عليه وسلم هي و ابناها عبد الله و خبيب ، وزوجها
غزية بن عمرو يذبون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انهزم
المسلمون جعلت تباشر القتال و تذب عن رسول الله صلى الله عليه و
سلم بالسيف و ترمى بالقوس ، و لما أقبل ابن قمئة - لعنه الله - يريد
النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت فيمن اعترض له ، فضربها على

(١) البخاري شرح القسطلاني ج ٦ ص ٧٨ - وخدم سوقهما : أي خلاخيل سوقهما

عائقها ضربة صار لها فيما بعد ذلك غور أجوف ، و ضربته هي ضربات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لمقام نسيبة بنت كعب اليوم ، خير من مقام فلان وفلان " وقال صلى الله عليه وسلم : ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دوني " قالت أم عمارة : يا رسول الله : ادع الله أن نرافقك في الجنة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة ، قالت ما أبالي ما أصابني من الدنيا " (١) و على هذا الدرب الذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من إعطاء المرأة مكانتها بما لها من خصوصية فيما شرع الله من حمل مسئولية هذا الدين و الدفاع عنه - سار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم و من بعدهم ، فيذه أم عمارة التي ذكرنا جهادها مع رسول الله ، نراها بعد رسول الله تشارك المسلمين في حرب الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، يقول ابن حجر : " شهدت أم عمارة قتال مسيلمة الكذاب ، و جرحت يومئذ اثنتي عشرة جراحة ، و قطعت يدها ، و قتل ابنها خبيب " (٢) و يذكر ابن حجر ما كان من أمر أم حكيم بنت الحارث التي خرجت مع زوجها عكرمة بن أبي جهل إلى غزو الروم فاستشهد زوجها ، و تزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص ، و قاتل الروم حتى قتل ، فلما رأت ذلك شددت حايها ثيابها فقتلت يومئذ بعمود فسطاط سبعة من الروم. (٣)

إنها المرأة المسلمة و ما اختصها الله به من كرامة في ظل دين

(١) إمتاع الأنساع : للمقريزي ص ١٤٨ ، ١٤٩

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلاني ج ٤ ص ٤٧٩

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤٤ ، والاعتلج : لابن عبد البر ج ٤ ص ٤٤٤

الإسلام فيؤمن المؤمن الصابرة المجاهدة المستقلة عن دنيا وعقيدتها ،
تتحمل الأذى في سبيله حتى الموت كما كان من أمر أم عمار السيدة
الشهيدة : سمية التي همدت في وجه الكفر وجبروته حتى فاضت
روحها تحت وطأة التعذيب في مكة ، و هي الميادرة بدنيا إلى الحبشة
و المدينة ، و هي الأنصارية الكريمة التي تجود بما ملكت يداها هي
وزوجها للمهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و هي
المشيخة بما يجمع أمر المسلمين كما كان من أمر أم سلمة أم المؤمنين
رضي الله عنها فيما أبدت لرسول الله صلى الله عليه و سلم من مشورة
صادقة في العديبة ، و هي سند المجاهدين تدفعهم وتحثهم وتحمى
ظهورهم و تقوم على شئونهم برعاية أموالهم و أبنائهم ، و هي معهم في
الميدان تأسر جوارحهم ، وتلوى مرضاهم ، و تعد لهم طعامهم و شرابهم
و كساءهم ، و تحمل السلاح في جراءة وإقدام إن احتاج المجاهدون
لوقوفها معهم ، لقد حملها الإسلام منذ اللحظة الأولى مسئولياتها كاملة ،
فهذا رسول الله صلى الله عليه و سلم حين قال الله له : " وأنذر عشيرتك
الأقربين " (١) قام فقال : " يا معشر قريش اشترُوا أنفسكم ، لا أغني عنكم
من الله شيئا ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن
عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ، و يا صفية عمة رسول الله لا
أغني عنك من الله شيئا ، و يا فاطمة بنت محمد سلمي ما شئت من مسألي
لا أغني عنك من الله شيئا " (٢) . فالمرأة ليست مجرد تابع وظل للرجل ،

(١) الشعراء ٢٦ / ٢١٤

(٢) رواه البخاري

ولا هي التي لا قيمة لها ولا كرامة ، تؤاد وتُغضل وتُظلم وتُحرم من كل حقوقها ، إنما هي المساواة في الحقوق والواجبات ، يسوى رسول الله صلى الله عليه و سلم في ندائه سادة قريش و بنى عبد مناف و عمه العباس بصفية وفاطمة و يذكر انه لا يغنى عنهم من الله شيئا.

ومن منطلق هذه المساواة ما جعله الإسلام للمرأة من حق الإجارة والأمان و إبداء الرأي في الأسرى و استحقاقها لنصيبها في الأجر فسي الآخرة و نصيبها من الغنيمة ، فهذه أم هانئ بنت أبي طالب و أخت علي كرم الله وجهه تجير رجلا من المشركين هو ابن هبيرة وكان أخوها علي رضي الله عنه قد توعده بالقتل لما ارتكبه من جرائم في حق الإسلام فجاءت أم هانئ تشكو لرسول الله صلى الله عليه و سلم فقال لها: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ * (١) و نرى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقسم مروطا بين نساء من نساء المدينة فبقى مرط جيد فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين اعط هذا ابنة رسول الله صلى الله عليه و سلم التي عندك (يريد أم كلثوم بنت علي حفيدة رسول الله صلى الله عليه و سلم) فقال عمر أم سليط أحق ، و أم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله صلى الله عليه و سلم ، قال عمر فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد ، أي تخطيها . (٢)

بقي لنا - ونحن نتحدث عن الخصوصيات التشريعية للمرأة في

(١) البخاري ٤ / ١٢٢

(٢) البخاري ٤ / ٤٠

الجهاد - أن نعرف موقف الإسلام منيا إذا كانت مشركة ، و قد جاءت توجيهياته صريحة أن النساء كالأطفال و الشيوخ لا يقتلون ، أخرج أسير داود في سننه وابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " انطلقوا باسم الله ، و بالله ، و على ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيئا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ولا امرأة . " (١) لكنها لو اشتركت في القتال و حملت السلاح أو حرضت قوميا ، و دلتهم على عورات المسلمين ، ففي محاربة الله و لرسوله تقتل ولا كرامة لها ، كما أن الضرورة قد تبيح قتلها ، كما إذا هجم المسلمون على الأعداء ليلا ولم يميز جند الله بين الرجال والنساء ، أو إذا تترس الكفار بنسائهم و أطفالهم و لم يتمكن المسلمون من الوصول إليهم إلا بقتل النساء والأطفال ، و لكن يبقى هذا في حدود الضرورة القصوى ، وعلى المسلمين أن يتجنبوا هذا بقدر المستطاع..

هذه أضواء كاشفة فيما اختص الله به النساء من أحكام في بعض العبادات وفي الجهاد ، ذكرناها لا على سبيل الاستقصاء إنما هي مجرد أمثلة توضح ما هنالك من فروق بين الرجال و النساء فيما شرع الله ، وأن هذه الفروق من مقتضيات الحكمة الإلهية لتنظم حياة بني الإنسان ، وتتكامل بطرفيها بين الذكور والإناث ، وسوف نتابع هذه الفروق في جوانب أخرى في شريعتنا الغراء ، فماذا نرى؟؟

في الميراث : وقد أكرمها الله و رفع عنها ظلم الجاهلية التي جعلت التركة لمن يزود عن الحمى ، و يدافع عن العشيرة ، و لم يكن للمرأة حق في الميراث فجاء العدل الإلهي يقول : -

(١) سنن أبي داود ٢٧٤ / ٧ ، وسنن ابن ماجه ٩٤٨ / ٢

{الرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون والنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا} (١) لكر
 حكمة الله جرت أن يكون الميراث وفق ما كلف الله به كلا من الذكر
 والأنثى من أعباء مالية، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين في الأعم الأغلب
 و لذلك نجد التساوى بينهما إذا كانا أبوين ولابنهما ولد ذكر قال تعالى :
 {ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد} (٢) و نرى
 ذلك في الأخوة لأم إذا ورثوا أخا لهم مات كلاله دون أن يكون له والد
 ولا ولد : قال تعالى {وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو
 أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في
 الثلث} (٣) يقتسمون هذا الثلث بالسوية بين ذكورهم وإناثهم ، إنه شرع الله
 الذي لا يظلم أحدا على حساب أحد ، نراه يعطى في الميراث للذكر
 ضعف ما للأنثى لأنه كلفه بالإنفاق والرعاية ، فهو المكلف بكل نفقات
 الزواج من شبكة وهدايا و مهر ووليمة ، و بعد الزواج عليه الإنفاق على
 زوجته و أبنائه و أسرته ، و عليه أن يساهم بالنصيب الأوفى فيما يفرض
 على الأسرة من واجبات الضيافة و الإعانات الاجتماعية و ما إلى ذلك
 مما لا تتحمل منه المرأة شيئا إلا ما تجود به عن طيب خاطر ، و أسسر
 آخر لابد من ملاحظته في شريعة الله في الميراث و هو أن الإسلام ينظر

(١) النساء ٧/٤

(٢) النساء ٤/١١

(٣) النساء ٤/١٢

إلى المرأة باعتبارها زوجاً لها زوج يُكوّنُ أسرة، بإجتماعهما يتم التكافل
الإنسانى ، و إذا كان للزوج وهو الرجل سيمان و لزوجته سيم فيذه ثلاثة
أسهم و أخت هذا الرجل تأخذ سيماً و زوجيا سيمان فيذه ثلاثة أسيم فى
أسرة أخرى و هكذا ، تتعادل كفتا الميزان ، و الأسر يخلف بعضها
بعضاً، "سنة الله فى خلقه و لن تجد لسنة الله تبديلاً" و بهذا نتضح
بعض جوانب الحكمة الإلئية فيما شرع الله و تبطل دعاوى المغرضين
الحاقدين على دين الإسلام.

وفى الشهادة: قرر القرآن أن شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين
وذلك فى قوله تعالى فى آية الذّين من سورة البقرة : ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا
شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ
مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ .. (١) وهذا فى
الأموال أما فى الحدود و القصاص فلا تقبل شهادتها ، وهذا وذاك ليس
بغيب فى المرأة ، ولا أن لها مكانة دون الرجل فإن شهادتها فى الأمور
الخاصة بالنساء كالولادة و الرضاع والبركة و النوبة ونحو ذلك، هى
التي يؤخذ بها ولا يؤخذ فيها بشهادة الرجل ، و لكن الله أوجب مشاركة
امرأتين فى الشهادة لأن العادة جرت بأن ما لا يشغل به الإنسان نفسه
كثيراً ما ينسى تفصيلاته و ملابساته فيحتاج إلى من يذكره ، و المرأة لا
تكثر كثيراً بالمعاملات المالية فهى مشغولة ببيتها وأبنائها و واجباتها
فاذا ما طولبت بالشهادة فى ذلك قد يخفى عليها و يغيب عنها بعض ما
يجب أن يُذكر فتحتاج إلى من يُذكرها، و هذا هو الذى بينه ربنا

(١) النقرة ١ / ١٨٢

بقوله: "أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى" بقول الإمام محمد بن عبد الله: "إن الله جعل شهادة المرأتين شهادة واحدة فإذا تركت إحداهما شيئاً من الشهادة كأن نسيتها أو ضل عنها تذكرها الأخرى و تتم شهادتها، و للقاضى - بل عليه - أن يسأل إحداهما بحضور الأخرى ، ويعتد بجزء الشهادة من إحداهما ، وبقايتها من الأخرى ، أما الرجال فلا يجوز له أن يعاملهم بذلك ، بل عليه أن يفرق بينهم ، فإن قصر أحد الشاهدين أو نسي فليس للأخر أن يذكره ، وإذا ترك شيئاً تكون شهادته باطلة ، يعنى إذا ترك شيئاً مما يبين الحق ، فكانت شهادته وحده غير كافية لبيانها، فإنها لا يعتد بها ، و لا بشهادة الآخر وحدها وإن بينت" (١).

كما أن الله الذى خلق النساء و أودع فى فطرتهم الرقة و العاطفة المشبوبة علم أنهن إذا رأين ما يستوجب إقامة الحد من القتل و غيره ، يجزعن جزعاً شديداً قد يودى إلى عدم ضبط ما رأين، فكيف تكلف المرأة بالشهادة فى مثل ذلك ، و لهذا لا تقبل شهادتها فى تلك الأمور المتعلقة بالحدود و الدماء و القصاص، و كما يقول صاحب المنار: 'وكان حكمة ذلك إبعاد النساء عن مواقف انفواحش و الجرائم و العقاب و التعذيب ، رغبة فى أن يكن دائماً غافلات عن القبائح لا يفكرن فيها ، و لا يخضن مع أربابها و أن تحفظ لهن رقة أفندتنهن فلا يكن سبباً للعقاب" (٢).

دبة المرأة:

من التشريعات التى اختص الله بها المرأة أن جعل ديتها فى القتل الذى لا يستوجب القصاص بأن كان خطأ أو ما يشابهه على النصف من

(١) تفسير المنار ج ٣ ص ١٢٢

(٢) تفسير المنار ج ٤ ص ٨٢٥

دية الرجل فهل يعنى ذلك انها أقل شأنًا من الرجل ؟؟ إن الإسلام الذي كرمها و أكرمها وأعطاهما حقها كاملا فى مساواة عادلة ، يرى أن الدية ليست عوضا عن حياة المقتول ، فإن الحياة الإنسانية فى ميزان الإسلام لا توزن بكنوز الأرض . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم " (١) و يقف عليه السلام أمام الكعبة فيقول : " ما أطيبك وأطيب ريحك ، وما أعظمك وأعظم حرمتك . والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك : ماله ودمه : (٢) و لكن الإسلام ينظر على ما ترتب على موت كل من الرجل والمرأة من خسارة مادية لأهله و عشيرته ، فيعوض أولياء كل منهما بقدر هذه الخسارة أو بما يعينهم على مشقات الحياة بعد فقد من فقدوه ، ومن الواضح أن موت الرجل فيه خسارة ليست كالخسارة فى موت المرأة فهو العائل لأسرته ، و المكلف بالإنفاق عليها ، و إن لم يكن قد وصل إلى مرحلة من العمر يتحمل فيها هذا العبء ، لكنه سيتحمله عاجلا أو آجلا ، أما المرأة فالخسارة فى فقدائها خسارة معنوية ، مما يحدث لأهلها من حزن وألم ، وتبدو عظمة الإسلام وهو يسوى بينها وبين الرجل فى القصص فلو قتل رجل امرأة عمدا قتل بها كما قال بذلك جمهور الأئمة ، فقد قال تعالى :

{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} .. الآية " (٣) و هى والرجل سواء فى الإنسانية وفى حق الحياة ..

الحجاب:

و هذا مما اختص الله به النساء حفظا لهن من نظرات من فى

(١) رواه الطبراني

(٢) رواه النسائي

(٣) المائدة - ٥٥

قلوبهم مرض ، و قطعاً لأطماع الظالمين و المفسدين ، و حماية لأمة الإسلام أن تشيع فيها الفاحشة ، و يضطرم فيها نار الشهوات ، و ما شاعت الفاحشة في قوم إلا عاجلهم الله بعقوبته ، و أهل بينم نعمته ، و كان مصيرهم إلى الزوال ...

و آيات الحجاب جاءت أولاً في سورة الأحزاب في قوله تعالى : يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين و كان الله غفوراً رحيمًا .

و قد جاء في هذه السورة المباركة من التوجيهات الربانية لنساء النبي صلى الله عليه و سلم قوله تعالى: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى .."

كما جاء التوجيه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم بكيفية التعامل مع أمهات المؤمنين في قوله سبحانه : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ نَلَكُمْ أَطْهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبَهُنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنَكَحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا.." (١)

و سورة "الأحزاب" التي وردت فيها هذه الآيات ، سميت بذلك لأن

(١) الأحزاب ٣٢ / ٥٩، ٣٣، ٣٢، ٥٢

اليهود لما غاظهم ما حدث لهم من إخراج من المدينة المنورة استنفروا كل أعداء الإسلام من المشركين وأنابهم وجاعوا للمسلمين في المدينة يريدون استئصالهم لولا أن أليم الله المسلمين بحفر خندق حول المدينة فحجزهم فلم يصلوا إلى غرضهم إلى أن أرسل الله عليهم ريحا وجنرا من عنده ، فقلعت خيامهم وكفأت قنودهم و ألقى الله الرعب في قلوبهم فولوا الأدبار هاربين ، و لذلك سميت هذه الغزوة بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق و بعدها قال الرسول لأصحابه : "لن تغزوكم قريش بعد اليوم وإنما أنتم الذين تغزونهم " (١) و قد حدث هذا في شوال من العام الخامس الهجري ، و لهذا التاريخ ولهذا القول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهمية خاصة في الحديث عن الحجاب ، لأننا سنعرف مسيرة التشريع في هذا الأمر و نحن نحدد تاريخ نزول آيات سورة النور ، وفيها الحديث عن حد الزنا و القذف واللعان وحديث مستفيض عن حادثة الإفك ، ثم كان البيان عن الاستئذان و آدابه ، و الأمر بغض البصر وحفظ الفروج ، و أمر النساء بالحجاب في قوله تعالى : ولا يبدین زينتهن إلا ما ظهر منها .. الآية فإن المشركين ومن على شاكلتهم من المنافقين وأهل الكتاب حين عجزوا وهزموا في ساحات المعارك انتقلوا إلى ساحات معارك أخرى في محاولات يائسة لزلزلة المجتمع المسلم و نشر ألوان من الفساد في ربوعه ، فنزلت الآيات تكمل بناء هذا المجتمع . وتحصنه بالأخلاق الفاضلة ، و المبادئ القويمة ، بعد أن أرسلت في وجدانه وشعوره وقلبه أسس التوحيد لرب العالمين في ربوبيته و ألوهيته

(١) رواه البخاري في الجهاد / باب غزوة الأحزاب

و أسمائه و صفاته ، و سلكت به ممالك العبودية للإله الخالق فيما شرعته من عبادات فى الصلاة و الصيام و الزكاة .. و كان من جملة ما نزل تلك الآيات التى رأيناها فى سورة الأحزاب ثم كانت الآيات فى سورة النور التى نزلت بعد غزوة بنى المصطلق و قد كانت فى شعبان سنة ست للهجرة و فيها قوله تعالى : { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (١)

و الآيات فى الأحزاب والنور واضحة الدلالة على معناها، والمعركة التى تشتعل بين الحين و الآخر حول الحجاب يجب أن تتوقف إذ لا يستفيد منها إلا أعداء الإسلام ، فإن الجميع متفق على أن بدن الحرة كله عورة ما عدا الوجه والكفين ، و هنا كان الخلاف : هل للمرأة أن تبتدو أمام من لم يرد ذكرهم فى آية النور ، سافرة الوجه كاشفة عن يديها أو هذا مما يجب ستره ؟

(١) النور ٢٤ / ٣٠ : ٣١

إن تتبع مسيرة التشريع الإسلامى قد تفيدنا فى الإجابة على هذا السؤال فإن هذا التشريع قد ينتقل بالمكلفين من السهل إلى الصعب أو العكس و قد ينتقل إلى المساوى كما رأينا فى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة تعويدا للمؤمنين على الطاعة المطلقة لله رب العالمين، و آية الأحزاب سابقة على آية النور ، و فيها أمر من الله لنساء النبى وبناته ونساء المؤمنين بأن يدينن عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين، وقد فهم بعض الصحابة أن المراد بذلك تغطية المرأة لوجيها، قال بذلك ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه عنه على بن أبى طلحة قال: أمر الله نساء النبى إذا خرجن من بيوتن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب و يدينن عينا واحدة "

و قال بعضهم إن المراد بإدناء الجلابيب أن تشد على الجباه و يبقى الوجه مكشوفاً ، و هذا رأى آخر لابن عباس قال : كانت الحرة تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنين أن يدينن عليهن من جلابيبهن ، وإدناء الجلابيب أن تقنع و تشد على جبينها ، و بمثل هذا قال قتادة ومجاهد..

أما آية النور ففيها : " و لا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها..

فما المراد من " إلا ما ظهر منها " ؟

هل المراد : إلا ما ظهر منها بحكم الضرورة من هبوب ريح ونحوه ، وعلى المرأة أن تستر جميع بدننها بما فى ذلك الوجه والكفان ، ولا يجوز إظهار ذلك إلا فى حالات الضرورة كما فى حالات العلاج والتحقق من الشخصية فى الشهادة وغيرها .. يقول ابن عطية : يظهر لى بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بالأبتدى ، و أن تجتهد فى الإخفاء

لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه أو إصلاح شأن و نحو ذلك " (١) و بهذا قال ابن مسعود والحسن و ابن سيرين ، و أبو الجوزاء وإبراهيم النخعي ، و الآية بذلك متطابقة مع ما جاء فى سورة الأحزاب على الرأى الأول .

أو أن المقصود بما ظهر منها : الوجه والكفان ، فالجميع متفق على أنهما ليسا من العورة ، و ما دام الأمر كذلك فلا حرج من كشفهما و هذا رأى ابن عباس و سعيد بن جبير و عطاء و الأوزاعي ، و قد اختاره ابن جرير والقرطبي و الجمهور و أبو حنيفة و مالك والشافعى و هو أحد الرايين للإمام أحمد.

يقول القرطبي "إنه لما كان الغالب من الوجه و الكفين ظهورهما عادة و عبادة و ذلك فى الصلاة و الحج يصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما " (٢) ولكل فريق حجته ، حتى اتسع الخلاف بين المسلمين فرأينا فريقا من الكتاب و المؤلفين من العلماء و الباحثين بل و غير المتخصصين فى الدراسات القرآنية يحرم النقاب، و فريقا آخر من أكابر العلماء وصفوتهم يحرم السفور ويوجب على المرأة ألا تكشف عن وجهها و يديها و يغمزون الفريق الأول غمزا يصل إلى الدين و الإيمان والفهم..

و لو أنصف الفريقان لعلموا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و من بعدهم من أئمة التابعين و فقهاء الإسلام رأى كل منهم رأيا

() القرطبي ١٢ / ٢٢٩

(٢) القرطبي ١٢ / ٢٢٩

فما أقصد اختلاف الرأي للود قضية ، إنما كانوا إخوة أحبابا ، و لو عدنا
لحكمة التشريع الإسلامى و جمعنا بين آيتى الأحزاب و النور لرأينا أن
الثانية جاءت مخصصة للأولى ، و لذلك رأينا قولاً لابن عباس رضى
الله عنهما فى آية الأحزاب رواه عنه على ابن أبى طلحة ، و هو أصح
الطرق عن ابن عباس و فيه يرى تغطية الوجه ، و رأينا قوله الثانى فى
آية النور ، و فيه يرى جواز كشفه .. و رأيه الثانى رواه جمهور الأئمة ،
و ما كانوا غافلين عما جاء فى آية الأحزاب و يبقى الأمر بعد ذلك أن
يكون ما جاء فى آية الأحزاب عزيمة و ما جاء فى آية النور رخصة ،
فمن أخذت بالعزيمة فغطت وجهها فهو أمر حسن و من كشفت وجهها
فلا حرج ، و بهذا نستطيع أن نجمع بين الأحاديث و الأخبار والآثار التى
تبين أن بعض المؤمنات كن منقبات و منهن أمهات المؤمنين عليهن
رضوان الله، و بعضهن كن غير منقبات..

أما من قال بجواز كشف الوجه و اليدين للمرأة العجوز و لغير
الجميلة كما قال بذلك بعض علماء المالكية يقول ابن خويزمنداد " إن
المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك ،
و إن كانت عجوزاً أو قبيحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها " فهذا قول لا
دليل عليه سوى النظر فى مقاصد الشريعة ، و من مقاصدها فى الأمر
بالحجاب منع الفتنة ، و سد الطريق إلى إثارة الشهوات ، و قصر ذلك
على ما أحل الله ، و لكن ما هى مقاييس الجمال فى المرأة الجميلة ؟

وهي تختلف من واحد لآخر ، و من من النساء تسلم بأننا عجوز لم يعد للرجال فيها مأرب ؟ و قد قيل: " لكل ساقطة في الحى لاقطة " فليبق المقياس في الجواز و المنع هو ما جاء في كتاب ربنا و سنة نبينا صلى الله عليه و سلم ، و ما جاء فيهما يشير إلى ما اتبعه هذا الدين في تربية أتباعه ، يأمرهم بالأمر فيه شدة ، ثم يخفف عنهم والعكس صحيح — كما قلنا — و يبقى الأمر الأول لأصحاب الهمم و العزائم القوية و لا حرج على من اختار الثاني ، فهذا هو ما فهمه المسلمون الأوائل فى مسألة الحجاب و لعل هذا الذى رأيته بعد طول تأمل لا يروق لسهولاء ولا لأولئك ، و مع أنى فى تفسير آيات سورة النور فى كتاب لنا عنوانه : فى ضوء القرآن عام ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤ م ملّت إلى السراى الأول و هو وجوب ستر المرأة لوجهها و كفيها ، و لكنى حين جمعت الآيات و ما جاء من أحاديث و أخبار و آراء للأئمة و نحن نتدارس لونا من التفسير هو التفسير الموضوعى تبين لى دقة فهم الصحابة و التابعين و الأئمة لآيات الحجاب ، و أن الأمر ليس فيه خلاف إنما هى العزيمة فى الأمر الأول الذى جاءت به آية سورة الأحزاب ، و الرخصة فى الأمر الثانى الذى جاءت به آية سورة النور ، فإن كنتُ قد وفقت فى هذا فمن الله ، وإن كانت الأخرى فمن نفسى و من الشيطان ، و ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب .

٤ - العلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على المودة والرحمة والتعاون، لا على الصراع والتنازع :

الإنسان الذي خلقه الله بيده ، ونخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، هو آدم - عليه السلام - وما كان لآدم - عليه السلام - أن يكون له نسل وذرية لو بقي وحيدا ؛ ولذلك خلق الله له حواء من نفسه ، من ضلعه الأيسر ؛ وأصبحت كلمة الإنسان تطلق على الرجل كما تطلق على المرأة ، فكلاهما يقال له إنسان ، وإذا ماتم الارتباط بينهما بعقد الزواج فكلاهما يقال له : زوج ، مع أن كل واحد منهما فرد ، وهذا دليل على ما بين الرجل والمرأة - منذ الخلق الأول - من تلاحم وترابط ، والآيات التي تحدثت عن ذلك كثيرة منها قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً } (١) وقوله : { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ } (٢) وقوله : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } (٣) وقوله : { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا.. } (٤) وقوله : { فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ } (٥) ، (أى يكشركم

(١) النساء ١ / ٤

(٢) الأنعام ٦ / ٩٨

(٣) الأعراف ٧ / ١٨٩

(٤) الزمر ٣٩ / ٦

(٥) الشورى ١١ / ٤٢

بسبب هذا التراوح) والآيات تساق في موضع بيان آيات الله في خلقه ، وأن هذا دليل وحدانيته وألوهيته وربوبيته ، ولذلك لا غنى للرجل عن المرأة ولا غنى للمرأة عن الرجل ، مهما امتلك كل منهما من وسائل الرفاهية والراحة. لإحساس كل منهما بأنه جزء من الآخر إحساساً فطرياً يستولى على كيانه ، ويدفعه للإلتحام بجزئه الذي يفقده ، فإذا ماتم ذلك أحس بالسكينة وراحة البال ، وانشراح الصدر ؛ وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : { وَمِنْ عَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (١). بل إن القرآن يعبر عن هذا الإمتزاج وذلك التلاحم بقوله : { هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ } (٢) فتأمل التعبير بكلمة " لباس " وما فيها من تكثير يفيد التفخيم والتعظيم ؛ فكما أن اللباس يستر صاحبه عن أعين الناس ، ويبدو به في مظهر حسن ، ويحميه من أن يصاب بمكروه ، فكذلك كل من الزوجين ، كلاهما ستر للآخر وحماية له من الوقوع في الفواحش ، وموضع سره ، وعنوان فضله ، والزواج ليس مجرد " صفقة تجارية بين شريكين في المعيشة ، ولا ضرورة لإسكات صحبات الجسد ، والاستراحة من غوايته الشيطانية ، ولا تسويق الشهوة بمسوغ الشريعة ، ولا هي علاقة عديمها خير من وجودها إذا تآتى للرجل أو للمرأة أن يستغنيا عنها " (٣) إنما هي علاقة من لسون فريد ، علاقة مؤانسة ومودة ورحمة تقوم على كلمة الله ، وتبنى على أساس من شرع

(١) الروم ٢٠ / ٢١

(٢) البقرة ٢ / ١٨٧

(٣) الفلسفة القرآنية : للعقاد ص ٦٨ ، ٦٩

الله ، وفيها إثراء للحياة بنسل صالح ، وترباط بين الناس ، نراد فيما يترتب على هذا الزواج من أصول وفروع ، فى علاقات إنسانية متينة مشدودة بحبل الله ، فينالك الآباء والأبناء والأجداد والجـدات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ... إلى غير ذلك مما يربط الناس بعضهم ببعض ، ويجعل لكل منهم حقوقا عند الآخرين ، فتقوم بذلك الوحدة الإنسانية الجامعة ، والتي كان أساسيا أن الله خلق الذكر والأنثى ، وربط بينهما بهذا الرباط المقدس ؛ رباط الزوجية فقال : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (١)

بل إن القرآن جعل العقد الذى يتم بين الرجل والمرأة بالإيجاب والقبول وحضور الولي والشاهدين ميثاقا غليظا ، لا يجوز نقضه إلا فى حالات الضرورة حين تعجز كل الوسائل عن إصلاح ما بين الزوجين ، يقول تعالى فى معرض الحديث عن المهر وأنه لا يجوز استرداده ما دام البغض من جانب الزوج : { وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَعَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنَاطَرًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْئَاتِهِمَا وَإِذَا مَبِيتُكُمْ فَأُخْرِجُوا مِنْكُمْ وَأُنكِسَ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } (٢) يقول الزمخشري : (والميثاق الغليظ : حق الصحبة والمضاجعة ، كانه قيل : وأخذ الله به منكم ميثاقا غليظا ، أى بإقضاء بعضكم إلى بعض ، ووصفه بالغلظ ، لقوته وعظمه ، فقد قالوا : صحبة

(١) الحجرات ٤٩ / ١٣

(٢) النساء ٤ / ٢٠ ، ٢١

عشرين يوماً قرابة ، فكيف بما يجرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج ؟؟ { (١)

إننا علاقة المودة والرحمة والتعاون التى تجمع بين الرجل والمرأة، لا علاقة الصراع والتنازع ، تلك التى عرفتيا أمم لاتدين بالإسلام، فقامت فيها النساء يطالبين بالمساواة وبحقين فى حياة كريمة ، فما وصلت المرأة فى هذه الأمم إلا أن أصبحت سلعة رخيصة تعرض مفاتها فى كل مكان ، وتزاحم الرجال بحثاً عن توفير متطلبات حياتها ، لكن دين الرحمة جعلها موضع عنايته ورعايته ووفر لها الحماية والنصرة والكرامة ، وجعلها على قدم المساواة مع الرجال فيما يمكن أن تكون فيه المساواة ، وجعل صلتها بزوجها قائمة على التراحم وإعطاء كل ذى حق حقه ، ولم يجعل هذه الصلة صلة أيام تنقضى وأعوام تمر ، تنتهى بانتهاء أيام الدنيا لكل منهما ، إنما جعلها صلة الأبد والخلود، فهناك بعد الانتقال من هذه الدار ، جنة ونار ، والمؤمنون يتمتعون فى الجنة ومعهم زوجاتهم من الحور العين ، أما الكافرون فإنهم يعذبون فى النار ومعهم زوجاتهم الكافرات ، يقول تعالى - فى أهل الإيمان -
﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مِثْلَهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢)
أزواج من الحور العين ، ومن أزواجهم فى الدنيا ومعنى مطهرة ، كما يقول مجاهد (تلميذ ابن عباس - رضى الله عنهما) : لا يبلى ولا

(١) انظر : تفسير القرطبي ٢٠٧ / ١

(٢) البقرة ٢٥ / ٢

يتخوطن ولا يلدن ولا يحضن ، ولا يمتنن ولا يبصقن^(١)

وفى تفسير الجلالين : "ولهم فيها أزواج" من الحور العيسن
وغيرها "مطهرة" من الحيض وكل قنر^(٢)

وفى هذا النعيم ، وتلك الحياة الخالدة يقول القرآن أيضا : {لَّذِينَ
اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ
مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} ^(٣)

ويقول تعالى فى الكافرين وأزواجهم: "احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ" (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْذُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ
الْجَحِيمِ^(٤) .

يقول الإمام النسفى: والمقصود بأزواجهم : أشباههم وقرناؤهم من
الشياطين ، أو نساؤهم الكافرات ^(٥) .

لكن يرجع الرأى الثانى أن الله حين عرض نعيم المؤمنين ليغيظ به
الكافرين فى نفس سياق الآيات من السورة قال : "وعندهم قاصرات
الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون"^(٦) . فحين يتوجه النداء الى
المؤمنين بأن يدخلوا الجنة مع أزواجهم المؤمنات تكون حسرة الكافرين
حين يؤمرون بأن يحشروا هم وأزواجهم فى النار ، وهى صورة متقابلة

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٠٧/ ١

(٢) تفسير الجلالين - بهلمش تفسير البيضاوى ج ١ ص ٣٦

(٣) آل عمران ٣ / ١٥

(٤) الصافات ٣٧ / ٢٢ ، ٢٣

(٥) تفسير النسفى ٤ / ١٩

(٦) الصافات ٣٧ / ٤٨ ، ٤٩

كثيراً ما نراها في سياق آيات القرآن الكريم حين يعرض صور الشواب والعقاب ^(١) . بل إن آيات القرآن لتتكرر هذا وهي تذكر لنا ما يكرم الله به الأسرة المسلمة حيث يجمعها في مستقر رحمته ليكمل السرور ، وتتم السعادة ، حين يجتمع الآباء والأبناء والزوجات والأزواج في جنات النعيم يقول تعالى : "جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" ^(٢) وهذا دعاء حملة العرش للمصلحين من عباد الله يقول تعالى : "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" ^(٣) وربما نتساءل : كيف يكون هؤلاء في مكان واحد في الجنة ، والجنة درجات ولكل درجات مما عملوا" ، ولكن الاله الكريم يمن على المقصر منهم برحمة من عنده فيرفعه الى الدرجة الأعلى ، قال تعالى :

"مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْقُوفَةٍ وَزَوَّجَاهُمْ يَخُورُونَ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ" ^(٤) .

(١) منبج القرآن في تربية المجتمع للمؤلف ص ٢٠٩

(٢) الزمر ١٣ / ٢٣ ، ٢٤

(٣) شافعي ٤٠ / ٧ - ٩

(٤) الطوير ٥٢ / ٢٠ ، ٢١

عن ابن عباس يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال : إنهم لم يدركوا ما أدركت ، فيقول : "يارب إني عملت لى ولهم ، فيؤمر بالحاقيم" ^(١) وما أعظمها من صلات ربطت بين أفراد الأسرة المؤمنة فى الدنيا والآخرة بما أجلاها من علاقة ودودة رحيمة قامت على نورها وهديها رابطة قوية متينة لاتستطيع عواصف الزمان أن تزلزل بناءها لأنها قامت على إيمان وثيق الصلة بالله ، ومثل هذا الإيمان وما ترتب عليه لا يحتاج الى قوة السلطان ليعطى ثماره ، وليبلغ مداه . .

هذا هو الشق الأول فى العلاقة بين المرأة والرجل وهو الأساس الذى أقيمت عليه هذه العلاقة ، وبه حمى الإسلام مبادئه وتشريعاته من الحلى ، وضمن لها دقة التنفيذ ، وربطها بمبدأ القوة التى تهيمن على القلوب ، وتحاسب على خلجات النفوس كما سنرى فى الشق الثانى من هذه العلاقة وهو ما شرعه الإسلام فى تحديد أبعادها فى وضوح تام ، عرف كل طرف ما له وما عليه دون ظلم لواحد على حساب الآخر ، ففى كل ما شرع نراه يقول : إن الله بما تعملون بصير ، إن الله بما تعملون خبير ، واعلموا ان الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، ان الله بكل شىء عليم ، ان الله سميع بصير ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً . ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ، إلى كثير من مثل هذه التعبيرات الموحية فى الحديث عن الحقوق الزوجية مما زادها قوة ومتانة ضمننت للأسرة المسلمة البقاء

(١) فتوحات الإلهية للعلامة الجمل ٢١٦ / ٤

إلى يوم الناس هذا مما جعل أعداء الإسلام ينظرون إلينا نظرة حسد
 وحقد ، فأجمعوا أمرهم على هدمها "يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ
 بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي
 أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُشْرِكُونَ (١)

فماذا عن هذه الحقوق التي جعلت العلاقة بين الرجل والمرأة في
 الإسلام تقوم على المودة والرحمة لا على الصراع والتنازع ، كما هو
 الشأن في أمم لم تسعد بالانضواء تحت لواء دين الرحمة والمحبة والأمن
 والسلام ؟؟

إن أول خطوة على الطريق تبدأ بالخطبة :

ومعناها اختيار الرجل لامرأة لتكون له زوجاً وشروطها ألا تكون
 الفتاة أو المرأة مخطوبة لرجل آخر : "لا يخطب أحدكم على خطبة
 أخيه (٢) ، فهذا ما يقطع علاقة الود والمحبة بين الناس ، وألا تكون
 معتدة عدة رجعية فقد يراجعها زوجها ، ولا في عدة وفاة حفاظاً على
 حق الأخرى ، إلا أن يكون ذلك تلميحاً لا تصريحاً قال تعالى : "ولا جناح
 عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم ، علم الله
 أنكم ستذكروهن ولكن لا تواعدوهن سرّاً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ،
 ولما تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله وأعلموا أن الله يعلم ما
 في أنفسكم فاحذروه وأعلموا أن الله غفور حكيم" (٣) .

(١) التوبة ٩ / ٣٢ ، ٣٣

(٢) رواه البخاري وأحمد والنسائي

(٣) البقرة ٢٣٥/٢

فإذا ما اتضح أنه ليس هناك مانع من الخطبة بدأ كل من الخطيب والمخطوبة ووليها في البحث عن مدى صلاحية كل منهما للآخر لئلا يكون له زوجاً .

وأهم ما يجب البحث عنه هو الخلق والدين ، فإذا هو الشرط الذي لا تفريط فيه فاطفر بذات الدين تربت يداك" (١) .

"إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض" (٢) والإسلام يحث على أن ينظر كل من الخطيب والمخطوبة لصاحبه : (انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما) (٣) دون إفراط ولا تفريط : فبعض من لا فقه لهم يمنعون نظـر الخطيب إلى من يريد خطبتها فلا يراها إلا حين يدخل بها وهناك قد يكتشف أحدهما في صاحبه ما ينفر منه ولكن بعد فوات الأوان ، وبعض الجاهلين بدينهم يبيحون لبناتهم الخلوة وأحاديث البوى لتستطيع الفتاة أن تختار عن معرفة بمن تريد أن ترتبط به برباط الزواج ، وقد لا تتم الخطبة ، والبعض لا يتورع عن ذلك إذا تمت الخطبة فترى الخطيب يخلو بمخطوبته ، ويخرج بها ، ويسافر هنا وهناك ، وقد لا يتم الزواج لأمر ما ، فيكون الندم والتعاسة والضيق ولات ساعة مندم ، فقد حدث ما لا تحمد عقباه ، وبعض أولياء أمور الفتيات يسارعون بعقد الزواج ، خروجاً من هذا الحرج ، وهذا أمر جيد لو تم الدخول بعد العقد بوقت

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) أخرجه الترمذى

(٣) رواه الترمذى والنسائى

قصير ، ولكن الدخول قد يتأخر لزمن بعيد لما اعتري المجتمعات الإسلامية من ظروف اقتصادية، وقد تَجَدَّ مشكلات تؤدي إلى الانفصال ، فماذا تصنع الفتاة وماذا يصنع أهلها ؟ والرجل الذي ارتضوه لابنتهم ينكر أنه دخل بها ، حتى لا يتحمل ما يلزم الزواج من حقوق ، وقد تكون حملت منه ، وهو ينكر هذا ، والعرف قد جرى أن الرجل لا يدخل بمن عقد عليها إلا في جو من الفرح والبهجة والسرور وإقامة وليمة تعترف بوليمة العرس يحضرها الأهل والأحباب ، فإن حدث لقاء بين الزوجين قبل هذا الإعلان فهذا أمر مستيجن ، لما فيه من ضرر بالغ إذ كيف يكون الحال وقد انتقلت المرأة إلى بيت زوجها وهي حامل فوضعت مولودها بعد شهور قلائل ؟ وما هو أشد أن يحدث خلاف فيتم الطلاق وينكر الزوج أنه قد دخل بها ؟ لذلك كثيراً ما أنصح أولياء أمور الفتيات بأن يؤخروا عقد الزواج إلى ما قبل الزفاف بوقت قصير ، حتى لا يكون هذا العقد باباً للوقوع في الكثير من المشاكل ، فقد أصبحت بهذا العقد حلالاً له ، وقد لا يصبران إلى أن يعلن دخولهما فيحدث ما لا نحبه وما لا نرتضيه .

وعقد الزواج الذي جعله دين الله وسيلة لارتباط رجل بامرأة هو كلمة الله التي جعلت كلا من الرجل والمرأة حلالاً للآخر يرى منه مالا يجوز أن يراه أب أو أم أو أخ "أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله"^(١) وهذا العقد يتم بإيجاب وقبول وحضور ولي أمر الفتاة

(١) من خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع كما ذكرها ابن هاشم في السيرة

وشاهدين عدلين بعد موافقة الفتاة على هذا الزواج موافقة صريحة عن طريق سكوتها إن كانت بكرا فمنعها الحياء من الحديث ، ولكن لابد من أن يكون السكوت دليل الرضا ، فإذا كان دليل الرفض فلا تجبر على ما لا تريد وإن كانت ثيباً أبدت رأياً في وضوح فهذا عقد سيبقى مدى الحياة ، وإذا كنا في صفقة تجارية يتون ما فيها من ربح أو خسارة لا نستطيع أن نجبر أحد الطرفين على القبول وإلا كان العقد باطلاً ، فما بالنا وهذه صفقة العمر ، وشركة الحياة ؟؟

نعم إنها صفقة العمر ولهذا لا يجوز أن يكون عقد الزواج مؤقتاً ، ولا أن يحمل شرطاً فاسداً وإلا فهو باطل ، وما دام قد استكمل شروطه وتم إيقاعه فقد وجب به على كل من الزوجين للآخر حقوق يجب مراعاتها ، جماعها قول الله تعالى "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف" (١) .

و أول هذه الحقوق على الزوج : المهر : وقد سماه الله صداقاً لأنه
ليس ثمناً للمرأة ، إنما هو دليل على الرغبة الصادقة في الزواج ، ودليل تكريم لها ، ولذلك رغب الإسلام في عدم المغالاة فيه حتى لا يكون عقبة في طريق الناس ليحيوا حياة العفة والطهر بزواج سعيد لا مشقة فيه ، وكم من مشكلات اجتماعية في عالمنا الإسلامي جرنا إليها مغالاة الكثير منا في المهور ، ومع أن المهر حق واجب على الزوج إلا أن الله سماه (نحلة) أى عطية وهبة وهدية فقال : "وآتوا النساء صدقاتهن نحلة" وجعل من حق المرأة أن تتنازل عن جزء منه لزوجها فقال : "فإن طبن لكم عن

شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا" (١) وما دام حقاً لها فيو حين تطالب به ومن حقها ألا تنتقل الى بيت الزوج حتى يؤدي لها ما تم الإتفاق عليه في مقدم الصداق ، والمؤخر منه يبقى في ذمة الزوج تستوفيه في أقرب الأجلين : الطلاق أو موت الزوج فإن طلقها قبل الدخول والنخوة الصحيحة وجب لها نصف المهر إن كان قد سمي مهراً وإلا وجبت لها متعة بقدر وسع الزوج وبساره أو عدم يساره ، قال تعالى : "لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الوسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقاً على المحسنين ، وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقد النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير" (٢) فإذا ما ساق لها مهرها وعقد عليها ودخل بها وجبت عليه النفقة لها من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن وما الى ذلك مما يبسر للناس حياة كريمة بقدر طاقة الزوج قال الله تعالى : "لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلّاه ما آتاهها سيجعل الله بعد عسر يسراً" (٣) كما يجب عليه أن يعدل في النفقة والمبيت إن كانت له زوجة أو زوجات غيرها قال تعالى : "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فاتكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى

(١) النساء ٤/٤

(٢) البقرة ٢/٢٣٦/٢٣٧

(٣) الطلاق ٧/٦٥

أَلَا تَعْلَمُونَ^(١) وَلَا يَكْلَفُ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَدْلِ فِي الْمَيْلِ الْقَلْبِيِّ
 لِوَاحِدَةٍ مِنْنِ قَالَ تَعَالَى : "وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ
 حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعْلَقَةِ وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ
 اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا"^(٢) وَبِذَا نَزَدَ عَلَى مَنْ فِهِم أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَجِيزُ
 التَّعَدُّدَ لِأَنَّهُ اشْتَرَطَ لِذَلِكَ الْعَدْلَ وَلَكِنَّهُ قَالَ "وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ
 النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ" فَنَقُولُ لَهُمْ هَذَا فِي الْمَيْلِ الْقَلْبِيِّ ، وَالْمُطَالِبُ بِهِ الرَّجُلُ
 هُوَ الْعَدْلُ فِي الْمَبِيتِ وَالنَّفَقَةِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فِي مَقْدُورِ كُلِّ إِنْسَانٍ .

فَإِذَا مَا أَدَّى مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَجِبَتْ عَلَيْهَا طَاعَتُهُ فَسَى غَيْرُ
 مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلَا تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلَا تَسَافِرُ دُونَ رِضَاهِ وَلَا
 تَتَصَرَّفُ فِي مَالِهِ إِلَّا بِمُوافَقَةِ مَنْهُ وَلَا تَدْخُلُ فِي بَيْتِهِ مَنْ لَا يَرْغَبُ فِيهِ وَلَا
 يَعْنِي هَذَا تَسْلُطًا وَتَجْبِرًا وَإِذْلَالًا لِلْمَرْأَةِ ، وَإِنْقَاصًا مِنْ كِرَامَتِهَا وَمَنْزِلَتِهَا
 وَمَكَانَتِهَا ، إِنَّمَا هَذَا نَابِعٌ مِنْ فِلْسَفَةِ الْإِسْلَامِ فِي الْقِيَادَةِ : (إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ
 فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ)^(٣) وَرَبَّمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ فِي سَفَرٍ لِأَيَّامٍ
 مَعْدُودَاتٍ لَكِنْ أَمْرُهُمْ لَا يَنْتَظِمُ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَمِيرٌ يَأْتُمِرُونَ بِأَمْرِهِ ،
 فَمَا بَالُنَا وَهَذِهِ رَفَقَةُ الْحَيَاةِ بِكُلِّ مَا فِيهَا ، وَلَكِنْ تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَتَوَلَّى
 أَمْرَهَا ، فَلَمَنْ تَكُونُ الْإِمَارَةُ فِي مَمْلَكَةِ الْبَيْتِ ؟

لَعَلَّ النَّظَرَ الصَّحِيحَ يَقُولُ : الرَّجُلُ هُوَ الْأَجْدَرُ وَالْأَحَقُّ بِذَلِكَ قَالَ
 تَعَالَى : "الرَّجُلُ أَلْقَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

(١) النِّسَاءُ ٣/٤

(٢) النِّسَاءُ ١٢٩/٤

(٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ / فِي الْجِهَادِ / بَابُ فِي الْقَوْمِ يَسَافِرُونَ يُؤَمِّرُونَ أَحَدَهُمْ

وبما أنفقوا من أموالهم. (١) والتعبير القرآنى (بما فضل الله بعضهم على بعض) ليس فيه أن الرجال أفضل من النساء وإنما يشير الى أن الرجل أفضل من المرأة فى جوانب وهى أفضل منه فى جوانب أخرى ، فليس فى قدرتها — إلا بمشقة شديدة — أن تقوم بما يقوم به الرجال من أعمال تحتاج الى جهد ومجادة وتعب ، وليس فى قدرة الرجل أن يقوم بما تقوم به المرأة من حمل وإرضاع وسهر وجهد فى رعاية الأبناء وما إلى ذلك مما لا يتحمله الرجال ، فهذه القوامة إذا مسئولية يقوم بها الرجل — بشروطها من العدل والحكمة والمشورة والمودة ، وفى النساء بحمد الله كثرة عظمة لهن حسن الرأى وصدق المشورة مما جعل أزواجهن يأخذون برأيهن فى كل أمر ، والمسلمون لا ينسون مشورة أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها فى الحديبية حين أشارت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أشارت به فكان فى رأيها الخير للمسلمين ، وإذا كانت هذه هى حقوق كل من الزوجين على الآخر فإننا لا ننسى أن هناك حقوقا يشترك فيها الزوجان ، ومنها : حق الإستمتاع ، وثبوت النسب ، وحرمة المصاهرة ، وحسن المعاشرة ، والتوارث.

فلكل من الزوجين أن يستمتع بالآخر ، ولا يقال بأن هذا حق للزوجة فحسب وعلى زوجها أن يؤدى لها هذا الحق بل هو حق عليها لزوجها كذلك وهنا نجد كلاماً للأئمة والباحثين فى تحديد المدة التى يحق للزوجة أن تطالب فيها بهذا الحق وهل هى مازاد على أربعة أشهر ، أو فى كل طهر ، أو فى ليلة من أربع ليالى ، وأولى الأراء أن ذلك لا

ضابط له إلا الابتعاد عن قصد الضرر وتعمد الحرمان ، وعلى الزوج أن يجتهد فى إعفاف زوجته بقدر طاقته ، كما يسوقون كثيرا من الأحاديث التى توجب على الزوجة أن تستجيب لزوجها إذا ما دعاها لفراشه على أية حال كانت ، وأنها إن أبت لعنتها الملائكة حتى تصبح ما دام ليس لديها مانع شرعى من حيض أو نفاس أو صيام فرض أو ما الى ذلك ، وسواء كانت مشغولة بعمل أم لا ، فى ليل أو نهار ، ولكن فقه التوجيهات النبوية والآيات القرآنية فى هذا الأمر ، وأن الزواج سكن ومودة ورحمة ، وعلاقة أبدية ، فى الدنيا والآخرة ترشدنا الى ما يجب على الزوج إذا ما رغب فى ذلك من التلطف والمداعبة حتى لا يكون لقاء الرجل بامرأته وكأنه حالة اغتصاب وقهر ، وقد قال بذلك أعداء الإسلام فى مؤتمراتهم ، وطالبوا بالتححرر من قيد الزواج لتكون العلاقة بين الذكر والأنثى بعيدة عن فراش الزوجية ومن هنا كان البحث فى هذه المؤتمرات عن حكم الإجهاض لو حملت المرأة من هذه العلاقة الفاسدة التى لا يترتب عليها أى حق لطرف منهما على الآخر ، وتؤدى إلى خراب الدنيا وفساد أجيالها وهدم بيوتها ، أما فى الإسلام فيستطيع كل من الزوجين أن يصل إلى ما يريد من صاحبه بالوسائل التى رسمها ديننا العظيم ، ليكون لقاء الزوجين متعة وسعادة وأنسا وودا وحبا ، تتوثق به القلوب ، وتنمو العواطف ، وتحل به المشكلات وينشأ فى ظلها الأبناء ، ويبقى حنين كل منهما للآخر مشبوبا ، لا يؤدى كل منهما لصاحبه ما يؤديه على أنه حق شرعى يريد أن يتخلص منه ، فيسلم جسده للآخر لقضاء وطره ، وإنما هناك تعانق الأرواح ، وتلاقى القلوب ، ولحظات الرضا التى تذوب فيها الهموم وتنشفى بها الجروح ، وتستقيم بها الحياة ، ويشرق دين الإسلام

بمنهجه الربانى على دنيا الناس ليقول لهم بأن هذا المنيج هو واحتيم التى يلتقطون فيها الأنفاس ، وإلا لفحهم هجير صحراء مجدية يئدى بهم الى الملاك .

الحق الثانى : هو ثبوت النسب :

فإذا حملت الزوجة ووضع حملها نسب هذا المولود لأبيه ، فيقال هذا ولد فلان كما يقال بأن هذه أمه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الولد للفراش ، وللعاهر الحجر"^(١) ومعناه أن النسب إنما يثبت بعقد النكاح ، لا بمجرد اتصال رجل بامرأة فولد الزنا لا نسب له ، والزانى والزانية إن كانا محصنين لهما الحجر أى الرجم بالحجارة ، والمسلمون يحفظون المولود من الزنا ، ويقومون بتربيته ، ولا يحاسب نفسيا ولا اجتماعيا ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة عما كان قد حدث فى الحرام فأدى إلى وجوده فى هذه الدنيا ، ومن عيره بذلك فهو قاذف يقام عليه حد القذف .

ومن أراد نفى نسب مولود له فعليه أن يلاعن من زوجته وأن ينفى فى لعانه نسبة المولود إليه قال تعالى : "والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين"^(٦) والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين^(٧) ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين^(٨) والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين"^(٩) .

(١) بدائع الصنائع ٣٣١/٢

(٢) النور ٩-٦/٢٤

وإذا كان الرجل قد استطاع أن ينفي نسب مولود عنه بالملاعنة ، فإن الزوجة قد تدعى أن المولود ليس ابنها الذي ولدته ، وعليها إثبات ذلك فإن فعلت لا يقال بأن هذا ابنها وأن هذه أمه ، ومن حق كل مولود أن يكون له أب وأم فمن جاء بمولود من حرام ومن نفى عن نفسه نسب ولد له وهو يعلم أنه كاذب ، ومن فعلت ذلك عدوانا وظلما ، كل هؤلاء حقت عليهم لعنة الله وغضبه ومقته ، لما يترتب على هذا من فساد كبير وبلاء عظيم .

الحق الثالث : حرمة المصاهرة :

وهذه الحرمة تترتب على عقد الزواج أو على الدخول بعقد الزواج ، ومثال الأول: حرمة أم الزوجة بمجرد العقد على الزوجة ، ومثال الثاني حرمة بنت الزوجة بالدخول بالزوجة فالقاعدة : أن العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات كما قال تعالى في تحريم من حرم الزواج بهن : "وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن كنتم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم" (١) ومن ذلك تحريم الزواج من زوجة الإبن ، وتحريم الجمع بين المرأة وأختها" كما ذكر الله عز وجل فقال "وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف" وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمع بين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها .

(١) النساء ٢٣/٤

الحق الرابع : حسن المعاشرة :

ماهى المعاشرة ؟ يقول ابن منظور : العشير : المعاشر ، وعشير المرأة : "زوجها لأنه يعاشرها وتعاشره ، كالصديق والمصدق . . ." (١) ويقول ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة : العين والشين والراء أصلان صحيحان ، أحدهما فى عدد معلوم ثم يحمل عليه غيره ، والآخر يدل على مداخله ومخالطة " (٢) فما بين الزوجين إذا من هذا القبيل : مداخله ومخالطة يعبر عنها القرآن فيقول : "من لباس لكم وأنتم لباس لهن" فماذا فى القرآن من التوجيهات لتكون هذه المداخله وتلك المخالطة على أحسن وجوههما ، فيها صدق المودة ، وإخلاص السريرة ، وحسن المعاملة ، وهل هذا حق للنساء على الرجال أو هو حق للرجال على النساء ؟ لم يرد فى القرآن الأمر بالمعاشرة الحسنة إلا فى موضوع واحد يأمر الله فيه الأزواج بأن يحسنوا الى نساتهم إحسانا يجعلهم يتحملون ما بدا لهم من أسباب الكراهة لهن إذ يقول تعالى : "وعاشرهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا" (٣) .

كما نرى فى القرآن توجيهات لهذه المعاشرة بالمعروف وبخاصة إذا نشب الخلاف بين الزوجين، والزواج بيده العصمة ، وقد يسىء إستعمال هذا الحق ، وليس هذا من المعاشرة بالمعروف ، فنقرأ قول الله تعالى : "الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان" وقوله :

(١) لسان العرب لابن منظور ٢٩٥٥/٤

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٢٤/٤

(٣) النساء ١٩/٤

"وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ
 بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ
 نَفْسَهُ" (١) وقريب من هذا قوله فى سورة الطلاق : "فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
 فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ" (٢) ولكن قول الله تعالى :
 "وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (٣) بين لنا أن حق المعاشرة
 بالمعروف كما هو حق للمرأة على زوجها هو حق لزوجها عليها ، إذ
 بذلك تنوم المحبة ، وتنظم حياة الزوجين ، وفى السنة ما يبين ذلك ،
 فنرى جملة من الأحاديث توصى الأزواج بزواجهم خيرا ، وتلفت
 أنظارهم الى ما فى طبيعة المرأة من عوج ، وأن على الأزواج أن
 يقدروا هذا : "لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضيت منها
 آخر" (٤) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : استوصوا بالنساء ، فإن
 المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه
 كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء (٥) وفى خطبة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع قال : ألا واستوصوا
 بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان . . (٦) (أى أسيرات) فهى شبيهة
 بالأسيرة إذ لا وسيلة للخروج من رباط الزوجية إلا بأن يطلقها زوجها أو

(١) البقرة ٢٢٩/٢

(٢) الطلاق ٢/٦٥

(٣) البقرة ٢٢٨/٢

(٤) رواه مسلم

(٥) رواه الشيخان

(٦) رواه ابن ماجه والترمذى وقال : حديث صحيح

تفتدى نفسها منه بما أعطاها .

كما نرى الكثير من الأحاديث التي توصي الزوجة بحسن تبعل زوجها والقيام بحقوقه فهو كما ذكرت الأحاديث: جنتها ونارها ، وسبيلها لمرضاة ربها ، وهو أعظم الناس حقاً عليها . والأحاديث في ذلك كثيرة ومشهورة ، وهذا الحق المشترك بين الزوج وزوجته هو ما قال به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من العلماء . . يقول ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى : "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف" ، "لهن من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف على أزواجهن مثل الذي عليهن من الطاعة فيما أوجبه الشرع عليهن لأزواجهن" (١) ويقول : إني أحب أن أتزين لامراتي كما أحب أن تتزين لى ، لأن الله تعالى يقول : "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف" ويشرح صاحب المنار هذا الحق المتبادل فيقول : هذه الآية الكريمة : "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف" تعطى للرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجته في جميع الشئون والأحوال ، فإذا هم بمطالبتها بأمر من الأمور تذكّر أنه يجب عليه مثله بإزائه ، وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة ، وأنهما أكفاء ، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها ، إن لم يكن مثله في شخصه فهو مثله في جنسه ، فهما متماثلان في الحقوق والأعمال كما أنهما متماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل (٢) .

(١) تفسير القرطبي ١٢٣/٣ ، ١٢٤

(٢) تفسير المنار ٣٧٥/٢

وقال الإمام علاء الدين الكاساني : المعاشرة بالمعروف هي :
 المعاشرة المرضية وهي التي يرضى بها الشخص لنفسه ، بمعنى أن من
 وجبت عليه هذه المعاشرة أن يؤديها الى من وجبت له على نحو
 يرتضيها هو لنفسه لو فعلت له ، فيدخل في ذلك المعاشرة الجميلة من
 المرأة مع زوجها بالإحسان باللسان واللفظ بالكلام والقول المعروف ،
 الذي يطيب به نفس الزوج . . (١) .

الحق الخامس : التوارث :

فكل من الزوجين يرث صاحبه وفق قاعدة الإسلام في الميراث
 والتي تقوم على أن الغرم بالغنم ، وما دام الإسلام قد حمّل الرجال
 مسؤولية الإنفاق فإنه بعدله أعطاهم في الميراث غالباً ضعف ما أعطى
 للنساء ، يقول تعالى : "وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ
 فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ
 دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ
 الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ" (٢) .

ومع هذه الحقوق الواضحة والتي لو أدت كما أمر الله لعاش
 الزوجان حياة ملؤها السعادة والرضا ، إلا أن الأرواح جنود مجندة فما
 تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، فماذا أرسى الإسلام من
 قواعد إذا حدث هناك تنافر وتناكر بين الزوجين ؟ هل بعقد الزواج دخل

(١) "البدائع" للكاساني ٢/٢٣٤

(٢) النساء ١٢/٤

كل منهما فى سجن لآخر من أبدأ ، وهل فى الإمكان أن تنتظم الحياة فى ظل هذا الزواج ؟ الواقع يقول بأن هذا مستحيل وقد أدى فى البلاد التى فعلت ذلك إلى أن بقى هذا الزواج شكلاً لا موضوعاً ، وانطلق كل من الزوجين يبحث عن سعادته وراحته بل وقضاء وطره بعيداً عن هذا السجن الرهيب ، وكم فى هذه الحياة على هذا النحو من عذاب وبلاء وقلق وضياح وهدم لبناء الأسرة مما أدى الى تشرد الأبناء ، وكثرة اللقطاء ، وشيوع ألوان من الفساد لا تحيط بها العبارات.

ولكن الإسلام العظيم مع تقديسه للرابطة الزوجية وحمايته لها وضع فى خطته حسابات دقيقة لما يعترى هذه الرابطة من وهن وضعف ، وما للعوامل النفسية والاجتماعية والتربوية وغيرها من آثار قد تجعل كلاً من الزوجين لا يستريح للآخر ، بل قد يصل الأمر الى أن كلاً منهما لم يعد يطبق النظر للآخر ، ولا بد من الفراق ؟

فماذا فعل الإسلام لحل هذه المعضلات ؟

إذا جمعنا آيات القرآن الكريم فى هذا وما جاء فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظرنا فيما فيها من علاج شاف وكاف لاحتاج الأمر بنا الى مؤلف خاص ، لكننا على وجه الإجمال نلخص هذا العلاج فى الآتى :

(١) لابد أن يعلم كل من الزوجين أن الكمال لله وحده وأن الإنسان فيه نقص وضعف كما أن فيه جوانب كثيرة مضيئة خيرة فليقدر كل منهما هذه الجوانب ولينظر الى الجوانب المشرقة ويتغاضى

عن الجوانب المظلمة ، وعلى الرجل فى هذا العناء الأكبر فإنه رب الأسرة والقائم على أمرها وقد منحه الله ما أهله لهذا من قدرته البدنية والتحكم فى عواطفه وانفعالاته ، بخلاف المرأة التى أعطاها الله رقة فى بدنها ، ورقة فى عواطفها لتكون نسمة هواء عليل فى بيتها فيسعد بها زوجها وأبنائها ، وعلى هذا جاء قول الله تعالى موجياً الخطاب للرجل : "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُنَّ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا" (١) ، وقد عينا أن المعاشرة بالمعروف حق مشترك كما يجب على الزوج لزوجته يجب على الزوجة لزوجها ، وعليها أن تدرك أن ما تكرهه من زوجها قد يكون بصبرها عليه من أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة ، بل إن الله رغبها إذا ما بخل زوجها عليها ببعض حقوقها أن تتنازل عن هذه الحقوق استبقاء للعلاقة بينهما ، فقد ترى الزوجة أن بقاءها مع زوجها أفضل لها من فراقه ، وإن تنازلت عن بعض حقوقها ، حرصاً منها على أبناء صغار فى حاجة إليها ، وعلاقات اجتماعية تخشى أن تنالها السنة السوء وما إلى ذلك من اعتبارات ، وهذا ما نقرؤه فى قول الله تعالى : "وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً" (٢) ومثل هذا التوجيه القرآني نجد فى السنة المشرفة فعن أبى هريرة رضى الله

(١) النساء ١٩/٤

(٢) النساء ١٢٨/٤

عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يفرك مؤمن مؤمنة
إن كره منها خلقا رضى منها آخر (١) .

(٢) المرحلة الثانية من مراحل العلاج هي الوعظ بكلمات
تصل إلى القلب فيها المصارحة والبحث الدقيق عن سر الخلاف ،
والتذكير بحق الله وحق كل منهما على صاحبه ، وما هناك من ابتداء
وأهل وما يترتب على الفراق من ضياع وشتات .

(٣) إن لم ينجح الوعظ فليكن النجر في المضاجع وهو عقوبة
نفسية تتأدب بها المرأة ، وليست عقوبة جسدية تحرمها من لذة الجسد
بضعة أيام أو بضعة أسابيع ، وإلا لكانت عقوبة للرجل أيضا ، وهي
درس قاس يصيب المرأة في الصميم لأن أبلغ العقوبات - كما يقول
العقاد - هي العقوبة التي تمس الإنسان في غروره ، وتشككه في
صميم كيانه ، في المزية التي يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه ،
والمرأة تعلم أنها ضعيفة الى جانب الرجل ولكنها لا تأسى لذلك
ما علمت أنها فاتتة له ، وأنها غالبية بفتنتها ، وقادرة على تعويض
ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها ، ولن يبطل العصيلان
بشيء كما يبطل بإحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من
يعصيه.. (٢) والتعبير القرآني بالهجر في المضاجع يبين أنه ليس
هجرا للمضاجع بأن يترك البيت أو الحجرة التي تنام فيها ، وإنما
يهجرها وهو معها في فراشها فلا يكلمها ولا يلتفت لها وإنما يوليها
ظهرا بما يشعرها بغضبه ، والمؤمنة الصالحة تبذل قصارى جهدها

(١) رواد مسلم - معنى لا يفرك : لا ينفص

(٢) الفلسفة القرآنية : للعقاد ص ٧٤ ، ٧٥

لإرضاء زوجها خوفا من غضب الله ومقته وهي تعلم من الأحاديث النبوية الكثيرة ما يترتب على غضب الزوج من سخط الله عليهما^(١) .

(٤) فإذا ما استحكم الخلاف ولم يجد الوعظ ولا الهجر كان الضرب الذي لا يكسر عظما ولا يقطع لحما ، ولا يؤدي وجعا علاجاً لطبيعة معوجة في بعض النساء ، وربما ثار بعض المتحذلقين من دعاة التحرر على هذه المرحلة التي شرعها الإسلام في إصلاح الأسرة ، ولو أنصفوا لعلموا أن المجتمع أعطى حق التأديب بالضرب للمؤدبين والآباء والقادة ، ومملكة البيت أعظم من ذلك وأخطر ، ثم إن الإسلام لا يلب لهذا إلا في حالة الضرورة القصوى وحين يعلم الزوج أن هذه وسيلة تؤدي إلى رد زوجته إلى طريق الصواب .

(٥) فإذا لم تفلح كل هذه الوسائل كان لابد من تدخل الأمة ممثلة في أمرائها وحكامها لإصلاح هذا الخلل ، فعليهم أن يختاروا حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة لينظرا فيما بين الزوجين من خلاف ، قال تعالى : "وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا"^(٢) . قال الشافعي : المستحب أن يبعث الحاكم عدلين ويجعلهما حكمين ، والأولى أن يكون واحد من أهله وواحد من أهلها ، لأن

(١) اقرأ في ذلك باب حق الزوج على المرأة ص ١٤١-١٤٣ رياض الصالحين للإمام النووي،
ترغب الزوج في الوفاء بحق زوجته وحسن عشرتها ، والمرأة بحق زوجها وطاعته،
وترهبها من إسقاطه ومخالفته ص ٤٨-٤٩ من الترغيب والترهيب للإمام المنزري ج ٢
وغيرهما من كتب السنة.

(٢) النساء ٣٥/٤

أقاربهما أعرف بحالهما من الأجانب وأشد طلباً للصالح ، فإن كانا أجنبيين جاز ، وفائدة الحكمين أن يخلو كل واحد منهما بصاحبه ويكتشف حقيقة الحال ، ليعرف أن رغبته فى الإقامة على النكاح أو المفارقة ، ثم يجتمع الحكمان فيفعلان ما هو الصواب من إيقاع طلاق أو خلع (١) .

(٦) وقد أشرنا فى المرحلة الأولى من مراحل العلاج إلى ما رغب فيه الإسلام من تنازل الزوجة عن بعض حقوقها استبقاء للحياة الزوجية وأن الصلح خير من الفراق ، فإن استحكمت النفرة ولم تجد كل هذه الوسائل كان الطلاق من الزوج أو الخلع من الزوجة ، ليحرب كل منهما حياة بعيدة عن صاحبه ، ربما وجد فيها راحة نفسه وهدوء باله : "وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيماً" (٢) . والطلاق بالصفة التى شرعها الإسلام علاج ناجع لأمراض المجتمعات ، ودليل واضح على أن هذا تشريع من رب العالمين الذى خلق الخلق وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير ، وبهذا نستطيع أن نقول حقاً بأن العلاقة بين الرجل والمرأة فى ظل الإسلام تقوم على المودة والرحمة والتعاون ، لا على الصراع والتنازع .

٥ - اختلاف وظيفة المرأة عن وظيفة الرجل أمر تقتضيه طبيعة

الحياة القائمة على التخصص والتكامل :

فى حديثنا عن مساواة المرأة مع الرجل فى أصل الخلقة والتكليف

(١) تفسير الفخر الرازي - المجلد الخامس - ص ٩٦

(٢) النساء ٤ / ١٣٠ .

والمسئولية ، وفى بياننا للخصوصيات التشريعية للمرأة وأنها تتناسب مع وظيفتها الاجتماعية ، ما يدل على أن اختلاف وظيفة المرأة عن وظيفة الرجل أمر تقتضيه طبيعة الحياة القائمة على التخصص والتكامل ، وتلك من حكمة الله فيما خلق من الذكر والأنثى ، وما أعطى كل واحد منهما من الخصائص البدنية والعقلية والعاطفية مما أهله للقيام بوظيفته خير قيام، فالإله الحكيم قد أعد الرجل للكدح والعمل ، بما فيه من مشقة وجهد لكسب قوته وقوت من يعول من زوجة وأبناء كما أعد المرأة لتربية الأبناء ورعايتهم وتبيئة بيت الزوجية ليكون واحة تستريح لمرآها العيون، وتهدأ فى كنفها الأعصاب المكدودة المجهدة، وهذا الذى نقول هو ما أثبتته العلم الحديث؛ ولنقرأ فى ذلك ما كتبه الكسيس كاريل ، فى كتابه " الإنسان ذلك المجهول " إذ يقول : (إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لاتأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم ، إذ إنها طبيعية أكثر من ذلك إذ إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محدودة يفرزها المبيض . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا ، وأن يمنحا قوى واحدة ، ومسئوليات متشابهة ، والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ؛ والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها ؛ وفوق كل شيء، بالنسبة لجهازها العصبى . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبى ؛ فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها ، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى ، فعلى النساء أن

ينمين أهليتين تبعا لطبيعتين من غير أن يحاولن تقايد الذكور ، فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال ، فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحدودة (١) ولعل هذا هو بعض ما يشير إليه قول الله تعالى : **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يَخْرُجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى** (٢) فأُسند إلى آدم وحده فعل الشقاء وهو التعب في طلب القوت لأنه هو المكلف بالكد والسعي وتوفير أسباب الحياة لحواء ، ومن هذه الآيات فهم الفقهاء أن نفقة الزوجة على الزوج وأنها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والسكن فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور (٣).

ومن خالف سنة الله فيما خلق ظلم نفسه ووقع في بلاء عظيم ، وخسر السعادة والأمن والاستقرار النفسى والاجتماعى ، والواقع حيز شاهد على ما نقول ، فهذه هي الأمم التي فهمت المساواة بين الرجال والنساء فهما خاطئا ، وخيل إليهم أن النساء قادرات على القيام بما يقوم به الرجال في جميع وجوه الحياة ، هذه الأمم في سبيلها تلفناء إذ توقف نسل بعض دولها ، ونقص نسل بعضها الآخر ، ومن يزيد نسلها يزيد بمعدلات بطيئة ، انتشرت فيها الأمراض الجنسية ، وأصبحت البطالة في

(١) الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كارل ص ٧٨

(٢) طه ٢٠ / ١١٦ - ١١٩ .

(٣) انظر : الجمع لأحكام القرآن : للقرطبي ٢٥٣/١١ .

صفوف الرجال مظهر، من مظاهر الحياة يبحثون لها عن علاج ، وفقدت الأسرة معناها ومغزاها ، وأصبح البيت مجرد مكان يأوى إليه الزوجان فى نياية العمل اليومى للمبيت ، وقد لا يلتقيان إلا نادرا نظرا لاختلاف أوقات العمل ، وفى وسط هذه القوضى ضاع الأبناء ، ولم يجدوا لهم أبسا يرعاهم ولا أما تمنحهم الحنان والحب ، وكم تمنى هذه المجتمعات أن تعود نساؤها إلى البيوت للقيام بأعظم وظيفة ألا وهى رعاية الرجال وتهيئة البيت ليكون محضا أمينا يتربى فيه الأبناء فى ظل أسرة يسودها الود والتراحم ، قال تعالى "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (١)

وليتم هذا ، ولتتحقق الغاية من الزواج وضع الله عن النساء كثيرا من التكاليف التى تحتاج إلى الخروج من البيت ، كما رأينا فى الخصوصيات التشريعية التى جعلها الله لها ، وجعلها راعية لبيت زوجها ومسئولة عنه ، وجعل أداؤها لمهمتها فى بيت زوجها مساويا لما يقوم به الرجال من الجهاد فى سبيل الله ، وما لهم من ثواب عظيم فى شهود الجمع والجماعات — أخرج البزار والطبرانى أن أسماء بنت يزيد الأنصارية — رضى الله عنها — أتت إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو بين أصحابه ، فقالت : يا رسول الله : إني وافدة النساء إليك ، إن الله بعثك بالحق للرجال والنساء ، فأمنأ بك ولتبعناك ، وإننا — معشر النساء — محصورات ، قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم ، وأنتم —

(١) الروم ٣٠ / ٢١ .

معشر الرجال - فضلتكم علينا بالجمع والجماعات، وعبادة
المرضى، وشهود الجنائز، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله تعالى، وبين
انرجل إذا خرج حاجا أو مرابطا أو معتمرا حفظنا لكم أموالكم وغزنا
لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفلا تشاركونكم في هذا الخير والأجر يا
رسول الله؟؟ فالتفت - صلى الله عليه وسلم - بوجهه الكريم إلى
أصحابه ثم قال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن من هذه عن أمر دينها ؟
فقالوا : يا رسول الله ما ظننا امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي -
صلى الله عليه وسلم - إليها ثم قال : انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من
خافك من النساء ؛ أن إطاعة الزوج - اعترافا بحقه - يعدل ذلك ،
وقليل منكن من يفعله ، فانصرفت وهي تهلل حتى دخلت على نساء
قومها من العرب وعرضت عليهن ما قاله رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - ففرحن وآمن جميعهن)

وقد أثبت الواقع صدق ما جاء به كتاب الله وهدى رسوله - صلى
الله عليه وسلم - والمسلم ليس في حاجة إلى أن يخوض التجارب برأيه
وفكره واجتهاده ليصل في النهاية إلى أن ما جاء به دينه هو الحق ، فهو
من البداية مؤمن بأن السعادة كل السعادة ، والخير كل الخير فيما بين
يديه من شرع ربه ، وأن هذا الدين من عند الله الذي خلق الخلق ، وهو
أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير ..

ولنتأمل ما وصلت إليه أُمم الأرض من الذيـس لا يدينون بدين
الإسلام، ومن سار في ركابهم من المنتسبين للإسلام حين أغفل هؤلاء
جميعا تلك الفوارق الجسدية والعقلية والنفسية بين الذكر والأنثى، فساووا

بينهما فى الأعمال ، فاضطربت مسيرة الحياة ، وإذا كانوا قد جعلوا المرأة تقوم بما يقوم به الرجال من الأعمال الشاقة ؛ مخالفين بذلك ما خلق الله المرأة عليه من رقة وضعف بدنى ، فإنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا الرجال يقومون بما تقوم به النساء من حمل وولادة ورضاع وتربية أبناء ، ورعاية بيت ..

وقد نقل العلامة الدكتور / مصطفى السباعى فى كتابه : " المرأة بين الفقه والقانون " كثيرا من أقوال وتقارير الباحثين فى قضية المساواة وعمل المرأة ، وأثبت من أقوالهم وتقاريرهم مدى ما أصاب المجتمعات من تمزق وضياح وما آل إليه مصير المرأة ، وأنها تتمنى أن تعود لبيتها وتسعد برعاية زوجها وأبنائها ، وأن المرأة الغربية والأمريكية تود أن تحيا كالمرأة فى بلاد الإسلام .

فلنقتطف — على وجه الاختصار — من بعض ما ذكره ما يوضح هذه الحقائق يقول :

قال العلامة الإنجليزى " سامويل سميلس " — وهو من أركان النهضة الإنجليزية : " إن النظام الذى يقضى بتشغيل المرأة فى المعامل مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية ، لأنه هاجم هيكل المنزل ، وقوض أركان الأسرة ومزق الروابط الاجتماعية ، فإنه بسلبه الزوجة من زوجها والأولاد من أقاربهم ، صار — بنوع خاص — لا نتيجة له إلا تسفيل أخلاق المرأة ، إذ وظيفة المرأة الحقيقية هى القيام بالواجبات المنزلية مثل ترتيب مسكنها ، وتربية

أولادها ، والاقتصاد فى وسائل معيشتها ؛ مع القيام بالاحتياجات البيتية ، ولكن المعامل تسلخها من كل هذه الواجبات بحيث أصبحت المنازل غير منازل ، وأضحت الأولاد تشب على عدم التربية ، وتلقى فى زوايا الإهمال، وطفئت المحبة الزوجية ، وخرجت المرأة عن كونها الزوجة الطريفة والقرينة المحبة للرجل ، وصارت زميلته فى العمل والمشاق ، وباتت معرضة للتأثيرات التى تمحو غالبا التواضع الفكرى والأخلاقى الذى عليه مدار حفظ الفضيلة "

وينقل من مقال للأستاذ على أمين ما تنادى به الخبرة الأمريكية الدكتورة " ايدا ايلين " من ضرورة عودة الأمهات إلى البيت حتى تعود للأخلاق حرمتها، وللأبناء الرعاية التى حرمتهم منها رغبة الأم فى أن ترفع مستواهم الاقتصادى ، ونقل ما نشرته جريدة الأهرام تحت عنوان " مع المرأة . " ومما جاء فى ذلك ما دار من مناقشات بين أعضاء الكونجرس الأمريكى فى موضوع منع المرأة التى لديها أطفال من الاشتغال مهما كلفها ذلك : قال عضو منهم فى تبريره للمنع : إن اشتغال الأمهات يسبب مشكلات اجتماعية واقتصادية لا حصر لها ؛ وقال آخر : إن الله عندما منح المرأة ميزة إنجاب الأولاد لم يطلب منها أن تتركهم لتعمل فى الخارج ، بل جعل مهمتها البقاء فى المنزل لرعاية هؤلاء الأطفال ، وقال ثالث : إن المرأة تستطيع أن تخدم الدولة ؛ حقا إذا بقيت فى البيت الذى هو كيان الأسرة ، وقال رابع : إنه لمن الواجب اتخاذ

قرار سريع بمنع المرأة التي لديها أطفال دون الثامنة من العمل ، وقال
خامس : إن الأم كالفيتامين ؛ إذا حرم الأولاد منها مرضوا وماتوا ،
واتفقوا في النهاية - على السماح للمرأة بالتعليم حتى تفيد أولادها
مستقبلا ، أما العمل فـ لا .

وينقل الدكتور / مصطفى الصياغى مقالا منشورا في مجلة
حضارة الإسلام " المجلد الثاني ص ٤٥٥ عنوانه : " عمل الأمهات "
للدكتور / هتمسى كبر خهوف " ترجمه الأستاذ / توفيق الطيب ، ومما
جاء في آخره " إن ترديد دخول المرأة في مجال عمل الرجل دفع
الأخصائيين الاجتماعيين وأطباء العمال - في وقت مبكر - إلى عقد
مقارنة بين الطاقة على العمل والقدرة له بين كلا الطرفين ، ففي البداية
قيل : أن عمل النساء أقل قيمة من عمل الرجال ، فإن المرأة لا تملك
غير ٢٠ - ٣٠ % من القدرة العضلية للرجل . فالفروق الفسيولوجية
والتشريحية بين الرجل والمرأة تتطلب الانتباه عند تقسيم العمل وتجهيز
مكانه حتى فيما يتعلق بوضع الآلة .

إن الشكل العام للمرأة والذي يتميز بزيادة وزن النصف العلوى
منها والشكل الواسع والعميق للفراغ البطني في الأنثى ، وشكل الحوض
الذى جهز بشكل خاص من أجل الحمل ، وما ينتج عن ذلك من تغير
نوعى فى تولزن المرأة : والعادة الشهرية و التغيرات التى تسبب عر
الحمل والولادة ، كل هذا يتطلب حرصا كبيرا لوضع المرأة من الآلة

وحمايتها ، فالقدرة الوظيفية المتناقصة لجهاز الدوران التنفسي نجس ، وقد تحول — أحيانا — وبلا شك ، من مقدار الطاقة على العمل ، كذلك فإن جسم المرأة ليس مخلوقا فى الأصل للعمل المستمر، وفى مقابل ذلك، فإن المرأة أفضل موهبة من الرجل فى الأعمال التى تتطلب ميارة .

وهكذا فعندما يتطلب عمل المرأة — على أساس فروق البيئة وتغيرات أطوار حياة المرأة خاصة فيما يتعلق بوظائف التناسل — انسجاما كليا مع معطياتنا التشريحية والفسولوجية والنفسية ، فإنه سوف نتفادى المتاعب العصبية فى عمل المرأة فى المستقبل ، وخاصة فى مجال الصناعة ، حيث أصبحت الأهمية فيه حتى اليوم للاعتبارات الجسمية أكثر من النفسية والروحية ، ولقد وصف لنا الكاتب المختص (جراف graf) هذا الوضع بشكل مؤثر حيث قال : " إن العامل أصبح بدرجة متزايدة — سواء قلت أو كثرت — جهاز ضرائب لآلات العمل ، ولذا فقد وضعت مسألة قدرة المرأة على الأعمال الصناعية فى غير محلها " وإنما لنتفق معه أيضا حينما يتابع قوله : " إنه لكى نحكم على طاقة العمل ، يجب أن نفحص دور المتطلبات الروحية والأعباء العصبية، وأن نقيم لهذا الدور وزنا أكثر مما عرفنا حتى اليوم) ^(١) فهذه شهادة القوم على أنفسهم ، تبين لنا أن اختلاف وظيفة المرأة عن وظيفة الرجل أمر تقتضيه طبيعة الحياة القائمة على

(١) انظر الكتاب المذكور ص ٢٥٢ وما بعدها - ط الثالثة - المكتب الإسلامى دمشق بيروت.

التخصص والتكامل ، وهذا هو المنهج الذى جاء به الرسول الخاتم — صلى الله عليه وسلم — فأعفى المؤمنين به من التخييط فى متاهات التجارب الفاشلة ؛ ودلهم — منذ البداية — على الطريق الصحيح "صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض أيا إلى الله تصير الأمور" (١)

إن الرجال لن يستطيعوا القيام بما كلفوا به من أعباء إلا إذا كان هناك فى بيوتهم من يرعى لهم أبناءهم ، ومن يحفظ لهم أموالهم ، ومن يوفر لهم أسباب الراحة والسعادة .. وهذه — فى نظر الإسلام — وما يقرره الواقع ، هى وظيفة المرأة التى تحصل بها على مرضاة الله ، وعظيم ثوابه ، وهى لا تقل منزلة عما يقوم به الرجال ، كما ذكرنا من قبل ، وبإداء كل واحد لوظيفته تتحقق الغاية من استخلاف الله للإنسان فى الأرض ، ويتمكن هذا الإنسان — ذكرا وأنثى — من تعمير أرض الله وفق منهج الله : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما عاتاكم إن ريك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم). (٢)

فإن ألجأتها ظروف الحياة للخروج من بيتها ، خرجت ملتزمة بما شرع الله من غض البصر ، وألا تبدى من زينتها إلا ما ظهر منها ، وإذا

(١) الشورى ٤٢ / ٥٣ .

(٢) الأنعام ٦ / ١٦٥

تحدثت لاتخضع بالقول حتى لا يطمع فيينا من فى قلبه مرض ، وإن كانت ممن تتولى عملا ، فايكن هذا العمل فى إطار ترجييات دين الله ، بعيدا عن أماكن الريبة والشنيات ، ليست فيه خلوة بالرجال ، أو اختلاط تتيك فيه الحزومات ، ويؤدى إلى مالا تحمد عباد ، وأن يكون هذا العمل أيضا مما يتناسب مع أئوثة المرأة وقدرتها ، وإذا كان فى مجال النساء كان أفضل : فى تعليمين ، وتطبيين ، وما إلى ذلك من الأعمال .

وبذلك يتضح لنا أن الإسلام كرم المرأة ، وصانها من الابتال، وجعلها جوهرة مصونة غالية ، ووفر لها حياة هادئة ، ولم يكلفها من الأعمال ما يتنافى مع فطرتها وأئوئتها ، ولم يطالبها بالإنفاق على زوج أو ولد ، بل ولا على نفسها إنما جعل ذلك على الرجال ، وهى منزلة لم تحظ بها النساء فى هذه الدنيا إلا فى ظل الإسلام ، فهل نفقه عن الله وحيه وشرعه ؟ وهل نعود إلى رحاب هذا الدين لنلتقط أنفاسنا اللاهئة ، بعد أن تعبنا وشقينا بما جربناه من مناهج البشر ، فما جنينا غير الأشواك والدموع والحسرات ؟ وأن لنا أن نعود لربنا تائبين مستغفرين ، نلوذ بكتابه ، وتهدى بهديه ، ونستتير بنوره ، فهذا هو الطريق ، الذى لا طريق لسعادتنا سواء ، فاللهم رد أمتنا لدينك ردا حميدا ، وهى لنا من أمرنا رشدا ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

الأخلاق في القرآن

الفصل الثالث

الأخلاق في القرآن

١- دعوة القرآن إلى مكارم الأخلاق.

٢- أثر العقيدة في الأخلاق

٣- أثر العبادة في الأخلاق

٤- قيم خلقية في القرآن:

١- التعاون

٢- الوفاء

الفصل الثالث

الأخلاق في القرآن

الأخلاق في القرآن ؟:

ماذا يعني هذا العنوان؟ هل يعني أننا سنتبع الأخلاق الحميدة التي دعا إليها القرآن خُلُقًا خُلُقًا نجمع ما في ذلك من الآيات لدراسة كل خلق وفق منهج التفسير الموضوعي في القرآن الكريم ثم نفعل ذلك في كل خلق ذميم نفر منه القرآن ورهَّب منه؟ إن ذلك يحتاج إلي عدة مجلدات وقد فعل علماءنا ذلك بحمد الله، ولذلك فنحن لانفعل هذا إنما سندرس في فصل واحد تأصيلًا لأخلاق القرآن وبيانًا لما دعا إليه كتاب الله من التحلي بمكارم الأخلاق وكيف أقام هذه الدعوة علي أساس من العقيدة ثم وضع لنا منيحا عمليا فيما شرعه من العبادات ثم نقدم بعض النماذج لأخلاق القرآن .

وقد اخترنا منيا: التعاون * والوفاء * لتكون دليلا علي عظمة هذا القرآن في دعوته وتربيته لخير أمة أخرجت للناس.

الأخلاق في القرآن؟؟

ما هي الأخلاق؟؟

قد نقول : الأخلاق أوضح من أن تُعرَّف، فَمَنْ من الناس : عامتهم فضلا عن خاصتهم يجبل : ماهي الأخلاق، وأقول هذا الذي نراه واضحا . ضلت فيه الأقيام وزلت الأقدام ،وقال فيه من قال، من المسلمين وغير المسلمين، وخاض فيه الفلاسفة والمتصوفة وقال فيه أصحاب المدرسة

الوضعية والمدرسة المثالية والمدرسة النفعية وغيرهم، ولذلك لابد من تحديد واضح لمفهوم الأخلاق، حتى لا ندخل في الأخلاق كل سلوك بشري (لأن الأصل في السلوك الإنساني أنه يهدف إلى تحقيق مطالب جسمية أو نفسية أو فكرية أو روحية، سواء أكان ذلك لصالح الفرد أو لصالح الجماعة، وأي سلوك لتحقيق مطلب من هذه المطالب، إما أن يكون سلوكاً خلقياً، وإما أن يكون سلوكاً لا علاقة له بالأخلاق إيجاباً وسلباً) (١)

وإذن فما هي الأخلاق؟

يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: {الأخلاق جمع خلق، والخلق والخلق في الأصل واحد كالشرب والشرب، والصِّرم والصِّرم (٢)، لكن خُصَّ الخلق بالهَيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخصَّ الخلق بالقوى والسجاياء المدركة بالبصيرة، قال تعالى: {وإنك لعلی خلق عظیم} (٣). فكان الخلق عند الراغب: اختيار لمجموعة من القوى والسجاياء يقوم على البصيرة النافذة التي ترى الخير فترغب فيه وتتنظر إلى الشر فتتأى عنه .

ويرى ابن منظور في (لسان العرب) أن الخلق {بضم السلام وسكونها} هو : الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن الميداني - ج ١ / ص ١٣ ط - دار القلم -

مبشوق - بيروت ط - الرابعة / ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

(٢) الصرم : القطع البائن، وعم به بعضهم القطع، أى نوع كان، وصرمه يصرمه

صرمًا وصرمًا فانصرم (انظر لسان العرب : لابن منظور ١٢/ ٣٣٤)

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني ص ١٥٩ .

الباطنة-وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق
لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولها أوصاف حسنة وقبيحة
والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلق
بأوصاف الصورة الظاهرة { (١) }.

وهذا معناه أن الخلق ليس انفعالا بما أدت إليه البصيرة فكان خلقا
حسنا ،إنما الخلق، عند ابن منظور طبع وسجية ،وقد يكون الطبع حسنا
والسجية طيبة، وقد يكون الطبع قبيحا والسجية شريرة ، وهذا كما أن
الصورة الظاهرة منها الجميل والقبيح ،فكذلك الأخلاق ، منها الجميل
والقبيح

وعند ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: أن الخاء واللام والقاف
أصلان : أحدهما تقدير الشيء والآخر ملامسة الشيء، ومن الأول -هو
تقدير الشيء: الخلق وهو السجية، لأن صاحبه قد قدر عليه (٢)
فكان الخلق سلوك ملازم لصاحبه ،كأنه مفروض عليه ومقدر، فيؤ
ينبعث في تصرفاته الحسنة والقبيحة من تلقاء نفسه ، لما تعود عليه من
هذا السلوك، حتي أضحي سجية له وطبعاً .

وهذا المعنى الذي ذكره ابن منظور وابن فارس نراه عند الإمام
الغزالي في عبارة واضحة حيث يقول في (الإحياء) : الخلق والخلق :
عبارتان مستعملتان معا ، يقال ، فلان حسن الخلق والخلق ، أى حسن
الظاهر والباطن، إلى أن يقول :فالخلق : عبارة عن هيئة فسى النفس

(١) لسان العرب لابن منظور م/١٠، ٨٦، ٨٧-دار صادر بيروت .

(٢) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس ٢/٢١٣، ٢١٤ ط الثالثة ١٤٠٢-١٩٨١م-مكتبة
الخانجي بمصر

راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت البيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة : عقلا وشرعا سميت تلك البيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت البيئة -التي هي المصدر- خلقا سيئا (

وهناك إذن أمور أربعة: أحدها : فعل الجليل والقيح ، والثاني: القدرة عليهما ، والثالث : المعرفة بهما ، والرابع : البيئة الراسخة في النفس ، والتي تدعو صاحبيا إلى أن يميل إلى أحد الجانبين في يسر وسهولة ، وهذه البيئة هي الخلق الذي قد يكون حسنا أو غير حسن ، أما مجرد فعل الشيء أو القدرة عليه ، أو معرفته فلا يعت من الأخلاق، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أولرياء، كما أن القدرة على فعل الحسن وغيره لا تجعل الفعل من الأخلاق، لأن القدرة على الفعل - إيجابا وسلبا - واحدة ، فكل إنسان خلق بالفطرة قادرا على الإعطاء والإمساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء، كما أن مجرد المعرفة لا تكفي، فإننا نتعلق بالجميل وناقض جميعا على وجه واحد، فالخلق - إذن - : عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة (١)

بهذا تتميز الأخلاق عن غيرها من ألوان السلوك البشري ، ويتضح لنا أن الأخلاق التي سنتحدث عنها هي هذه السجايا المستقرة في النفس التي تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر ، وحديثا عن الوجه المشرق من هذه السجايا ، وهو الأخلاق الجميلة ، والتي سندرسها من خلال النقاط

(١) انظر : إحياء علوم الدين : للإمام الغزالي ٥٢/٣

الأربعة المذكورة في صدر هذا المبحث وأولها :

{ دعوة القرآن إلى مكارم الأخلاق }

جاء دين الإسلام بعد أن خبا ضوء الرسالات، وضاعت معالم الطريق، فكان من رحمة الله بخلقه أن أرسل إليهم رسولا هو محمد - صلى الله عليه وسلم - وجعله خاتم الرسل ، وأنزل عليه كتابا هو القرآن الكريم ، وجعل هذا القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه ، فختم به الكتب ، ولهذا جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رحما معه من الكتاب يرسى للإنسان دعائم السعادة ، ويرتاد به الطريق إلى الله ، فعرفه من هو إليه الحق ، ودله على طريق عبادته لهذا الإله ، وأرشدته إلى جملة من الأخلاق الكريمة التي تنتشر الأمن والسكينة في الأفراد والمجتمعات، ولا حياة لأمة لا تتخلق بتلك الأخلاق التي جاء بها دين الله :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
ولذلك اعتنى القرآن بهذا الجانب عناية فائقة ، وجاءت السنة المشرفة فلم تترك خلقا كريما إلا وحثت عليه ورغبت فيه ، ولم تدع خلقا ذميما إلا نفرت منه ورهبت من الاتصاف به.

وأخلاق القرآن لا تقتصر على ما نراه من كلمة (خلق) والتي لم ترد بمعنى الصورة المشرقة للقلب المشرق بنور الحق، الملتزم بكل خلق حميد، إلا وصفا لمن جمع مكارم الأخلاق واستحق هذه الشيادة الربانية من الله عز وجل، ذلكم هو محمد - صلى الله عليه وسلم - فيما قال سبحانه وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ^(١)

(١) الفاسم ٤/٦٨

وأما ملجاء بعد ذلك من هذه العادة - مادة " الخاء واللام والقاف " في القرآن فإنما جاء بمعنى النصيب كما في قوله تعالى في موضعين من البقرة ١- {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ} ٢- {فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا عَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ} (١)

وكما في قوله في التوبة : {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعْتُمْ كَلَّذِي خَاضُوا..} (٢)

يقول الفخر الرازي : " الخلق : النصيب ، وهو ما خلق للإنسان ، أى قدر له من خير ، كما قيل له : قسم ، لأنه قسم ونصيب ، لأنه نصيب أى ثبت .. " (٣)

أو بمعنى العادة ، وذلك في قوله تعالى عن قوم هود : {قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعِظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ، إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ} (٤) أى هذه عادة من سبقنا ، بينون ويبطشون ويمضون حياتهم في الدنيا ويموتون ولا يرجعون ، فنحن نفتدى بهم .

فأخلاق القرآن تحتاج إلى أن ننقب في آياته لامن باب مادة : الخاء ، واللام ، والقاف (خلق) وإنما من باب ما تعنيه الأخلاق الحميدة من كل وصف جميل يتصف به الإنسان ، وسوف نستعين في ذلك بالبحث في

(١) العنبر ٢ / ١٠٢ ، ٢٠٠٠

(٢) التوبة ٩ / ٦٩

(٣) تفسير الفخر الرازي : مفاتيح الغيب م / ٨ ج ١٦ ص ١٣١

(٤) العنبر ٢٦ / ١٣٦ - ١٣٨

السنة المطهرة ، فهي البيان لكتاب الله كما قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ
لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

وحيث أن سوف نرى بآيا واسعة جمع فيه العلماء الكثير من الأخلاق
الحيدة، وذكروا ما جاء فيها من كتاب الله وسنة رسوله _ صلى الله عليه
وسلم _

وهذه كتب التفسير والحديث وموسوعات مليئة بهذا الفيض ، وهذه
مؤلفات علمائنا في الدراسات الإسلامية تفيض بيانا لعظمة أخلاق هذا
الدين ، ولا يتسع المقام لنذكر بعض هذه المؤلفات، قديما وحديثا، وقرأ في
ذلك : الترغيب والترهيب : للحافظ المنذري، ورياض الصالحين : للإمام
النووي، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي، إلي غير ذلك مسن مؤلفات
علمائنا الأوائل ، وقرأ للشيخ محمد الغزالي : خلق المسلم ، وللعقاد : الفلسفة
القرآنية ، والدكتور أحمد الشرباصي : "موسوعة أخلاق القرآن " وفي
كتاب "منهج القرآن في تربية المجتمع " : الباب الثاني : القرآن والتربية
الأخلاقية ، بكتاب : المسلم في عالم اليوم : بحوث في الأخوة والمواودة
وبناء المجتمع المسلم : (جزعين) بكتاب الوصايا العشر : دراسة
موضوعية لآيات من أواخر سورة الأنعام ، وغير ذلك مما كتبه ، ذكرت
الكثير من هذه الأخلاق ، وبقراءة بعض هذه الكتب ، في القديم أو الحديث
يتضح لنا أن مكارم الأخلاق هدف مقصود من أهداف القرآن الكريم ،
وما ذلك إلا لأن القرآن جاء من الله لإسعاد بني الإنسان ، ولا سبيل لذلك
إلا بإيجاد الإنسان الصالح ، الذي تحرر من كل عبودية إلا عبوديته لخالقه

ورازقه وإليه: خالق السموات والأرض، الإنسان الصالح الذى أشرق
فؤاده وقلبه ووجدانه بنور كتاب الله، الإنسان الصالح الذى يعيش مع نفسه
ومع الآخرين متمتعا ببدى الله بفيض برا وعدلا وحياء وخيرا وسلاما
وصدقا وعفة، وما إلى ذلك من أخلاق كريمة جاء بها كتاب الله وجلت بها
بياننا قوليا وعمليا أقوال وأفعال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وحسبك أن تقرأ بعض ما جاء في القرآن من الوصايا الجامعة والتوجيهات
الإلهية لمحاسن الأخلاق، كالوصايا العشر في سورة الأنعام: {قُلْ
تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَنَّا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا
ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ
وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا نَكْفِ أَنْفُسًا إِلَّا وَسْغَهَا
وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ} (١٥٢) وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (١)

وكوصايا سورة الإسراء، وفيها يقول الله تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَنَعَ
اللَّهِ إِلَٰهَا عَآخِرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا} (٢٢) وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَنَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ
الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا} (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي

(١) الأنعام ١٥١-١٥٣.

نَفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} إلى آخر هذه الوصايا التي تَخْتَم بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ " {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْهُورًا} (١)

ومثل ذلك من الدعوة للأخلاق الكريمة وصايا لقمان وفيها يقول رب العزة : {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَيْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (١٧) وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} (٢)

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي طهرت القلوب ، وزكّت النفوس ، وحققت الهدف من بعثة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقول ربنا جل وعلا : {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو

(١) الإسراء ١٧/٢٢-٣٩

(٢) لقمان ٣١/١٢-١٩

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ^(١)

إنما النعمة الكبرى، والمنة العظمى علي أهل الإيمان : { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }^(٢)

ثانياً: أثر العقيدة في الأخلاق :-

ماذا نقصد بالعقيدة حين نتحدث عن الأخلاق في القرآن؟ ونحن نرصد ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لنرى أثر العقيدة في الأخلاق؟ هل نجد أثراً في آيات القرآن الكريم أو في السنة المشرفة يوحى بأن العقيدة هي ما أشربه القلب وتغلغل في كيان الإنسان حين يقال بأن عقيدة فلان كذا؟ بل إن جاز لنا أن نتوسع - بعض الشيء - في هذا الباب لنقلنا: في أي شيء وردت كلمة العقيدة بمعناها الشائع المعروف؟ في كتب اللغة؟ في كتب العلوم؟ في كتب التعريفات؟ في غير ذلك من مؤلفات العلماء؟ فلنستعرض شيئاً من ذلك علي سبيل الاختصار لنحدد: ماذا نقصد بالعقيدة حتي نعرف أثرها في غرس الأخلاق الكريمة؟؟ في كتاب الله : وردت مادة (العين، والقاف، والدال) في سبعة مواضع من القرآن الكريم، ليس من بينها ما يشير إلي الاعتقاد في الله رباً، وما إلي ذلك من هذه المعاني، ففي سورة البقرة قوله تعالى: {وَلَا تَعْرَمُوا عُقْدَةَ النَّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ

(١) الجمعة ٦٣ / ٢

(٢) آل عمران ٣ / ١٦٤

أجله} وقوله {إِلَّا أَنْ يَعْقُونَ أَوْ يَعْقُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ} (١) فعقدة النكاح في الآيتين هي عقد الزواج بالإيجاب والقبول . وفي النساء: {وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ} (٢) فهذا عقد موثق بالآيمان، يقوم مقام القرابة في استحقاق الميراث ، وقد كان هذا قبل نزول آيات المواريث كما قال بذلك ابن عباس وغيره : كان الرجل يعاقد الرجل أيما مات ورثه الآخر فأنزل الله : {وأولو الأرحام بعضهم أولي ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا} يقول ابن عباس : إلا أن توصوا لهم بوصية فهي لهم جائزة من ثلث المال (٣). وفي سورة المائدة: أول آية فيها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} والعقود هنا : العهود وهي كما يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله ولا تغدروا ولا تنكثوا . (٤) وقال الحسن : أوفوا بالعقود : يعني بذلك عقود الدين وهي ما عقده المرء علي نفسه من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق وغير ذلك من الأمور ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة ، وكذلك ما عقده علي نفسه لله من الطاعات كالحج والصيام والإعتكاف والقيام والنذر وما أشبه ذلك من طاعات ملة الإسلام . (٥) وفي السورة أيضا قوله تعالى : {إِنَّمَا

(١) البقرة ٢ / ٢٣٥ / ٢٣٧

(٢) النساء - ٤ / ٣٣

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٩٠

(٤) تفسير ابن كثير ٢ / ٣

(٥) تفسير القرطبي / ج ٦ ص ٣٢

يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَئِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ
 الْأَيْمَانَ (١) ومعناه كما قال مجاهد : تعدتكم : أي قصدتم . (٢) وليس لذلك
 من صلة بموضوع العقيدة ، وفي سورة " طه " ما ذكره الله عن موسى -
 عليه السلام - : { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي
 أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي } (٣) وهذه العقدة هي
 احتباس لسانه عن الكلام بطلاقة ، إما أنه كان خَلْفَةً مِنْذُ طِفْلُوته ، أو
 بسبب ما كان وهو في قصر فرعون ، إذ أخذ بلحية فرعون وبتفها ، فيمَّ
 فرعون بقتله وقال : هذا هو الذي يزول ملكي علي يده ، فقالت أسية : إنه
 صبي لا يعقل ، وعلامته أن تقرب منه التمرة والجمرة ، فقربا إليه فأخذ
 الجمرة فجعلها في فيه ، فتركت أثرها في يده ولسانه . (٤) بقي الموضع
 الأخير ، وهو قوله تعالى في سورة الفلق : { ومن شر النفاثات في
 العقد } وهن الساحرات ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها . وفي
 الحديث : من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد
 أشرك (٥) .

وفي السنة المشرفة : يستوقفنا حديث الإمام البخاري (١٩٤-
 ٢٥٦هـ) في كتاب الطلاق : " قال الزهري فيمن قال : " إن لم أفعل
 كذا أو كذا فامرأتي طالق ثلاثا ؟ يسأل عما قال وعقد عليه قلبه حين

(١) المائدة ٥ / ٨٩

(٢) تفسير القرطبي / ج ٦ ص ٢٦٧

(٣) سورة طه ٢٥ / ٢٧ - ٢٨

(٤) انظر في ذلك : كتب التفسير عند تفسيرها لهذه الآية

(٥) رواد النسائي عن أبي هريرة

حلف بتلك اليمين' فإن سمّي أجلاً أراده وعقد عليه قلبه حين حلف' جعل ذلك في دينه وأمانته. كما نقرأ في مقدمة صحيح مسلم (ت ٢٠٤ هـ —) قوله : " لما تخوفنا من شرور العواقب واغترار الجيلة بمحدثات الأمور' وإسراعهم إلى اعتقاد خطأ المخطئين ' والأقوال الساقطة عند العلماء' رأينا الكشف عن فساد قوله ورد مقالته بقدر ما يليق بها من الرد.

وفي سنن الدارمي : (في المقدمة — دمة) : عن أبان بن عثمان عن زيد بن ثابت أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : " لا يعتقد قلب مسلم علي ثلاث خصال إلا دخل الجنة : قال : قلت : ما هي ؟ قال إخلاص العمل والنصيحة لولاة الأمر ، ولزوم الجماعة ، فإن عوتهم تحيط من ورائهم " (١) ففي هذه النصوص لانتمح حديثاً عن العقيدة بمعنى الإيمان بالله رباً ، إنما أتت بمعنى الاعتقاد في قول يقوله صاحبه ، كما جاء في قول الإمام الزهري عند البخاري ، أو قول لدى الآخرين ، كما في عبارة الإمام مسلم ، أو جملة من السلوك كما في حديث الدارمي وغيره ، وما عدا ذلك مما جاء في هذه المادة في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث بكل تصاريفها ، لا نجد فيها أثراً لما عرفت فيما بعد بعلم العقيدة ، وما تعنيه " العقيدة " في مصطلح علماء العقيدة .

(١) سنن الدارمي — المقدمة — باب الإقتداء بالعلماء — حديث ص ٨٧ تحقيق فؤاد أحمد زمرلي ، وخالد السبع العلمي — دار الريان للتراث — القاهرة ودار الكتاب العربي ببيروت ط (١) ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م يقول المحققان : الحديث رواه أحمد ١٨٣/ ٥ ، وابن حبان رقم ٧٢ ، ٧٣ موارد الظمان ، وابن عبد البر في الجامع ٣٨/ ١ ، ٣٩ وهو حديث صحيح .

أما كتب اللغة :

فلم تذكر الكتب القديمة هذه الكلمة بمعنى الاعتقاد القلبي الا لمأما، ومن ذلك ما جاء في لسان العرب لابن منظور (ت ٦٣٠ هـ) من قوله : ويقال للرجل إذا سكن غضبه : قد تحالفت عقده ، واعتقد كذا بقلبه ، وعن ابن منظور أخذ الرازي المتوفى بعد سنة ٦٦٠ هـ إذ يقول في مختار الصحاح : اعتقد كذا بقلبه "

وجاء في القاموس المحيط : " البصيرة : عقيدة القلب " وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : العَيْن ، والقَاف ، والدال : أصل واحد يدل علي شدة وشدة وثوق ، وإليه ترجع فروع الباب كلها ، ومن ذلك : عقد قلبه علي كذا فلا ينزع منه ، واعتقد الشيء : صلب ، واعتقد الإخساء : ثبت . . . " (١)

وقد توسعت الكتب اللغوية الحديثة في بيان هذا المعنى : ومن ذلك ما جاء في المعجم الوسيط : عقد قلبه علي الشيء لزمه ، واعتقد فلان الأمر : صدقه ، وعقد عليه قلبه وضميره ، والعقيدة : الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، وفي الدين : ما يقصد به الاعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الله ، وبعثة الرسل ، وجمعه عقائد (٢)

وجاء في كتاب البداى إلى لغة العرب : " العقيدة : ما يؤمن به الإنسان في قلبه دون العمل من الناحية الدينية ؛ كعقيدة التوحيد ؛ وقد تكون في ناحية غير دينية مثل عقيدة الحياد في العلاقات الدولية ؛ والاعتقاد : الرأي الراسخ في النفس كاليقين ، وقد يكون ظاهراً ،

(١) معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٤ / ٨٦

(٢) انظر المعجم الوسيط ٢ / ٦١٤ ط الثانية

ويكون في الدين إيماناً ، وفي غيره ظناً ، وإذا قيل : أنا أعتقد أن الحكم خاطئ ، فالمعنى : أنا أراه أو أنا أظنه كذلك " (١)

كتب التعريفات :

وفيمن ألفوا في أسماء العلوم كأبجد العلوم للتتويجى (ت ١٣٠٧هـ) وكشف الظنون لحاجي خليفة (١٠٦٧هـ)، الفهرست لابن النديم، نجدهم يذكرون علم الكلام ولا يذكرون علم العقيدة ، مع أن كتب التعريفات قد ذكرت ذلك بوضوح ، ومن ذلك ما ذكره علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦هـ) في كتاب التعريفات ، إذ يقول : (العقائد: ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل) ومن بعده الشيخ زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) في كتابه : (الحدود الأنيقية والتعريفات الدقيقة) يقول: الاعتقاد: العلم الجازم القابل للتغير، وهو صحيح إن طابق الواقع كاعتقاد المكلف سُنَّة الضحى والإفلاس كاعتقاد الفلاسفي قديم العالم. وقال المناوي (١٠٣١هـ) في (التوقيف على ميمات التعريف) يقول الاعتقاد: عقد القلب على الشيء وإثباته في نفسه. ثم توالى المؤلفات تحمل هذا المعنى ومن ذلك: (لمعة الاعتقاد لابن قدامة، والعقيدة الطحاوية للإمام الطحاوي ، واسم الكتاب الأصلي "بيان السنة والجماعة" والعقائد العضدية: لعرض الدين الإيجي ولأبي بكر الباقلاني: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يحوز الجدل به، وللرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركون ، والعقائد النسفية ، ومشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ولمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة للجويني والعقيدة النظامية

(١) البادي إلى لغة العرب : حسن سعيد الكرمي ج ٣ ص ٢٤٢ ط ١ - ١٤١٢ هـ

١٩٩٢/ م دار لبنان للطباعة والنشر . -

للجوينى. ولابن رشد :مناهج الأدلة فى عقائد الملة. وللعزالى :الإقتصاد فى الاعتقاد، واعتقاد أهل السنة لـ (اللاكتي) والاعتقاد للبيهقي . واعتقاد أئمة الحديث :للاسماعيلى ، وشرح العقائد لعبد الرحمن الجزيرى ، والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجوك زبير، والإسلام عقيدة وشريعة :للشيخ محمود ثلثوت وعقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر .إلى غير ذلك من الكتب ؛حتى لقد أنشئت أقسام علمية متخصصة فى الجامعات عرفت بأقسام العقيدة ؛ ولأسادة هذه الأقسام مؤلفات وبحوث ممتعة فى هذا الجانب المشرق من الإسلام ؛لايتسع المقام لنذكرها ونذكرهم .

وإذا كانت كلمة العقيدة فى القرآن والسنة لم تستعمل فيما انعقد عليه القلب من رأى رأى رآه صاحبه :صحيحاً أو غير صحيح ،محققاً أو باطلاً، فإن كلمة الإيمان التى وردت فى القرآن والسنة قد عبرت عن ذلك أصدق تعبير، وإن كانت استعمالاتها فى جانب الحق والخير وجانب الإيمان بالله الواحد الأحد هو الأكثر والأعم ،ولكننا مع ذلك نرى الجانب الآخر وهو الإيمان بالباطل والإيمان بالطاغوت ،كما قال تعالى فى "العنكبوت" : "والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون" وقال : "أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون" (١) وقال فى النساء : "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبن والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً" (٢) وقال فى بنى إسرائيل : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ عَامِنُوا بِمَا نُنَزِّلُ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون

(١) العنكبوت ٢٩/٢٧، ٥٢

(٢) النساء ٤/٥١

أَنْبِيَاءُ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)

ويبقى بعد ذلك الإيمان الصحيح الذي من أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب والذي جاء به الإسلام عقيدة راسخة الجذور، بأسقة الأغصان، أمضى الوحي الإلهي في غرس شجرتيها المباركة ثلاثة عشر عاما في مكة وظل يروينا إلى آخر قطرة من شيث هذا الوحي العظيم "ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون" (٢) وتعيدها الرسول المبارك صلى الله عليه وسلم بتوجيهاته سلوكا وعملا حتى استقرت أصولها في النفوس المؤمنة: إيماننا بالله ربا واحدا وإلها متصفا بصفات الجلال والكمال، وإيماننا صادقاً بأن الله ملائكة كراما لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنه سبحانه لم يترك خلقه سدى، إنما أنزل إليهم الكتب والتي كان ختامها القرآن الكريم، وأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين وختمهم بإمامهم: محمد - صلى الله عليه وسلم -، وأن الله بحكمته جعل حياة الناس مرحلتين: الأولى هنا علي ظير هذه الأرض يعمرونيا وفق منيجه، وما أنزل من وحي علي رسله، والثانية هناك بعد الموت حيث يبعثهم الله ويحاسبهم: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" (٣)

(١) البقرة ١٢٩

(٢) إبراهيم ٢٤/٢٥

(٣) الزلزلة ٦٩/٨٧

وهذا هو اليوم الآخر بكل ما فيه ومآله من مقدمات الاحتضار وقبض الروح وما يكون فى القبر من سؤال الملكين وما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب ثم ما يكون بعد القبر من بعث وحشر وميزان وصحف وحساب وسؤال وصراط وجنة ونار ، وما إلى ذلك مما جاء به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أن من مقتضيات هذا الإيمان ومكوناته أن يؤمن بأن لهذا الكون نواميس وأنه لا يسير خبط عشواء إنما هي الأسباب والمسببات ، وأن ذلك كله من إيجاد العليم الحكيم ، حتى تنتظم حياة الناس وفق خطط واضحة وأسباب معلومة ، وأن ما وراء الأسباب والنواتج غيب لا يعلمه إلا الله ، فعلى المؤمن أن يجتهد فى معرفة الأسباب وأن يأخذ بها بقدر طاقته البشرية ، فإن ترتب على ذلك خير له حمد الله وشكره ، وإن كانت الأخرى - جز واحتمل - وهو على ثقة أن كل ما حدث له فيه الخير وإن بدا فى ظاهره على غير ما يرغب : "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (١) وبهذه العقيدة النقية الطاهرة يكون الإنسان فى عداد الأحياء وإلا فهو ميت وإن كان يأكل ويشرب ويتحرك ، ولذلك يقول الله تعالى : (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٢) إنه بدون العقيدة جسد بلا روح ؛ ولذلك سمي الله كتابه

(١) البقرة ٢/٢١٦

(٢) الأنعام ٦/١٢٢

روحا فقال (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٥٢) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) (١)

ولذلك رأينا عناية القرآن بأمر هذه العقيدة حتى إننا لم نحصينا كلمة
الإيمان في القرآن وما اشتق منها، لوجدنا أنها تصل إلى أكثر من ثمانمائة
مرة؛ فما من أمر ولا نهى ولا حركة ولا سكون إلا والإيمان قرينه، بل
هو لحمته وسداه، وعماده وأساسه، وكثيرا ما نرى القرآن قبل أن يأمر
بأمر أو ينهى عن شيء ينادى المؤمنين بصفة الإيمان فيقول: (يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) ترى ذلك في ثمانية
وعشرين موضعا، أو يقول - محذرا ومخوفا - في نهاية ما يأمر به أو
ينهى عنه: (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) في سبعة عشر
موضعا.

والأخلاق الكريمة في جملة ما أتى به دين الله مظهر لصدق الإيمان؛
فالإيمان هو الذي يدعو صاحبه إلى الإخلاص لله فيما يقول ويفعل
لا يبتغي من أحد جزاء ولا شكورا، إنما يريد الله والدار الآخرة، فلانطق
من جواهر القرآن في باب الأخلاق بعض ما يبين متانة الارتباط بين
الأخلاق والعقيدة:

(١) الشورى ٥٣، ٥٢/٤٠

وأول ما نلتقطه : خلق العمل الصالح ————— الح : والعمل الصالح يعنى : كل ما جاء به هذا الدين ، ومن ذلك الخلق الحسن . إذ نرى القرآن — ذكر العمل الصالح ذكر معه الإيمان بالله ، نرى ذلك فى قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسْبَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ) ^(١) وفى قوله : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَمْ يَلْهَأْهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) ^(٢)

وفى استعمال القرآن لكلمة (الصالحات) — وقد وردت اثنتين وستين مرة — منها تسع وخمسون نراها تقترن بالإيمان : يقول تعالى : (وَيَسِّرْ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . الآية) ^(٣) ويقول : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) ^(٤)

وفى التخلق بالكرم والعطاء : نجد قول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ .. الآية ..) ^(٥) وقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ

(١) القصص ٢٨ / ٦٧

(٢) القصص ٢٨ / ٨٠

(٣) البقرة ٢ / ٢٥

(٤) الكهف ١٨ / ٣٠

(٥) البقرة ٢ / ٢٥٤

وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِثُوا فِيهِ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ^(١)
 ويقول تعالى : { عَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ
 فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ }^(٢)

وفي الإخلاص في الإنفاق والتفكير من الرياء : نقرأ قول الله تعالى :
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ
 رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.. (الآيات)^(٣) ونقرأ قوله . {
 وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا }^(٤)

وفي حسن الأدب مع الله ورسوله : نتلو قول الله تعالى في سورة
 الحجرات : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا
 اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }^(١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ
 صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ
 أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } الآية وما بعدها^(٥)

وفي احترام حقوق الآخرين ، ومراعاة حقوقهم : نرى قول الله

(١) البقرة ٢ / ٢٦٧

(٢) الحديد ٥٧ / ٧

(٣) البقرة ٢ / ٢٦٤ .

(٤) النساء ٤ / ٣٨

(٥) الحجرات ٤٩ / ٢٠١

تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ} الآية وما بعدها (١).

وفي التخلق بخلق الصبر : نقرأ قول الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (٢) وقوله:
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٣).

إلى غير ذلك من الأخلاق الجميلة والصفات الحميدة التي جاء بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - وكلها مؤسسة على الإيمان بالله ؛ فيؤيّد الباحث الحق لكل خلق كريم؛ ومن يقرأ ما ذكرناه من وصايا "الأنعام" ووصايا "الإسراء" و "لقمان" يرى أن الدعوة إلى توحيد الله وخبريته تأتي في مقدمة هذه الوصايا، مما يدل على مدى الارتباط الوثيق بين العقيدة والأخلاق .

(١) الحرات ٤٩ / ١١ ، ١٢ ،

(٢) البقرة ٢ / ١٥٣

(٣) آل عمران ٣ / ٢٠٠

ثالثاً: أثر العبادة فى الأخلاق :

خلق الله الخلق لعبادته فقال : {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (١) و أرسل رسله وأنزل كتبه لتحقيق هذه الغاية قال تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (٢) وقال : { ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ؛ فمنهم من هدى الله ؛ ومنهم من حقت عليه الضلالة .. } (٣)

فماذا تعنى هذه العبادة التى خلق الله الخلق لأجلها ؟؟ ومن أجلها كان هذا الموكب المهيّب من المرسلين وما معهم من وحى الله ؛ لدعوة الناس وتعبيدهم لله رب العالمين ؟ وما صلة ذلك بالأخلاق الكريمة ؟

العبادة :هى الانقياد المطلق لله وحده لا شريك له ، والتعلق به ، والحب له ، والطاعة له مع التذلل والخضوع ، إنها إحساس كل ذرة فى كيان الإنسان بنعمة الله وفضله ؛ مما يترتب عليه تصديق رسل الله فيما بلغوا عن ربهم ، إيماناً بهم ، وبما جاؤا به ، والتزاماً فى السلوك بمنهجهم وطريقهم ، فلا تبقى للمؤمن بذلك حركة ولا سكون ؛ ولا قول ولا فعل إلا وهو لله المعبود والرب المقصود {قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَتَسَكَّيْتُ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (١٦٢) لَنَا شَرِيكٌ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (٤)

(١) الذاريات ٥١ / ٥٦

(٢) الأنبياء ٢١ / ٢٥

(٣) النحل ١٦ / ٣٦

(٤) الأنعام ٦ / ١٦٢ ، ١٦٣

والإخلاص جزء من حركة الإنسان في الحياة ، ما تعلق منبها
بالجانب السلبي كالصبر ونحوه؛ أو بالجانب الإيجابي في معاملة الإنسان
لأخيه الإنسان ، وقد رسم الإسلام خطة ربانية لهذه الأخلاق فبدت مشرقة
وضاءة تحقق السعادة للناس في كل زمان ومكان ، فبناها على الإيمان
بالله ؛فلا غاية للمسلم في صبره وعفوه وإحسانه وسائر ما يتخلق به من
الأخلاق الكريمة إلا رضا مولاه ، وهذا فارق مهم بين أخلاق الإسلام
وشيرها ، فإن خير المسلم لايرجو بحسن معاملته لغيره الله والدار الآخرة
إنما يريد حظا من حظوظ الدنيا ؛ وشهوة من شهواتها فيرى في صدقه
وأمانته وحسن خلقه ما يحقق له هذه الغاية ، لكن المسلم يطلب أولا
بأخلاقه ثواب ربه ويتحقق له - ثانيا - ما يطلبه طلاب الدنيا من حسن
السمعة والتمكين في الأرض ، واكتساب محبة الآخرين؛ وتحقيق كثير من
المنافع بهذه الأخلاق في هذه الأرض .

ومع هذا الأساس الإيمانى الذي تبنى عليه الأخلاق شرع الإسلام
جملة من الشعائر التعبديّة،تحقق جملة من الأهداف الإسلامية كزيادة
الإيمان وتقويته وإمداده ب زاد متواصل لينقى نابضا حيا يضبط خطا
الإنسان على طريق ربه، فلا تنزل به القنم ولا ينحرف عن الصراط
المستقيم .

فبذه الصلاة :

من اسميا تدرك أنها صلة بين العبد وربّه ؛ ومعراج يسمو عليه
العبد فى اليوم خمس مرات فى صلاة للفرائض ، وله بعد ذلك ما يشاء

كلما اشتاق لمناجاة مولاه أو حَزَبَه أمر من أمور الحياة ما دام ذلك فى غير الأوقات التى لاتجوز فيها الصلاة ، ولنتأمل حال هذا العبد السذى توثقت صلته بربه عبر رحلات يومية ولقاءات ربانية ، أولها توقظه والأخيرة يودع بها يومه ، وبينهما لقاءات لايفصل بينها سوى سُويَعَاتٍ ، كيف يكون حال هذا العبد فى خوفه من ربه وخشيته له ، ومراقبته فى كل حركة وسكون وقول وفعل ؟؟ إنه لا يخون ولا يغدر ولا يفجر ولا يعتدى على أحد، ولا يفرط فى واجب ، ولا يقع فى معصية إلا أن تغلبه نفسه الأمارة بالسوء ، وشيطانه اللعين وهواه ، ولكنه سريع الرجوع لربه بالتوبة والإنابة والضراعة يغسل حوبته بدموعه ، ويبقى حذرا من ذنوبه وهو كما قال الله تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) } . وَلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَعْمَلُونَ فِيهَا عُجُلُ الْعَامِلِينَ } (١) وكما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } (٢)

ولإذا رأينا أن كلمة "الصلاة" فى القرآن تذكر فى ثمان وتسعين موضعا ، وفى كل موضع معظم من معالم الحق ؛ ودليل على ما لها من أثر محمود فى البناء الأخلاقى ، فإذا وجدت كانت محاسن الأخلاق ، وإلا كان الانحراف عن كل خلق كريم ، وهؤلاء هم

(١) آل عمران ٣ / ١٣٥ ، ١٣٦

(٢) الأعراف ٧ / ٢٠١

الكافرون والمنافقون أودى بهم تركهم للصلاة فخابوا في الدنيا وخسروا في الآخرة ، يقول تعالى ، بعد أن ذكر أصحاب الوجوه الناضرة من المؤمنين والوجوه الباسرة من الخاسرين ، وسبق الناس لرب العالمين وما يكون فيه المجرمون من هلاك ؛ يقول سبحانه { قَلْبًا صَدَقَ وَلَئِن صُلِيَ (٣١) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمُتُّ } (١) ويقول في سورة الماعون ، مبينا ما يكون عليه تاركو الصلاة من ضعف نفسى وبخل وشح { قَوْلٍ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَءَوْونَ (٦) وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ } (٢) وهناك في الآخرة يسأل اصحاب اليمين اهل النار - فيما ذكره الله تعالى : { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٢) } قالوا - لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٣) وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤) وَكُنَّا تَخَوِّضُ مَعَ الْخَافِضِينَ (٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٦) حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ } (٣)

ولا يعصم من الشهوات والوقوع فيهما إلا الصلاة ولذلك قال تعالى في سورة مريم : { فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا } (٤) وقد جاء في هذه السورة - سورة مريم - ما كان من أمر الأنبياء عليهم السلام ؛ وكيف كانت عنايتهم بالصلاة ، فهذا زكريا - عليه السلام - يقول الله فيه : { فَخَرَجَ

(١) القيامة ٣١ / ٧٥ - ٣٣

(٢) الماعون ٤ / ١٠٧ - ٧

(٣) المذثر ٢٤ / ٢٢ - ٤٧

(٤) مريم ١٩ / ٥٩ ، ٦٠

عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمَخْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا^(١) ويقول: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَخْرَابِ..}^(٢) وهذا عيسى يقول الله علي لسانه: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا^(٣) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا^(٤) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا^(٥)} وإسماعيل عليه السلام - كما قال تعالى:

{وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا^(٦)}

وفي سورة إبراهيم نقرأ قول الله في إبراهيم - عليه السلام - : {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } إلى أن يقول: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ^(٥)}

وهذا موسى - عليه السلام - يقول لقومه: {وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ^(٦)}

وإقامة الصلاة من جملة العيد الذي أخذ الله على قوم موسى ، قال

-
- (١) مريم ١٩ / ١١
 - (٢) آل عمران ٣ / ٣٩
 - (٣) مريم ١٩ / ٣٠ - ٣٢
 - (٤) مريم ١٩ / ٥٥
 - (٥) إبراهيم ١٤ / ٣٧ ، ٤٠
 - (٦) يونس ١٠ / ٨٧

تعالى : {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ.. } (١)

وهكذا أنبياء الله ورسله وأتباعهم، كانت الصلاة لهم شعارا ودفارا، وبابا ولجوا منه لمناجاة ربهم ، وأعلنوا عبوديتهم وطاعتهم ؛ فكانت الصلاة فى وجوههم نورا ؛ وفى مشاعرهم حبا، وفى سلوكهم اعتدالا منصبطا على وقع وحى ربهم ، فكانوا للناس رحمة وعونا ، وفى أنفسهم تركية وطيرا ، وسعادة ونبلا ، ورفعته فى المشاعر والأحاسيس، والأفعال والأقوال ، وجاءت الأمة الخاتمة، ونبيها الخاتم محمد - صلى الله عليه وسلم - فكان لها وبيا تمام هذه المعانى ؛ وتمثل هذه المبادئ ، وتأصيل هذه القيم ، وتثبيت أركان الأخلاق الحميدة ، ولذلك قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : { إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق } (٢)

وقال : { إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فحمل الناس يطفون به ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين } (٣)

ولإذا جاء القرآن بالصلاة بناء متكاملا ؛ ومنهجا ربانيا على درب

(١) البقرة ٢ / ٨٣

(٢) رواه الحاكم فى المستدرک .

(٣) رواه البخارى فى "الأنبياء" ، باب : " خاتم النبيين - صلى الله عليه وسلم - فى " الفضائل " ، باب : ذكر كونه - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين .

أنبياء الله ورسله ، فاعتنى بها عناية خاصة فلم يفرضها ربنا فى الأرض؛ إنما دعا رسوله إلى حضرته ؛ وأرسل إليه ملك الوحي : جبريل -عليه السلام - فأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به جبريل إلى السموات العلا ، فانتقل به من سماء إلى سماء حتى وصل إلى سدره المنتهى ، وسمع النداء من الحق - تبارك وتعالى يفرض عليه الصلاة خمسين صلاة فى اليوم واللييلة ، وأخذ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يراجع ربه المرة تلو المرة - يطلب منه التخفيف - إلى أن صارت خمسا فى الفعل وخمسين فى الأجر والثواب ، وتوالت آيات القرآن تأمر بالصلاة وتبين أثرها فى السلوك ، وتمتدح أصحابها ، وتعييب على من تركها ، فهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوة الأمة وهاديتها ، يقول الله له : {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} (١) ويقول : {أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} (٢) ويقول : {اسْأَلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} (٣) ويأمره أن يأمر أهله بها فيقول {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} (٤) وأن يأمر بها المؤمنين العابدين فيقول {قُلْ

(١) هود ١١ / ١١٤

(٢) الإسراء ١٧ / ٧٨

(٣) العنكبوت ٢٩ / ٤٥

(٤) طه ٢٠ / ١٣٢

لِعِبَادِي الَّذِينَ عَامَتُوا يَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَتَّقُوا مَعًا رِزْقَانَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ^(١). ولو تدبرنا ما جاء في كتاب الله من أثر الصلاة في السلوك ، لراخنا هذا الأثر العظيم ، ولعلمنا سر عناية الشرائع السماوية بهذه الشعيرة من شعائر الله ، كما ذكر ربنا في كتابه ، في وسيلة من وسائل القوة الروحية التي تعين المؤمن على ما يصيبه من محن وما يتعرض له من فتن ، وما يعتريه من ضعف في إرادته أمام هجمة الشبهة والشیطان ، يقول تعالى لنبی اسرائیل : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَعَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ } (٤٣) { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } (٤٤) { وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } (٤٥) { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ أَنْهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنْهُمْ إِلَيْهِ رَاٰجِعُونَ }^(٢). ويقول لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ عَامَتُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }^(٣) وهذا التوجيه الرباني يأتي بين أمرين : الأول : بيان المنة العظيمة في أن الله أرسل إلينا رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - يقول علينا كتاب ربنا ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة ، ويعلمنا ما لم نكن نعلم ، والأمر الثاني : هو إظهار فضل المجاهدين في سبيل الله ، الذين رزقوا الشهادة ؛ فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، ولا سبيل للاستفادة من هدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما تحلوه رسالته من خير ، إلا بالصبر والصلاة ..

(١) إبراهيم ١٤ / ٣١

(٢) البقرة ٢ / ٤٣ - ٤٦

(٣) البقرة ٢ / ١٥٣

والصلاة تأتي في آية البر - في سورة البقرة - من جملة خمس عشرة صفة ، من تحقق بيذه الصفات كان صادقا حقا ، ومن المتقين صفاً ، يقول تعالى : {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (١) وحين نهي الله عن الربا وحرمه تحريما قاطعا كأنه أراد أن يدل الناس على طريق إصلاح أنفسهم ، وكيف يستطيعون أن يقلعوا عن هذا الذنب العظيم ، فأتى بين الآيات التي تحرم الربا وتبين عاقبة المرابين بقوله : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (٢) وفي تعريف المؤمنين نرى قول الله تعالى : {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} (٣) ونرى قوله : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (٤) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

(١) البقرة ٢ / ١٧٧ .

(٢) البقرة ٢ / ٢٧٧ .

(٣) المائدة ٥ / ٥٥ .

(٤) الأنعام ٨ / ٢ - ٤ .

وقد جعل الله دليل العقل الناضج، والبصيرة المستنيرة في حملة صفات ذكرها ربنا لأولى الألباب فقال : { أَقْمَنَ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } (١٩) الَّذِينَ يُوَفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَئِنْ يَنْقُضُوا الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } (١) إلى غير ذلك من الآيات التي تجعل الصلاة نورا يضيئ الطريق ، بيا يعتدل السلوك ، وتطمئن النفس ، وينشرح الصدر ، وتقوى العزيمة ، ويشعر المسلم بأنه إنسان إنسان ، مسئول عن دينه وكتابه ونبيه وأمه ، ولإذا جاء التعبير القرآني بإقامة الصلاة إسما ، وفعلا : ماضيا ومضارعا وأمرا ، وما ذلك إلا لأن إقامة الصلاة لاتعنى مجرد أدائها ، والمحافظة عليها ، فهذا جزء من معنى إقامة الصلاة ، إنما إقامتها تزيد على ذلك بالإعلان عنها ، وأدائها في جماعة ، وهذا يتطلب مسجدا وإماما ، والإمام يحتاج إلى معهد وجامعة ليتخرج إماما ، وذلك كله لا يتحقق إلا بقيام نظام إسلامي، وحكم إسلامي ، ودولة إسلامية وأمة مسلمة ، ولعل هذا بعض ما يفهم من بيان علاقة المؤمنين والمؤمنات فيما بينهم ، وأنها علاقة التقاصر والتآزر والمواالات من أجل إقامة منيج الله في أرض الله بما في ذلك من إقامة الصلاة ، حيث يقول ربنا في سورة "التوبة" : { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

(١) السورة ١٣ / ١٩ - ٢٢

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(١) وما يمكن أن يرشد إليه ارتباط التمكن فى أرض الله للمجاهدين فى سبيل الله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من تعاليم الدين ، وذلك قوله تعالى فى سورة الحج : {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}^(٢)

وإلا فكيف تقام الصلاة فى بيوت الله ، وكيف تجمع الزكاة من أهل الإسلام ، وكيف يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون لهذا الأمر والنهى أثره فى واقع الحياة ، وهم شتات لارابطة لهم ، متفرقون شيعا وأحزابا، متعادون متناكرون ، متخاصمون متقاطعون ؟؟؟ وكيف يتم لهم ذلك وهم مقيورون مغلوبون ، لإمرة لهم ولا سلطان ، تسيل دماؤهم أنهارا فى أنحاء الأرض ، ويبادون فى كل مكان ، فلا يترقى لهم أحد ، ولا ينصرهم أحد ؟؟

فيل من عودة كريمة لدين الله ، وما شرع من الصلاة وإقامتها ، لنصلح بهذا الدين ، وتلك الصلاة ما فسد من أمرنا ، وما انحرف من أخلاقنا، وما ساء من أحوالنا ؟؟

وإذا كان هذا هو أثر الصلاة فى الأخلاق ، فإين هناك شعيرة أخرى من شعائر الله وثيقة الصلة بالصلاة ، وهى عنوان قبول الصلاة

(١) التوبة ٦ / ٧١

(٢) الحج ٢٢ / ٤١

وما أودعته في النفس من رقة المشاعر ، ورهافة الحس ، فانطلق صاحبها رحيمًا بالخلق ، وجود عليهم بفضل ما أعطاه الله ، إنشأ الزكاة .. ومن اسمها ندرك أثرها المحمود في الإنسان ، في تركه ، أي تطهيره من ضيق النفس ، والشح والبخل ، وترتفع به إلى عالم الرحمة والبركات والخيرات ، فتراه منشراح الصدر ؛ هادئ النفس سعيد القلب ، منبسط الأسارير ؛ فرحًا بتوفيق الله له ، أن أدخل على القلوب المكشوفة الفرحة ، وعلى الجباه المقطبة البهجة ، وعلى الوجوه العابسة السعادة ..

وقد وردت كلمة " الزكاة " في القرآن الكريم اثنتين وثلاثين مرة ، منها موضعان لا يتعلقان بالزكاة من حيث هي إخراج مال معلوم من مال معلوم على وجه القربى إلى الله عز وجل ، وأول الموضعين في سورة الكهف ، في قصة الغلام الذي قتله الخضر مما أثار غضب موسى - عليه السلام - فقال : { أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا } فأوضح له الخضر سبب ما فعل فقال : { وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا } (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا } (١) والموضع الثاني في سورة مريم " في قصة زكريا - عليه السلام - وبشارة الله له ب يحيى وقول الله في يحيى : { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَعَاصِيًا هَذَا الْحُكْمُ صَبِيًّا } (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا } (٢)

(١) الكيف ١٨/ ٧٤ ، ٨٠ ، ٨١

(٢) مريم ١٩ / ١٣

وحينما ذكرت الزكاة بعد ذلك ذكرت معها الصلاة إلا في ثلاثة مواضع ، أولها : في الأعراف ، في قول الله تعالى : { وَرَحِمْتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَاكُنْ بِهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ { (١) وثانيها : في "الروم" ، حيث يقول تعالى : { وَمَا عَاتَيْنَا مِنْ رَبٍّ لَحِيقًا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيحُو عَنْهُ اللَّهُ وَمَا عَاتَيْنَا مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ } (٢) وثالثها : في سورة "قصص" في قوله تعالى : { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } (٣)

وهي حين تذكر مع الصلاة تذكر مقترنة بها ، اسما وفعلًا : ماضيا أو مضارعا أو أمرا هكذا : " والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة " وأقام الصلاة وآتى الزكاة " الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة "

إلا في "المؤمنون" ، فقد جاءت مفصولة عنيا : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } (٤)

وبهذا الجمع الشامل لكلمة "الزكاة" في القرآن ، يتضح لنا ما لنا من منزلة في دين الله، ومالنا من ارتباط وثيق بالصلاة ، فهي عنوان ما

(١) الأعراف ٧ / ١٥٦ ، ١٥٧

(٢) الروم ٣٠ / ٣٩

(٣) قصص ٤١ / ٦ ، ٧ .

(٤) المؤمنون ٢٣ / ١ - ٤

أحدثته الصلاة من تغيير في القلب والمشاعر ، وقد يكون من اليسير على كثير من الناس أداء الصلاة في مواقيتها ، بل والإكثار من نوافلها ، ولكنهم إذا دعوا إلى إخراج زكاة أموالهم نكسوا على أعقابهم ، ووجدوا حرجا شديدا في صدورهم ، ولم يستطيعوا القيام بها ، وما ذلك إلا لأن المال شقيق النفس ، بل قد يضحي المرء بنفسه في سبيل ماله ، ولهذا قدمه الله في الذكر على النفس في الآيات التي تدعو إلى الجهاد بالمال والنفس ، فقال : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ }^(١) وقال : { الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ }^(٢) وقال { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }^(٣) إلى غير ذلك من الآيات ، بل إن المال مقدم على الروح ، كما قال تعالى : { الْفَسَالُ وَالْبُتُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }^(٤) والله عز وجل الذي خلق الإنسان وهو أعلم بمن خلق ، يقسم على شدة محبة الإنسان للمال فيقول : { وَإِنَّهُ لَحُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ }^(٥) والخير هنا هو المال ، ولذلك لابد من محاربة النفس حتى تفيض برا وكرما ، وتعطى ما أوجب الله على أهل الإيمان من حقوق في أموالهم ، ولا يكون هذا إلا إذا أحيا المؤمن في قلبه ووجدانه

(١) الأنفال ٨ / ٧٢

(٢) التوبة ٩ / ٢٠

(٣) التوبة ٩ / ٤١

(٤) الكهف ١٨ / ٤٦

(٥) العنكبوت ١٠٠ / ٨

وأحاسبه ما جاء به كتاب الله من بيان لحقيقة المال ومن أين جاء ؟
ومن المالك الحقيقي له ، ومدى عطاء الله لخلقه من ذلك ، والمال - فى
الحقيقة - مال الله ، فير الذى أنزل الماء ، وأجرى الهواء وأنبت النباتات
وهنا الأسباب حتى خرج الزرع من الأرض : { عَأْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الزَّارِعُونَ } (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ } . (١)

والإنسان مستخلف فى هذا المال : { عَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا
مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا سُبْحَانَ اللَّهِ عَنِ
كَبِيرٍ } . (٢)

وهو لا ينال حظه من هذا المال لأنه ذكى أو قوى ، ولكنه محض
الفصل من الله الوهاب : { اللَّهُ غَفِيرٌ غَفِيرٌ يُرْزَقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ } . (٣)

فلم لا يخرج زكاة ماله ؟ بل لم لا يجود بأكثر من الزكاة إذا ما دعت
الضرورة لهذا ؟ وهو على ثقة من وعد الله له بالمزيد ، كما قال : { مَنْ
ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ
وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (٤)

إن الزكاة مدرسة يتعلم فى رحابها أهل الإيمان كثيرا من الأخلاق

(١) الواقعة ٥٦ / ٦٤ ، ٦٥

(٢) الحديد ٥٧ / ٧

(٣) التورى ٤٢ / ١٩

(٤) البقرة ٢ / ٢٤٥

الحميدة ، كالكرم والسخاء والجود والنجدة والزجولة والمروءة ، كما يتعلمون كيف ينتصرون على هوى النفس ، وما ركب قبيها من شح ويخل وضيق وأثرة وحب للمال والدنيا ، وبالزكاة تسود أخلاق التراحم والتواصل والتآخي والبر والتعاون ، وتختفى أخلاق ذميمة فاسدة : كالحقد والحسد والضغينة والكراهية والإثم والعنوان ، وهذا كله مما حرفة المسلمون الأوائل فكانوا أسعد الناس ، وأسعد المجتمعات ، ويمكن الله لهم في الأرض ، كما قال عز من قائل : { اَنْذِیْنَ اِنْ مَكَسَاهُمْ فِی السُّبُلِ اَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلّٰهِ عَاقِبَةُ الْاُمُورِ } (١)

الصَّیَامُ :

هذا هو الصيام ، منیج أخلاقی لتربية الإنسان على محاسن الأخلاق ، فرضه الله على المسلمين فى شعبان من العام الثانى للهجرة بقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .. الآية وما بعدها من سورة البقرة ، إلى قوله : { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } (٢)

وهذه الآيات تمثل المنیج الإسلامى فى تربية الأمة والتدرج بها فى الالتزام بشرع الله ، فقد كان الصيام - أول ما شرع - على سبيل التخيير للقدار : من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا ، كما قال تعالى : { وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ

(١) الحج ٢٢ / ١

(٢) البقرة ١٨٣ - ١٨٧

خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون { ثم أوحى به الله على كل مستطيع ورخص فيه لأصحاب الأعذار ، قال تعالى : { فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر .. }

وكان إذا أفطر المسلم بغروب الشمس إنما كان يحل له مسا كان مُحَرَّمًا بالصيام إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك ، فمن نام أو صلى العشاء ، حُرِّم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا لذلك مشقة شديدة إلى أن يسر الله عليهم وأنزل قواك : { أَجَلُكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ } (١)

كما فرض الله الصيام كفارة في القتل الخطأ وفي الظيार وفي من واقع امرأته في نهار رمضان وفي من حنث في يمينه ، وفي بعض المخالفات التي يقع فيها الحاج ، كما سن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صيام بعض الأيام كيوم عرفة ويوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر ، وما إلى ذلك مما جاءت به السنة المطهرة .

والملاحظ فيما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن هذه التوجيهات لم تكن إلا في المدينة ، فهل يحتاج الصيام إلى إقامة مجتمع له قيادته وسلطانه حتى يتمكن المسلمون من الصيام ؟ أما كان يكفي أن يأمر الله المسلمين في مكة بالصيام ليصوموا ؟ فما الصوم إلا امتناع عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر

(١) البقرة ٢ / ١٨٧

إلى غروب الشمس .

إن الصيام كما هو تربية للفرد على جملة من الأخلاق النبيلة ، هو كذلك منبج حياة لأمة الإسلام ، وكلا الجانبين لاغنى عنهما فى نظام الإسلام ، إذ ماذا يكون عليه الموقف معنى يتعدى حدود الله ويفطر فى نيار رمضان ؟ ألا يحتاج إلى من يحاسبه على هذا الجرم ؟ وهذا لايتحقق إلا بإقامة سلطان بيده القوة التى تحمى شريعة الله ؛ والتى تمتت فى المجتمع المذنى فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما أقام منى سلطات إدارية فى كل جانب من جوانب حياة الأمة ؛ كما أن الصيام يحتاج إلى من يعلن ابتداءه بتحديد أول ليلة من رمضان ، وانتهاءه بغروب شمس آخر يوم فيه ، بالإضافة إلى تحصيل زكاة الفطر ، وما هناك من سنن تقام كصلاة التراويح ، والتى صلاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عدة ليال ثم أخذ يصليها فى بيته ، خشية أن تفرض على المسلمين ، فأخذ المسلمون يصلونها فرادى حتى كانت ثلاثة عشر - رضى الله عنه - فجمعهم على أبى بن كعب - رضى الله عنه - وهناك صلاة العيد ، وفيها يخرج إمام المسلمين ليصلى بسلم ويخطب فيهم ، وفى هذا الجو العبق يعطر الإيمان يسود التواضع والكافل الاجتماعى ، والرسول - صلوات الله وسلامه عليه - يدفع بهذه الأخلاق إلى أعماق النفس المؤمنة وهو يبين مافى رمضان من الخير وأن فيه تفتح أبواب الجنة وتغلق أبواب النار ، وتغل الشياطين ، وأن من أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وأن من فطر فيه صائما - ولو على تمر أو شرب - كان له من الأجر مثل أجر هذا الصائم .

وفى مدرسة الصيام يتعلم المسلم كبح جماح شهواته ، شهوة البطن وشهوة الفرج وشهوة اللسان وشهوة الانتصار للنفس ، ويتعلم كيف يكظم غيظه ، ويعفو عن أساء إليه ، ففى الحديث عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : { الصيام جنة ، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم - مرتين - والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، الصيام لى وأنا أجزى به }

يقول الإمام محمد عبده : (الصوم يعد نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى ، ويظهر ذلك من وجوه كثيرة ، أعظمها شأننا وأنصعها برهاننا ، وأعظمها أثرا وأعلاها خطرا أنه أمر موكول إلى نفس الصائم لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى ، وسر بين العبد وربّه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه ، فإذا ترك الإنسان شهواته ولذاته التى تعرض له فى عامة الأوقات لمجرد الامتثال لأمر ربه والخضوع لإرشاد دينه مدة شهر كامل فى السنة ملاحظا عند عروض كل رغبة له من أكل نفيس وشراب عذب وفاكية يانعة وغير ذلك أنه لولا اطلاع الله تعالى عليه ومراقبته له لما صبر عن تناولها وهو فى أشد التوق لها ، لاجرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة والحياء منه سبحانه وتعالى أن يراد حيث نياه، وفى هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى والابتغراق فى تعظيمه وتقديسه ، أكبر معد للنفوس ومؤهل لها لسعادة الآخرة ، وكما نزهل هذه المراقبة النفوس المتحلية بيا لسعادة الآخرة

تَوَهَّلَهَا لِعَادَةِ الدُّنْيَا أَيْضًا .. انْظُرْ هَلْ يَقْدَمُ مِنْ تَلَايِسِ هَذِهِ الْمُرَاقِبَةِ قَابِلُهُ عَلَى غَشِّ النَّاسِ وَمَخَادَتِهِمْ ؟ هَلْ يَسْهَلُ عَلَيْهِ أَنْ يَرَاهُ اللَّهُ أَكَلًا لِأَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ ؟ هَلْ يَحْتَالُ عَلَى أَكْلِ الرِّبَا ؟ كَلَّا .. إِنْ صَاحِبَ هَذِهِ الْمُرَاقِبَةِ لَا يَسْتَرْسِلُ فِي الْمَعَاصِي إِذْ لَا يَطُولُ أَمَدُ غَفْلَتِهِ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِذَا نَسِيَ وَالْمُ بَشَى مِنْهَا يَكُونُ سَرِيعَ الْفِيءِ وَالرَّجُوعِ بِالتَّوْبَةِ الصَّحِيحَةِ ، قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (١) .

الحج :

وردت كلمة " الحج " في القرآن في عدة مواضع :

في سورة البقرة : في قوله { إِنْ الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ مِنْ شُعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا .. } الآية

وفي قوله : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِفُ النَّاسِ وَالْحَجِّ .. } الآية {

وفي قوله : { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ .. } الآية وما بعدها ، من قوله : { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. } (٢)

(١) أركان الإسلام الحسة وأثرها في حياة الأفراد والجماعات : د / يحيى الدرديري ص ١١٦ ، والآية من سورة الأعراف ٧ / ٢٠١

(٢) البقرة ٢ / ١٥٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧

وفي آل عمران : فى قوله : { وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا .. الْآيَةِ } (١)

وفي التوبة : فى موضعين :

١- فى قوله : { وَأَذِّنْ مِنَ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللّٰهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ } (٢)

٢- فى قوله : { أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. } (٣)

وفي سورة الحج : فى قوله : { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ .. الْآيَةِ وما بعدها } (٤)

كما وردت آيات فى تعظيم شعائر الحج والشير الحرام والبيت الحرام ، وما إلى ذلك مما يتعلق بالحج وشعائره ، والبيت الحرام وما فيه ، وما حوله ، ونحن لاندرس ما فى الحج من أحكام (٥) ، إنما ندرس ما للحج من أثر محمود فى التربية الأخلاقية للفرد والجماعة .

(١) آل عمران ٩٧ / ٣

(٢) التوبة ٣١٩

(٣) التوبة ٩ / ١٩

(٤) الحج ٢٢ / ٢٧

(٥) انظر فى بيان ذلك : الحج فى القرآن الكريم : دراسة موضوعية لآيات الحج فى القرآن

الكريم - للمؤلف ط الأولى - مطبعة الحضارة بالقجالة - بالقاهرة - ١٣٩٨ هـ

١٩٧٨ م .

وجماع هذه الأخلاق يلخصها قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه)^(١)

فيذا معناه أن من أدى الحج ملتزما بأحكامه وآدابه رجع نقيا طاهرا كيوم ولدته أمه ، لا يعرف الكذب ولا الغش ولا الدهاء ولا الخبث ولا الالتواء ولا الحقد ولا الحسد ، إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة التي لا يعرفها المولود الذي بدأ عيده بالحياة نقيا طاهرا ، وهكذا الحاج يبدأ صفحة جديدة بعد حجه ، أساسيا الالتزام الكامل بمنهج الله ، والتخلق بأخلاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الاقتداء بسلف الأمة الصالح.. من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن بعدهم من الصالحين وإن لم يفعل فيذا معناه أنه لم يؤد حجه على الوجه الصحيح ..

وحين نتساءل : كيف وصل الإسلام بفريضة الحج إلى هذا المستوى الرفيع في أخلاق أهل الإيمان وسلوكهم ؟ وكيف كان الحج معلما يمتدئ به أهل الإسلام ليندأوا بعده مرحلة جديدة في حياتهم ، وكأنهم ولدوا من جديد؟؟

إن ذلك يبدأ من أول لحظة تتوفر فيها للمسلم شروط الاستطاعة من الزاد والراحلة وأمن الطريق والقدرة البدنية على السفر وأداء المناسك ، إنه يلبي نداء الحنين الذي يملك عليه حسه وشعوره لرؤية الكعبة المشرفة وأنطواف حولها ، وما هذا الحنين إلا استجابة وإكراما للنبي المجاهد الصابر المحتسب ، نبي الله إبراهيم الخليل - عليه السلام - حين أودع هاجر وإسماعيل وحيدين في مكان لا أنيس فيه ولا طعام ولا شراب .

(١) متفق عليه

وودعهما وهو يتجه إلى الله بكل كيانه ، يدعو في ضراعة : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) إلى آخر هذا الدعاء الخاشع الذي ذكره الله في سورة إبراهيم

والمسلم حين اتجه فؤاده إلى ربه ، وقد عقد النية على الحج يشعر بالصفاء والشفافية والنورانية ، ويبدأ في مراجعة ما مضى من أيام عمره ليعرضها على ما جاء به دينه فيتوب إلى الله مما أخطأ فيه ، ويوثق عرا الإيمان والإصرار على الطاعة وسلوك طريق ربه فيما كان يؤديه من الأعمال الصالحة ، وفي استعداده للسفر يتحرى المال الحلال ، لأنه يعلم أن حجه بمال حرام غير مقبول ، كما أخبر بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وتحري الحلال باب للأمانة والصدق ، والخوف من الله عز وجل ، وما إلى ذلك من التخلق بالأخلاق الربانية .

وقبل خروجه لابد من رد المظالم والحقوق لأصحابها ، وهو بذلك يوثق عرا المحبة والأخوة مع مجتمعه وأمته ، ويعود إنسانا متواضعا لا يبغي على أحد ، ولا يعتدى على حق أحد .

وهاهو ذا يودع أهله وأحبابه ، فيذكر وداعهم له إلى مثواه الأخير ، فتيمون عليه الدنيا بما فيها من زينة ومتاع، وينطلق مع إخوانه مسافرا إلى بيت الله الحرام، فيتعلم في سفره آداب الصحبة والقيام بحق أهل الإيمان .

وعند الميقات اغتسل وتطهر ولبس ملابس الإحرام ، وصلى ركعتين ولبي بحج أو بعمرة أو بحج وعمرة ، وفي كل عمل من هذه الأعمال تربية أخلاقية ، يهدو فيها نور هذا الدين متلئلا في سلوك

المؤمنين ، تراه طهرا وتجردا وإخلاصا وتواضعا ، ومساواة جمعت بين حجاج بيت الله ، إذ تجردوا من كل زينتهم ولبسوا لباسا واحدا فلا فرق بين غنى وفقير ، ومملك ورعية ، وعربى وعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح . نداؤهم واحد : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، وجنتهم واحدة ، وقبلتهم واحدة ، وغايتهم جميعا مرضاة ربهم ، وهكذا فى كل موقف ومشيد ، فى منى وعرفات والمزدلفة ، فى طوافهم وسعيهم ، ورميهم للجمرات ، ونحرهم لهديهم وأضحياتهم ، وتصدقهم ، فى كل خطوة وكل حركة ، بسل وكل سكون ، لسانهم رطب بذكر الله ، وقلوبهم متعلقة بمولاهم ، إنهم حين يعودون من حجهم يعودون بقلوب طاهرة ونفوس مطمئنة وأخلاق كريمة ، وسلوك مشرق بنور الله ، إنهم عادوا أنقياء من كل درن كما ولدتهم أمهاتهم .

فيل هناك مثل هذا المنهج الإلهي فى سموه وعظمته وقدرته على بناء الإنسان ؟ وهل الإنسان إلا بأخلاقه ؟ وهل تبقى أمة بدون أخلاق سامية ؟ :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولا وجود لهذه الأخلاق الكريمة إلا فيما أتى به كتاب الله وأرساه منهجا عمليا وسلوكا واقعيا رسول الله : محمد - صلى الله عليه وسلم - وكان فيما شرعه الله من عبادات ما رأيناه من أثر فى غرس الأخلاق الفاضلة فى أعماق النفس البشرية ، فما أعظم هذا الدين ، وما أكرم ربنا الذى أرسل لنا رسله وأنزل لنا كتبه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

٤ قيم خُلقية في القرآن :

١ - التعاون

٢ - الوفاء

قيم خلقية في القرآن :

اتضح لنا - إذاً - أن مكارم الأخلاق من أهداف شريعة القرآن، وأن ما جاء في كتاب الله من غرس للإيمان في القلوب كان له أعظم الأثر في سلوك أهل الإيمان ، وأن ما شرعه الله من صلاة وزكاة وصيام وحج كان البلم الذي أضفى على الحياة بهجتها ورونقها ، وكان الدواء الناجع لأمرائها وعاليتها ، وأنه ما من خلق كريم إلا وجاء كتاب الله يدعو إليه ، ويرغب فيه ، وما من خلق وضعيف إلا خوف منه وبين فساد وحذر منه ، وحسبنا في هذه العجالة أن نتناول اثنين من تلك الأخلاق النبيلة ، والقيم العظيمة ، وهما :

٢ - الوفاء .

١ - التعاون

ولنبداً بأولهما وهو : التعاون :

فما هو التعاون ؟ وماذا جاء في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - من حديث عن التعاون ؟ وما هو التعاون المحمود ، وما هو التعاون المذموم ؟ وماذا في الحياة من صور التعاون ؟ وما أثر هذا وذلك في حياة بني الإنسان ؟ وما مدى حاجتنا إلى التعاون ؟؟

١ - ماهو التعاون :

تذكر كتب اللغة أن التعاون هو أن يعين بعضنا بعضاً ، أي أن يكون كل منا سداً وقرة للآخرين ، يقول ابن منظور في لسان العرب :

"العونُ : الظهير على الأمر ، وتعاوننا : أعان بعضنا بعضا ، قال الليث :
كل شيء أعانك فهو عون لك " (١)

ولم يذكر ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة شيئا عن ذلك ، ولكنه فى
مجلد اللغة " قال : العون : الظهير على الأمر " (٢)

وفى القاموس المحيط : " تعاونوا واعتنوا : أعان بعضهم
بعضا " (٣) وفى المعجم الوسيط : أعانه على الشيء : ساعده ، وتعاون
القوم : عاون بعضهم بعضا ، والتعاون فى علم الاقتصاد : مذهب
اقتصادى شعاره : الفرد للجماعة ، والجماعة للفرد ، ومظيره : تكوين
جماعات للقيام بعمل مشترك لمصلحة الأعضاء والاستغناء عن
الوسيط " (٤)

٢ - ماذا جاء فى كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله
عليه وسلم - من حديث عن التعاون ؟؟ :

إذا كان هذا هو التعاون فى لغة العرب ، وأنه يعنى بذل أقصى
الجهد فى مساعدة الآخرين على تحقيق أهدافهم من دفع الضرر عنهم

(١) انظر لسان العرب : لابن منظور - دار صادر - بيروت - ١٣ - ص ٢٩٨

(٢) انظر / مجمل اللغة : لابن فارس - تحقيق الشيخ هادى حسن حمودى منشورات
معبد المخطوطات العربية ط الأولى بالكويت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م - ح ٣ مادة /

ع ، و ، ن .

(٣) القاموس المحيط : للفيروز ابادى ط دار الحديث - القاهرة ج ٤ - ص ٢٥٠

(٤) المعجم الوسيط ج ٢ ص ٦٣٨ ط الثانية مطابع دار المعارف - ١٣٩٣ هـ
١٩٧٣ م .

وجلب الخير لهم ، فإن القرآن الكريم جاء يؤكد هذا الأمر ويقيمه على مبادئه الربانية ، فى دوافعه ووسائله وغاياته ، كما هو شأنه فى جميع ما أرسى من أخلاق كريمة ، فقد عرفت البشرية ألوانا من التعاون ، ولكنه ليس محكما بمنهج الله ، وليذا ضل طريقه ولم يؤد غايته ، لأنه قد يكون تعاونا على الشر والضرر ونصرة الباطل ، تدفع إليه عنصرية بغيضة ، وطائفية ضيقة : كما كان من حال العرب قبل الإسلام : لايسألون أخاهم حين يندبهم فى الثغبات على ما قال برهانا

فهم ينصرون ابن قبيلتهم ولو كان ظالما ، وقد جاء فى الحديث : انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قال رجل يارسول الله أنصره إذا كان مظلوما ، أريت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال : تحجزه ، أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره " (١) وفى العصر الحديث ، وفى شياى حملة راية الجهاد الإسلامى ، يتعاون دعاة الشر تحت مظلة الشرعية الدولية لضرب المسلمين وإبادتهم فى كثير من بلاد العالم ، مما هو مشاهد لا يحتاج إلى دليل ، ولما كانت البواشخ خبيثة كانت الوسائل أشد خبثا ، فكان القتل وانتياك الأعراض واستعمال أسلحة الدمار والخراب والجراثيم والأمراض والتشويه وما إلى ذلك من وسائل تنم عن حقد دفين على الإسلام وأهله ، وكانت الغايات كذلك وضيقة ، إذ هى استئصال المسلمين ، والقضاء على هذا الدين ، حتى تظل لهم بلاد الإسلام لينهبوا خيراتها ، وكم فيها من خيرات ، وليحققوا لأنفسهم حياة مترفة على حساب دماء المستضعفين فى أرض الله ..

(١) رواد البخارى عن انس - رضى الله عنه .

فلننظر فيما جاء في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - من هَدَى كريم يجعل التعاون بين الناس عنواناً لإنسانية الإنسان ، ودليلاً على العبودية لله ، وتحقيقاً للسعادة التي هي غاية الإنسان في هذه الدنيا ، ليصل بها إلى سعادة الآخرة ..

هذا هو كتاب الله يذكر مادة : العين ، والواو ، والنون (عون) في أحد عشر موضعاً ، منها ثلاثة في البقرة : " واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين " " يأياها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين " وفي الآيتين بيان لوسيلة الانتصار على النفس وما يعترىها من فتور وكسل وضعف يجعلها تتحرف عن منهج الله ، أو لا تنشط لعبادة الله ، فقد جاء الموضع الأول في عتاب الله لبني إسرائيل ، إذ يقول تعالى لهم : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ ثم يقول : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين)

وفي الموضع الثاني : إرشاد للأمة المسلمة التي بُعث فيها محمد - صلى الله عليه وسلم - وكيف تستعين على نفسها وضعفها لتستقيم على منهج الله الذي جاء به رسولها ، وذلك بالصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي ، وبالمحافظة على الصلاة فيقول تعالى : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (١٥١) فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا

تَكْفُرُونَ) ثم يأتي قوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)^(١) ليبين أن الإيمان بالله وبالإسلام ديننا ويمحمد - صلى الله عليه وسلم - نبيا ورسولا ، هو الأساس الذي يقوم عليه البناء ، وهو الدافع الذي يدعو المؤمنين إلى بذل جهدهم واتخاذ الصبر والصلاة مطية لبلوغ غاياتهم وتحقيق آمالهم في الالتزام بما جاء به كتاب ربهم ، وما علمهم إياه رسولهم - صلوات الله وسلامه عليه - والله سيكون عوناً لهم على ما طلبوا : إن الله مع الصابرين .

أما الموضع الثالث في سورة البقرة فلا يدخل معنا في الحديث عن التعاون ، لأنه وصفت البقرة التي أمر الله بنى إسرائيل أن يذبحوها وأن يأخذوا منها عضوا ليضربوا به القتل الذي لم يُعرف قاتله ، قال تعالى : "قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَّلَ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ"^(٢) ومعنى أنها عوان : أى لأكبيرة ولا صغيرة ، إنما هي بين بين .

وفى " المائدة " يقول الله تعالى " (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)^(٣) وعند هذا التوجيه الإلهي سوف تكون لنا وقفات - بإذن الله .

(١) البقرة ٢ / ٤٤ ، ٤٥ ، ١٥١ - ١٥٣

(٢) البقرة ٢ / ٦٨

(٣) المائدة ٥ / ٢

وفى " الأعراف " بيان لسنة الله فى التمكين فى الأرض ؛ وأن وسيلة ذلك اللجوء إلى الله بالعمل الصالح ، والصبر على مشقات الجهاد فى سبيل الله ، وترويض النفس على طاعة الله والانقياد له ، وذلك ما جاء فى قول الله تعالى على لسان موسى - عليه السلام - : (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (١)

وفى " يوسف " و " الأنبياء " وصف لله بأنه المستعان، أى الذى يطلب منه العون ، وقد جاء ذلك فى قول الله تعالى على لسان يعقوب - عليه السلام - حين عاد إليه أبناؤه بعد القائيم لأخيهم يوسف فى الحب : (وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (٢) كما جاء فيما قال الله على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - فى آخر " الأنبياء " : (قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (٣)

وهذه الاستعانة التى طلبها نبي الله يعقوب - عليه السلام ، وطلبها نبي الله محمد - صلى الله عليه وسلم ، هى مايقوله المسلم ، وهو يرتل آيات سورة الفاتحة فى كل ركعة من ركعات الصلاة فيقول : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

(١) الأعراف ٧ / ١٢٨

(٢) يوسف ١٢ / ١٨

(٣) الأنبياء ٢١ / ١١٢

بقى لنا في دراسة الآيات موضع في سورة " الفرقان " يتحدث
عن تعاون موهوم أملاه جهل المشركين وافتراؤهم على الله حيث نظروا
إلى القرآن الكريم وما فيه من بلاغة وفصاحة أعجزتهم ، مع أن
المتحدث به أمي لا يقرأ ولا يكتب ، فمن أين أتت له هذه الآيات بكل ما
فيها من إعجاز ؟ ولم يدركوا أن الذي أنزل هذا القرآن هو الذي يعلم
السّر في السموات والأرض ، وأن هذا ليس من كلام محمد - صلى الله
عليه وسلم - الذي لبث فيهم - قبل أن يوحى إليه - عمرا طويلا لا يدري
ما الكتاب ولا الإيمان ، ولذلك توهموا أن هناك من يعينه على أن يأتي
بهذا القرآن ، قال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهِ
وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا)^(١)

وهناك في " الكيف " بيان لما يصنعه التعاون من تحقيق الخير
ودفع الشر ؛ وذلك ما ذكره الله في قصة ذي القرنين ، الذي مكن الله له
في الأرض وآتاه من كل شيء سببا ، يقول تعالى : {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ
السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} (٩٣) قَالُوا يَا
الْقَرْنَيْنُ إِنَّا يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا
عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ
فَأَعْيُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِي زَبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا
سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ
عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا
(٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعَذُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ
رَبِّي حَقًّا^(٢)

(١) الفرقان ٢٥ / ٤

(٢) الكيف ١٨ / ٩٣ - ٩٧

فيذا عمل مبعثه الإخلاص لله ، ترى ذلك في قوله في بداية العمل ، وفي نهاية العمل : " قال هذا رحمة من ربى .. الآية " وفي قوله : " قال ما مكنتى فيه ربى خير " ووسيلة تحقيقه : تعاون بين ذى القرنين وهؤلاء القوم ، وذلك ما نلحه فى قوله : " فأعينونى بقوة " ، " آتونى زُبُر الحديد " ، قال انفخروا " ، " آتونى أفرغ عليه قِطْراً " وغايته : تحقيق الأمن ليؤلاء المستضعفين الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمام هجمات يأجوج ومأجوج وظلمهم وإفسادهم فى الأرض .. " فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا " .

٣ - ما هو التعاون المحمود ؟ وما هو التعاون

المذموم ؟

يعبر عن ذلك أصدق تعبير قول الله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَئِن تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) ^(١) وهذا التعاون مبنى على الإيمان بالله ، وما فى هذا الإيمان من إيمان بملائكة الله ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، بكل ما فى هذا اليوم من بعث وحشر وحساب وجنة ونار إلى غير ذلك مما فى هذا اليوم ، كما سبق فى بيان ترابط الأخلاق بالعقيدة .

ولذلك يلىق هذا الأمر ، وذلك النهى فى آية مبدوءة بقوله " يا أيها الذين آمنوا " وعقب هذا الأمر وذلك النهى قوله : " واتقوا الله إن الله شديد العقاب " ومع ما فى ذلك الأمر ، وذلك النهى من إيجاز ، فقد جمع

(١) المائدة ٥ / ٢

كل ما يجب أن يكون فيه التعاون المحمود ، وكل ما يجب ألا يكون فيه التعاون لأنه مذموم^(١)، فإن كلمتى البر والتقوى تجمع الخير كله ، وكلمتى الإثم والعدوان تجمع الشر كله .. فالتدبر هذه الكلمات الأربع لنرى حقيقة ذلك ..

"فالبر" فى كلام العرب يعنى عدة أمور ، منها : الصدق والطاعة والصلاح والخير وكل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل ، وقد وردت كلمة : البر " بكسر الباء " فى ثمانى مواضع من القرآن الكريم ، وكلمة "الأبزار" فى ست مواضع ، ووردت جمعا فى سورة " عبس " وصفا للملائكة : " بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١)"

كما وردت بيانا لما كان عليه كل من يحيى وزكريا - عليهما السلام - من بر كل منهما بأمه ، ولنقرأ فى ذلك قصتهما فى سورة "مريم"

كما جاءت بفتح الباء " البر " مرة واحدة، وصفا لله سبحانه : " إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ " (٢) أى العطوف على عباده ببره ولطفه .

وجاء من مادة " البر " الفعل المضارع ، مرتين : فى البقرة : (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ) (٣) وفى " الممتحنة " : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ

(١) عبس ٨٠ / ١٥ ، ١٦ .

(٢) الطور ٥٢ / ٢٨

(٣) البقرة ٢ / ٢٢٤

يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم.. (١)

ولعل أجمع آية في بيان ما يعنيه البر وما يجب أن يكون عليه أهل الإيمان من الصفات والأفعال والأقوال ليكونوا من الأبرار ، ما جاء في سورة البقرة ، من قوله تعالى : (ليس البر أن تؤلوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من عامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وعاتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وعاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (٢) فهذه الآية - كما يقول العلامة الألوسي : جمعت خمس عشرة خصلة ، ترجع إلى ثلاثة أقسام : فالخمس الأولى : تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل صحة الاعتقاد ، وهي الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، والسنة التي بعدها تتعلق بالكمالات النفسية ، التي هي من قبيل حسن معاشره العباد ، وأوليا : وآتى المال .. وآخرها " وفي الرقاب " والأربعة الأخيرة تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل تهذيب النفس ، وأوليا : " وأقام الصلاة " وآخرها " وحين البأس " يقول الإمام الألوسي : ولعمري من عمل بهذه الآية ، فقد استكمل الإيمان ، ونال أقصى مراتب الإيقان (٣)

(١) الممتحنة ٦٠ / ٨

(٢) البقرة ١٧٧ / ٢

(٣) روح المعاني : للألوسي ٨ / ٢

وقد جاءت السنة المشرفة مؤكدة ومقررة لهذه المعاني ، ومبينة الطريق المؤدى إليها ، ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً (١)

وهناك بر الوالدين ، وبر الأهل والأقارب ، ومحبة الله للأبرار الأتقياء الأخفياء " (٢) . " والناس رجالان : برّ تقى كريم على الله ، وفاسق شقى هين على الله .. " (٣) " والبر : ما طمأنت إليه النفس ، أو ما اطمأن إليه القلب " " والبر : حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك " ..

من هذا وغيره - وهو كثير في سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتضح لنا أن البر هو أعلى درجات الإيمان ، بل هو درجة الإحسان التي جاءت في حديث جبريل حين سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال له في الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. وعلى أهل الإيمان أن يبذلوا قصارى جهدهم - متعاونين فيما بينهم - إن كانوا مؤمنين حقاً ،

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي - واللفظ من رواية الترمذي

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن .

(٣) رواه الترمذي في التفسير

لجعل هذا الدر - بكل ما فيه من خير للأفراد والجماعات - واقعا ملموسا في حياتهم .. لينالوا السعادة في الدنيا والآخرة .

أما التقوى : فهي الأمر الثاني الذي أمر الله المؤمنين بالتعاون من أجل تحقيقه ^(١) ، وهذه الكلمة مؤلفة من : الواو ، والقاف ، والياء ، وهي كما يقول ابن فارس : كلمة واحدة تدل على دفع شيء عن شيء بغيره ^(٢) فأنت تدفع عن نفسك عذاب النار بالإيمان والعمل الصالح ، وتدفع التهمة عن نفسك بالابتعاد عن مظان الشبهات .. وهكذا

وقد وردت كلمة التقوى في القرآن ٢٤٣ مرة ، وما ذلك إلا لما لنا من منزلة في دين الله ، فهي غاية الغايات ، وإذا كان الله قد خلق الخلق لعبادته، فإن عبادته من أجل تقواه ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ^(٣) . وهي الهدف مما شرع : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ^(٤) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ^(٥) وهي وصية الله لنا ولأهل الكتاب من قبلنا ، قال تعالى : (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ) ^(٦)

والمتقون هم أصحاب الصفات العظيمة ، وما ذكرناه في صفات

(١) انظر / فصل : إن الله يحب المتقين - من كتاب : المسلم في عالم اليوم - المؤلف

(٢) معجم مفاتيح اللغة : لابن فارس ٦ / ١٣١

(٣) البقرة ٢ / ٢١

(٤) البقرة ٢ / ١٧٩

(٥) البقرة ٢ / ١٨٣

(٦) النساء ٤ / ١٣١

الأبرار نذكره في صفات المتقين ، فقد حُتمت آية البر بقوله : ' أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ' فالمتقون هم الأبرار وهم الصادقون .

وفي السنة وأقوال السلف - في بيان التقوى وأثارها في إصلاح الأفراد والمجتمعات - الكثير ليذا جاء الأمر للمؤمنين بالتعاون لتحقيق تلك الغايات النبيلة ، والأهداف العظيمة التي حملتها هذه الكلمة .. وفي مقابل هذا الأمر بالتعاون على البر والتقوى ، يأتي النهي عن التعاون على الإثم والعدوان ..

و ' الإِثْم ' في اللغة هو : البُطْءُ والتأخر ، يقال : ناقصة آثمة ، أي متأخرة ، والإِثم : مشتق من ذلك ، لأن ذا الإِثم بطيء عن الخير متأخر عنه " (١) . وقال ابن منظور : الإِثم : الذنب وقيل : هو أن يعمل ما لا يحل له ، وتأنم الرجل : تاب من الإِثم واستغفر منه .. " (٢)

وقد وردت مادة " الإِثْم " في القرآن ٤٨ مرة ، ولو تأملت في الآيات التي وردت فيها ، لوجدت أنها تشمل الكثير من الذنوب والمخالفة لأوامر الله وتعدى حدوده ، من الإشراك بالله والقتل وارتكاب الفواحش وأكل أموال الناس بالباطل وأكل الربا ، والانحراف عن طريق الحق ، ومن سار في هذا الطريق ، واستمر في هذه الذنوب فيؤاثم الأثيم ، والويل له من عذاب الله : " وَيَلْ لَّ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " (٣)

(١) انظر / معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ١ / ٦٠

(٢) انظر : لسان العرب : لابن منظور ١ / ٢٨ ، ٢٩

(٣) الجاثية ٤٥ / ٨، ٧

وهو محروم من محبة الله ، ومن يحرم من محبة الله يبوء بالخسران المبين ، ولذلك نرى في آيات الربا قول الله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِّي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) (١)

ونرى في تزوير الحقائق ، والكذب ، واتياع الناس بالباطل قول الله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنِ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) (١٠٥) وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) إلى أن يقول : (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) (٢)

والإشراك بالله أعظم ألوان الإثم ، وفيه قول الله سبحانه { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما } وبعد هذه الآية في الإشراك بالله نقرأ قوله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا} (٣)

إلى غير ذلك من الآيات التي تبين لماذا لا يحب الله من كان خوائفا أثيما ، وحين يتعاون الخائنون والكاذبون ، والاثمون والأفَّاكون والمعتدون ، يكون الشر والبلاء والدمار والخراب والشقاء ، ويشيع

(١) البقرة ٢ / ٢٧٦

(٢) النساء ٤ / ١٠٥ - ١١٢

(٣) النساء ٤ / ٤٨ - ٥٠

الفساد والظالم ، وتنتشر الفاحشة وموء الأخلاق والانحلال الذى يؤدى إلى تدمير قوى الإنسان وزوال مجده وحضارته ، ولذلك تبه الله المؤمنين إلى وجوب الوقوف صفا واحدا فى وجه هذا الخطر ، حين بين للمؤمنين أن الكافرين والمفدين حزب واحد ، هو حزب الشيطان ، وبالتالي لا بد أن يكون المؤمنون حزبا واحدا ، هو حزب الرحمن ، وذكر أن الكافرين بعضهم أولياء بعض ، وأن على المؤمنين أن يكون بعضهم أولياء بعض ، وجعل هذه الموالاة عنوان الإيمان الصحيح فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي السَّارِضِ وَقِسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (١) أى إن لم تكن لكم ولاية فيما بينكم ترد كيد الكافرين ، انتشرت الفتنة وعم الفساد فى أرض الله مما لا يعلم إلا الله ما فيه من خطر وبلاء ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيٌ حَتَّىٰ إِيَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَّا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضٌ لَّفُتِنَتْ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢) الذين إن مكناهم فى السارض أقاموا الصلوة وأتوا الزكاة وأمرُوا بالمعروف ونهى عن المنكر والله عاقبته الأمور (٢) وقال : ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَ وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَبَئِئَ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤)

(١) الأنفال ٨ / ٧٣

(٢) الحج ٢٢ / ٤٠ ، ٤١

(٣) آل عمران ٣ / ٢٨

(٤) المائدة ٥ / ٥١

ولذلك كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأل ربه الغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم (١) ويستعيذ بالله من المأثم والمغرم (٢) ويبين أن البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس (٣) وهذا بيان لمن سأله عن البر والإثم ، وإلا فالإثم: كل ذنب ، وكل مخالفة لأمر الله ، كما وردت بذلك الأحاديث الكثيرة التي تذكر ألوانا من الذنوب سماها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أثاما .

أما العدوان : وهو الأمر الثاني الذي نهى الله المؤمنين أن يتعاونوا عليه فهو : الظلم الصُّراح ، والاعتداء : مشتق من العدوان " (٤) والتعدى : مجاوزة الشيء إلى غيره ، وقد اقترن العدوان بالإثم في خمسة مواضع من ثمانية مواضع ذكر فيها العدوان في القرآن الكريم . منها ما جاء في بني إسرائيل في قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَئِنْ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَمْ تَخْرُجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٥) وفي قوله في

(١) رواد الترمذى فى الوتر ، وابن ماجه فى الإقامة

(٢) رواد البخارى

(٣) رواد مسلم فى البر ، والترمذى فى الزهد

(٤) انظر : معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٤ / ٢٤٩

(٥) البقرة ٢ / ٨٤ ، ٨٥

مسألة " : { وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمْ
سُحْتِ لِبَاسٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ
قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِاسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } (١) ومنها ما جاء في
اليهود والمنافقين ، وذلك ما نقرؤه في قول الله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ
وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا
فَبِئْسَ الْمَصِيرُ } (٢) ومما جاء توجيهنا لأهل الإيمان لئلا يسلكوا مسلك
اليهود والمنافقين قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا
تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } (٣) وقيل بأن الخطاب في الآية للمنافقين
واليهود ، والمعنى : يا من ادعيتم الإيمان بموسى وما جاء به ، ويا من
آمنتم بالمنتكم ولم تؤمن قلوبكم .. إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم
والعدوان

أما الموضع الخامس : في الآية التي نتدارسها وفيها : وتعاونوا
على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ..

وقد جاءت كلمة " العدوان " مفردة في ثلاثة مواضع - في
البقرة ' : في الحديث عن مرحلة من مراحل الجهاد الإسلامي ،
وهي قتال من قاتل المسلمين دون من لم يقاتلهم ، ومن الآيات التي
تتحدث عن ذلك قوله تعالى : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ

(١) المسألة - ٥ / ٦٢، ٦٣

(٢) المحذلة ٥٨ / ٨

(٣) المجادلة ٥٨ / ٩

لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} (١) وفى "النساء" فى بيان جزاء من تعدى حدود الله فأكل أموال الناس بالباطل ، أو اعتدى على نفسه أو على نفس غيره بالقتل ، حيث يقول تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } (٢) وفى "القصص" فى قصة موسى - عليه السلام - حين تم الاتفاق بينه وبين صبيره أن يأجره ثمانى حجج فإن أتم عسرا فمن عنده ، قال موسى ، فيما ذكره الله عنه : { ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } (٣)

من هذا الجمع للآيات التى وردت فيها كلمة " العـدوان " يتضح لنا أن العدوان كثيرا مايقترن بالإثم معطوفا عليه ، ليبين لنا ربنا لونا بشعا من ألوان الإثم ، وهو ما يحمله الإثم من الظلم ومجاوزة الحد مما تنفر منه الفطر السليمة ؛ وتعافيه المبادئ الإنسانية الجامعة ، والتعاون على هذا العدوان - بما فيه من ظلم وجفوة وتجاوز - يجعله خطيرا مدمرا مهلكا ، كما نرى من تعاون قوى الضلال والشر والكفر على تدمير كثير من البلاد وإفناء كثير من العباد ، ونشر الفاحشة والفساد ، والمؤمنون ليس ليم ذلك ، ومن هنا جاء النهى لهم : " ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب "

(١) البقرة ٢ / ١٩٣

(٢) النساء ٤ / ٢٩ ، ٣٠

(٣) القصص ٢٨ / ٢٨

وإذا كان " الاعتداء " مشتق من " العدوان " - كما يقول ابن فارس وغيره ، فكل ما جاء من هذه المادة في القرآن داخل فيما نحن بصدد الحديث عنه ، والكلمات حيثما وردت تعبر عن لون من ألوان الاعتداء والعدوان ، فلنتأمل بعض هذه الكلمات والمواضع التي وردت فيها :

هناك حدود الله وشرعه في العلاقات الزوجية ، وما يكون هناك من طلاق وعدة ورجعة وفسخ ، وما تتعرض له هذه العلاقات من تمزق يجد الشيطان له في ذلك مدخلا ، وأهل الإيمان يجب عليهم قطع الطريق على وساوس الشيطان حتى إذا عادت العلاقة عادت بعد تجربة ناجحة ودرس فيه مصلحة الأرواح والأبناء ، يقول تعالى في ختام الآيات التي تحدثت عن ذلك في سورة البقرة : (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وفي الآية التالية : (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَتَكَبَّرَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) وفي الآية التي تليها يقول سبحانه : (وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ..) (١)

وفي سورة " الطلاق " في ختام الآية الأولى : { وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا } (٢)

وهناك - أيضا - ما شرعه الله في تقسيم التركات ، ومسا لليتامي

(١) البقرة ٢/ ٢٢٩ - ٢٣١

(٢) الطلاق ١/ ٦٥

والنساء من حقوق ، وفى ختام ذلك يقول عز من قائل : { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ { (١)

وفى بنى إسرائيل نرى قول الله تعالى فى بيان اعتدائهم على حرمة يوم السبت : { وَقَالُوا لَهُمْ لِمَا تَعْبُدُونَ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَافِلِينَ } (٢) وَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقِلُكُمْ بِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ فَبِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ { (٣) أى يعتدون فى يوم السبت بصيد الحيتان ، وقد نيرا عن ذلك ، وفى بيان اعتدائهم على أنبيائهم وتعديهم لحدود الله ، وأن هذا كان من الأسباب التى ضرب الله بها عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله يقول تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } (٤) {وقريب من ذلك ما جاء فى "البقرة" وفى "المائدة" يقول تعالى : {لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} (٥) ومما جاء فى نبي المؤمنين عن الاعتداء قوله : {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) النساء ٤ / ١٣ ، ١٤

(٢) النساء ٤ / ١٥٤

(٣) الأعراف ٧ / ١٦٣

(٤) آل عمران ٣ / ١١٢

(٥) المائدة ٥ / ٧٨

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (١) وهذا النهي يمثل مرحلة من مراحل الجهاد الإسلامي ، وقد تبعيا الأمر بإعلان الجهاد العام بعد أن قويت شوكة الإسلام وثبت أن أعداء الله لن يتركوا نور الحق يضيئ للناس الطريق ، قال تعالى : {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (٢)

وقبل نزول " براءة " والأمر بقتال المشركين كافة ، كانت هناك معاهدة الحديبية في العام السادس بعد أن أصر المشركون في مكة على منع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين معه من دخول مكة لأداء العمرة ، فأراد المسلمون أن يمنعوا المشركين من الوصول إلى البيت الحرام جزاء ما صنعوا ، فنهاهم الله عن ذلك ، وعد هذا - لو حدث - عدوانا فقال : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرِمَكُمْ شَنَّانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا } (٣) فيكذا يعتقد المشركون أنهم يقصدون البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ، واستمر هذا إلى أن جاء الأمر بمنع المشركين من دخول مكة ونزل قوله : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...} (٤)

وهناك لون من الاعتداء المنهي عنه نراه في التشدد في دين الله بغير دليل ، ولا بد أن نفرق بين التشدد والالتزام ، فالالتزام انضباط

(١) البقرة ٢ / ١٩٠

(٢) التوبة ٩ / ٣٦

(٣) المائدة - ٥ / ٢

(٤) التوبة ٩ / ٢٨

بالكتاب والسنة ، وهو واجب على كل مسلم ، أما التشدد فهو انفلات وتطرف لا يستند إلى دليل ، ومثال ذلك ما جاء في من أرادوا أن يُحرموا على أنفسهم بعض ما أحل الله ، مبالغة منهم في الزهد والنقشِف فنبوا عن ذلك وقال لهم ربيهم : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** (٨٧) **وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ** (١)

بل إن الدعاء - وهو مخ العباد - إن لم يلتزم بالضوابط الشرعية فهو اعتداء ، قال تعالى : **{ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}** (٢)

وفي هذا يروى الإمام أحمد بسنده أن سعد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - سمع ابنا له يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقيما ونحوا من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، فقال : لقد سألت الله خيرا كثيرا ، وتعذت بالله من شر كثير ، وإنسى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : **{سيكون قوم يعتدون في الدعاء ، وقرأ هذه الآية (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) الآية - وإن بحسبك أن تقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل}** (٣)

وتجاوز ما أحل الله من النساء إلى علاقات غير مشروعة اعتداء ، وأي اعتداء ، ولإذا جاء في دعوة لوط - عليه السلام - لقومه ليقلعوا عما يرتكبونه من الفاحشة ، ما ذكره الله تعالى : **{اتَّاتُونَ الدُّكْرَانَ**

(١) المساندة - ٥ / ٨٧ ، ٨٨

(٢) الأعصراف ٧ / ٥٥

(٣) مسند الإمام أحمد : ١ / ١٢٧ ، وسنن أبي داود : كتاب الصلاة ، باب الدعاء

من العالمين (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ {١}

وهذا الذى فعلوه جيل وإسراف ، وكلاهما عنوان ، وليذا بقرا فى الأعراف " قول الله تعالى : { وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مِمَّا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنِّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِقُونَ } (٢)

وفى " النمل " يقول تعالى : { وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ } (٣)

كما جاء فى صفات المؤمنين المفلحين قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ } (٤)

من هذا يبدو لنا لماذا أمر الله المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى ، ونياهم عن الإثم والعدوان ، فبالتعاون على البر والتقوى تسعد الدنيا ، وينتشر الأمن ، وتبنى الحضارات ، ويؤدى الإنسان وظيفته فى هذه الأرض وفق منهج الله ، أما التعاون على الإثم والعدوان فهو شقاء وبلاء ودمار وخراب وضياع وهدم للقيم والمبادئ والأخلاق الفاضلة ، ولهذا جاء ختام الآية يأمر بالتقوى ويخوف من عذاب الله فيقول : وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب .

(١) الشعراء ٢٦ / ١٦٥ ، ١٦٦

(٢) الأعراف ٧ / ٨٠ ، ٨١

(٣) النمل ٢٧ / ٥٤ ، ٥٥

(٤) المؤمنون ٢٣ / ٥ - ٧

٤ - صور للتعاون المحمود :

الحياة كلها قائمة على التعاون ، فى عالم الإنسان ، وعالم الحيوان ، وعالم الطيور وغير ذلك من مخلوقات الله ، ومن يتأمل مملكة النحل أو النمل أو غير ذلك يدرك أننا بدون تعاوننا لا نستطيع البقاء ، وفى عالم الإنسان ، ماذا نرى ؟ نرى أن الله خلق الإنسان وركبه من أعضاء وأجزاء تعمل فيما بينها بنظام ربانى يقرم على تناسق وتناغم وتعاون ، لا يستغنى عضو عن عضو ، ولا جهاز عن جهاز ، وهذا الإنسان يعيش مع جماعة من بنى جنسه كل منهم محتاج إلى الآخر ، فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ومركبه وما إلى ذلك مما تقوم به حياته ، ولو تأملنا شيئاً من ذلك لطل بندا الحديث ، فإذا رغيف الخبز الذى نأكله : كم من الأيدي شاركت فى إعداده ؟ من الزارع والحاصد والخابزوالبائع وغيرهم ، وهذا لون من التعاون بين الناس ، ومثل رغيف الخبز كثير مما ننتفع به مما يعود بالخير على كل من يشارك بجهد ، ليكون الخير سمة لحياة الناس . وفى الأسرة لا تتم السعادة إلا بتعاون أفرادها وأداء كل منهم لواجبه ، وفى المجتمع ، على تنوع أشكاله : من مجتمع القرية إلى مجتمع المدينة ، ومن مجتمع المدرسة والمصنع والمتجر إلى غيره من المجتمعات ، تبرز الحاجة للتعاون المحمود ، وإلا شقى الجميع ولم يحققوا أهدافهم ، وهناك العديد من صور التعاون المحمود نراه فى الجمعيات التعاونية : زراعية ، أو صناعية أو استيعابية ، كما نراه فى الجمعيات الخيرية وما تؤديه من خدمات للناس .

وفى تاريخ الإنسانية كثير من صور التعاون المحمود وما أدى إليه من قوة وعزة وسعادة ، ذكرنا من ذلك ما كان من أمر ذى القرنين ،

ونذكر منه ما كان في ١٠٠ الحضرة الإنسانية عبر مراحل التاريخ
 البشرى . وكيف أن كل حيل يأتي إنما يبنى على ما بناه جيل سابق ،
 وهناك تاريخ الرسالات السماوية شاهد على ذلك ، ولهذا نجد القرآن
 يقول (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ
 وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ
 كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٥٠) ووقفنا
 على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وعاتينا
 الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى
 وموعظة للمتقين (٤٦) وتيحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم
 يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (٤٧) وأنزلنا إليك الكتاب بالحق
 مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله
 ولما تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شيعة
 ومنهاجا (١) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن مثلى ومثلى
 الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة
 من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له
 ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) (٢)

وما قامت للإسلام دولة إلا بتعاون المسلمين وترباطهم وتآزرهم حتى
 كانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، ونزل بيم من العذاب فى
 مكة ما يهد الجبال الرواسى فما لاتوا وما هاتوا حتى اضطروا للهجرة إلى

(١) المائدة: ٤٥/٥-٤٨

(٢) رواه البخارى ٤٠٨/٦ فى : "الأنبياء" /باب خاتم النبيين ، و"مسلم" فى
 "الفضائل" /باب: تذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين .

الحبشة مرتين ثم كانت هجرتهم إلى المدينة ،وفى السجرة ألوان من التعاون لا تخفى ،وهناك فى المدينة أشرفت صور من التعاون فى سماء هذه الدنيا ،منيا ما كان من عقد المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ،وبه كان التوارث قبل نزول آيات المواريث ،ومنيا ما كان من تعاونهم فى بناء المسجد حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل بنفسه معبى الحجارة حتى تم البناء فكان المسجد مدرسة ومركز إشعاع ،ومكانا تتقد فيه اجتماعات السلم والحرب ،فضلا عما أعد له من أداء العبادات وتوزيع الصدقات والزكوات ..

ومن صور التعاون :ما نراه فى حفر الخندق ،الذى سميت به غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ،وكيف استطاع المسلمون - بفضل تعاونهم - حفر هذا الخندق الذى لم يكن للعرب فى حروبهم به عيد ،فكان سببا لصد هجمة المشركين وأعدائهم من اليهود والمنافقين عن المدينة إلى أن من الله على المؤمنين بنصره ،قال تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا] (١)

ومن صور التعاون ما كان فى الجياد الإسلامى من بذل وعطاء ،فينالك من يشارك فى الجياد بنفسه وماله ، وهناك من يشارك بنفسه مستعينا بما يبذله غيره من المسلمين فى تجييز المجاهدين .

(١) الاحزاب ٢٣ / ٩ - ١١

وفى انتقاليهم إلى أرض المعركة قد يقطعون المسافات الطويلة
فيتعاقبون ما عندهم من الإبل ،يركب كل منهم لمسافة ثم ينزل فيركب
الآخر . وهكذا .

وحين يلتقون بأعدائهم تراهم صفا واحدا لا يفرون ولا يتخاذلون، لأنهم
يريدون أن يظفروا بمحبة الله لهم ،وقد قال تعالى : [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ] (١).

٥- أثر التعاون :

أ - أثر التعاون المحمود فى حياة بنى الإنسان :

بالتعاون المحمود حظى الناس بالكثير من الخير ،وبخاصة هذا
التعاون المنبثق من الإيمان بالله ورسوله ،فإن هذا الإيمان يحرك
المشاعر،ويسمو بها عن الأغراض الدنيئة والمطالب الباطلة ،والمشاع
الرخيص،ويجعل الغاية من التعاون رضا الله والدار الآخرة،فالمؤمنون
أمة واحدة تتواصل عبر مراحل الرسالات من لدن آدم إلى ان ختمت
الرسالات والنبوات بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ولذلك يقول تعالى
بعد ان ذكر من الأنبياء ما ذكر : إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ
فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٢) ويقول فى
سورة "المؤمنون" بعد أن ذكر من قصص الأنبياء ما ذكر : (وَإِنَّ هَذِهِ

(١) سورة الصف ٤/٦١

(٢) الأنساء ٩٢/٢١ .

أَمْتَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (١) والمؤمنون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم - تجمعهم أخوة الإيمان يقول ربنا: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.." (٢) هكذا بأسلوب يفيد القصر، قصر المؤمنين على صفة من أعظم الصفات، وهى صفة الأخوة، والى تفوق أخوة النسب والدم، وقد حقق هذا التعاون ما طلبوه من رضوان الله ونصيرده وتأييده، لأن الله مولاهم وحافظهم: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ" (٣) "ويد الله مع الجماعة ومن شذَّ شَذٌّ فِي النَّارِ" (٤) وكان لهم بهذا التعاون التمكين فى الأرض والشرف والمنعة، وسعة الأرزاق وبسطة العيش، وهكذا كل جماعة تعاونت فيما بينها على الخير حققت لنفسيا الكثير من الخير، حتى وإن كانت لاتؤمن بالله ورسله وتطالب الدنيا وما فيها، تحقيقا لسنة الله فى خلقه، حيث يقول: "مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْخَيْرَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوْفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ" (٥) أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (٦) وهذه هى الولايات المتحدة الأمريكية، باتحاد ولاياتها وتعاونها أضحت القوة العظمى فى التاريخ الحديث، وهذه هى الدول الأوروبية قد اتحدت فى سوق تجارى يعرف بالسوق الأوروبية المشتركة، وأصدرت

(١) المؤمنون ٢٣/٥٢

(٢) الحجرات ٤٩/١٠

(٣) سورة محمد ٤٧/١١

(٤) رواد الترمذي فى كتاب الفتن - عن عبد الله بن عمرو

(٥) هود ١١/١٦٠

عملة أوروبية مشتركة هي "اليورو" قأدى هذا إلى قوتها ورفاهية شعوبها، وإن كانت هذه الرفاهية، وتلك الوفرة فى ألوان الطعام والشراب ووسائل الترفيه والتسلية، كل ذلك لم يوفر للناس السعادة واطمئنان القلب لغياب عنصر مهم من أهم عناصر السعادة إن لم يكن هو العنصر الذى لا تنصر سواه، ذلك هو الإيمان الحق الذى جاء به الإسلام كما نراه فى حال الأمة الإسلامية فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وعهد خلفائه من بعده، وكيف شرقت هذه الأمة وغربت وانتشر دينها فى العالمين وذاق الناس فى ظلها طعم الأمان والسلام..

ب - أثر التعاون المذموم:

وإذا كانت هذه الثمرات الياصرة الطيبة المباركة للتعاون المحمود ففي مقابلها ثمرات مرة للتعاون المذموم ومأدى إليه من نكبات وويلات وشقاء، إنه تعاون لاخير فيه، وهل فى تعاون المجرمين والظالمين والمفسدين على تحقيق أغراضهم الخبيثة خير؟؟ سواء كان ذلك على مستوى الجماعات الصغيرة وهؤلاء الذين يعيشون فى الأرض فساداً، يروعون الأمنين، ويسرقون عرق الكادحين، وينشرون الفاحشة فى كل مكان، ويتاجرون فى الأعراض والمخدرات، أو كان على المستوى الدولى فى محاربة دعاة الخير، والعمل الدعوب على نشر الفساد فى الأرض، والاعتداء على حق الشعوب فى الأمن والحياة الكريمة، ولا حيلة لردع هؤلاء المعتدين إلا بتعاون دعاة الخير حتى يتم لهم نصر الله: وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ^(١)

(١) البقرة ٢٥١/٢

٦- مدى حاجتنا إلى التعاون:

من هذا يتضح لنا مدى حاجتنا إلى التعاون على البر والتقوى، لأن هذا التعاون هو صمام الأمان للأفراد والجماعات والشعوب والأمم، وبه تتحقق الغايات العظيمة والأمال الكبيرة، ويحيا الناس في أمن وعيش رغيد وعزة ومنعة، وهذا ما ذكر الله به المؤمنين وأمرهم به حين قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُئُوتِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١) صدق الله العظيم.

(١) آل عمران ١٠٣-١٠٧

٢ الوفاء

من أخلاق القرآن : الوفاء ... فما هو الوفاء في لغتنا العربية ؟ وكيف عبرت عنه آيات القرآن الكريم؟ وفي أي الجوانب يكون الوفاء ؟ وهل هناك علاج في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - لمن انحرفوا عن طريق الوفاء ؟ تساؤلات نطرحها لنكشف حقيقة هذا الموضوع .. فنقول وبالله التوفيق :

١- الوفاء في اللغة :

يقول ابن منظور في لسان العرب : الوفاء : ضد الغدر ، يقال : وفى بعينه وأوفى بمعنى ، ويقال أوفيت بالعهد ووفيت بالعهد ، وكل شئ في كتاب الله تعالى من هذا فهو بالألف ، قال الله تعالى : "أوفوا بالعقود " " وأوفوا بعهدي " ويقال : وفى الكيل ، وفى الشيء : أي تم ، وأوفيته أنا : أتمته .. (١) وفى معجم مقاييس اللغة : لابن فارس : (وفى) الواو ، والفاء ، والحرف المعتل : كلمة تدل على إكمال وإتمام ، ومنه الوفاء : إتمام العهد وإكمال الشرط ، ووفى : أوفى ، فبر وفى وأوفيتك الشيء : إذا قضيته إياه وإفيا ، وتوفيت الشيء واستوفيته : إذا أخذته كله ، حتى لم تترك منه شيئاً .. (٢)

وقريب من هذا ما ذكره الراغب في مفردات ألفاظ القرآن إذ يقول : الوافي الذى بلغ التمام ؛ يقال : درهم وافٍ ، وكيل وافٍ ، وأوفيت الكيل والوزن ، قال تعالى : وأوفوا الكيل إذا كلتم " وفى بعينه وفى

(١) انظر لسان العرب : لابن منظور ص ٦ ص ٤٨٨٤ ، ٤٨٨٤

(٢) معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ص ٦ ص ١٢٩

وفاء وأوفى : إذا تَمَّ العبد ولم ينقض حفظه ، واشتاق ضده وهو الغدر يدل على ذلك ، وهو الترك ، والقرآن جاء بأوفى ، ثم يسوق الراغب بعض الآيات في ذلك (١).

فألوفاء في لغتنا العربية - إذا - كلمة تدل على التمام والكمال ، ومثل هذا التمام والكمال لا يأتي في الأقوال والأفعال إلا بجهد ومجاهدة ، وذلك لا يكون إلا بإيمان يشتعل نورا في القلوب والجوانح فيدعو صاحبه إلى ضبط خطاه على وقع كتاب الله وهدى رسوله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا ما تم القول أو الفعل وجدته وقد جاء مشرقا بنور الله ، تشرح له الصدور والقلوب والعقول (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) (٢)

٢ - الوفاء في القرآن الكريم :

وردت مادة الواو، والفاء ، والياء في القرآن الكريم ٦٦ مرة ، وهي في كل مرة تدل على التمام والكمال ، والسذي يعنينا من المواضع التي ذكرت فيها ما جاء يدل على الخلق والسجية ، كالوفاء بالعبد ، أو بالنذر ؛ أو بالمكيال والميزان ، أما ما جاء من توفية الله لأجال عباده فلا صلة له بموضوعنا .

والآيات التي جاءت دالة على الخلق والسجية نراها مبنوثة في كتاب الله تدعو إلى التخلق بخلق الوفاء ؛ وترغب فيه ، فهي تذكر ما كان من إبراهيم الخليل - عليه السلام - يقول : (أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى) (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) (٣)

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن : للراغب الأصفهاني ص ٥٦٥

(٢) النور ٢٤ / ٥٠

(٣) النجم ٥٣ / ٣٦ ، ٣٧

وهذه صفة جمعت إبراهيم كى صفات خبير التي استحق بها أن يكون خليل الرحمن ، وأن يكون للناس إماما ، قال تعالى : { وَإِذِ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ رَأَىٰ بِكَلِمَاتِ الْمَلَأَمَاتِ قَاتَمَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. } (١) وقال : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } (٢) يقول ابن كثير في بيان ما وفى به إبراهيم - عليه السلام - : { قام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي ، وبلغ الرسالة على التمام والكمال فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يقتدي به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله ، قال الله تعالى : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (٣)

وقال ابن عباس : وفى بسهام الإسلام كلها ولم يوفيا غيره ، وهى ثلاثون سيمما ، منها عشرة في براءة (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) الآيات ، وعشرة في الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات ..) الآية ، وست في قد أفلح المؤمنون - الآيات التى فى أوليا ، وأربع فى سأل سائل (والذين يصدقون بيوم الدين .. الآيات ، يقول العلامة الألوسى - بعد أن ذكر قول ابن عباس هذا وغيره من الأقوال : والأولى العموم ، وهو مروى عن الحسن ، قال : ما أمره الله بشيء إلا وفى به ، وتخصيصه - عليه السلام - بهذا الوصف لاحتماله مالا يحتمله غيره ، وفى قصة الذبح ما فيه كفاية } (٤)

(١) البقرة ٢ / ١٢٤

(٢) النساء ٤ / ١٢٥

(٣) تفسر ابن كثير ٤ / ٢٥٧ ، ٢٥٨ - والآية من سورة النمل ١٦ / ١٢٣

(٤) انظر روح المعاني - للألوسى ج ٢٧ ص ٦٥

وتربط الآيات بين الوفاء بالعهد وتقوى الله ، فإن تقوى الله هي المحرك والباعث على الوفاء بعهد الله فنقول : { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعَقْطَارٍ يُودِّدَ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنْ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْتُمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَكْتُمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } (١)

فيذا الفريق من أهل الكتاب خان الأمانة وانحرف عن الطريق ، وباع آخرته بدينار وحرف ما أنزل الله ، وقال على الله الكذب، وهو يعلم أنه كاذب ، فأى خيانة للعهد أبشع من هذه الخيانة ؟

وقد سبقت وصية الله ليم بالوفاء بعهد حتى يكون ليم ما وعدهم به من عزة وتمكين ، وذلك قوله تعالى : { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا

(١) آل عمران ٣ / ٧٥ - ٧٨

الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ
وَعَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } (١)

ولكنهم خانوا العيد وكفروا بآيات الله قال تعالى : { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا
إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا
عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) } (٢)

والآيات في نقض أهل الكتاب لعهدهم ، وما ترتب على ذلك من
ذلة ومسكنة ضربها الله عليهم ، وما حل بهم من غضب الله
وسخطه - الآيات في ذلك كثيرة ، ومنها ما جاء في : البقرة وآل
عمران والنساء والمائدة وغير ذلك مما ورد فيه الحديث عن أهل
الكتاب ، وما كان ليم من سلوك منحرف ، وعداء ظاهر للإسلام
وأهله ، وأن هذا السلوك من الخيانة والغرر وتحريف آيات الله بدأ
منذ وقت مبكر في حياتهم حتى وصلوا إلى هذه النياية التبعة بما
فيها من شقاء أبدي ، كما قال تعالى : { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا
تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } (٣) وكما

(١) النقرة ٢ / ٤٠ - ٤٣

(٢) البقرة ٢ / ٩٩ / ١٠١

(٣) آل عمران ٣ / ١١٢

قال سبحانه : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } (١)
وما عليه أهل الكتاب من الفسوق والعصيان والكفر والغدر ؛ هو
كذلك خلق لأهل الشرك والنفاق ، فالإيمان صمام الأمان لكل خلق
كريم ، فإذا فسد هذا الصمام ضاعت الأخلاق الكريمة والمبادئ
السامية - كما سبق أن ذكرنا في صلة الأخلاق بالإيمان - ولذلك
يقول تعالى في المشركين : { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ
مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ } (٥٦) { (٢) وقرأ في مطلع سورة التوبة ن
للمشركين من مواقف مخزية في نقضهم لعهودهم مع الله ورسوله
وكيف أمر الله باستئصال شافئهم والقضاء عليهم ، وقال فيما قال
للمؤمنين : { أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ
الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَعُوكُمْ أُولَٰ مَرَّةٍ أَنْتَخَشَوْهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرُّكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ } (١٤) وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ
اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (١٥) { (٣)

وفي سورة " الأعراف " يقص الله علينا ما كان من أمر قوم نوح
وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ثم يقول : { تِلْكَ
الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

(١) الأعراف ٧ / ١٦٧

(٢) الأنفال ٨ / ٥٦ ، ٥٥

(٣) السجدة ٩ / ١٣ - ١٥

كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ
الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ
لِفَاسِقِينَ { (١) } ثُمَّ يَقْصُصُ اللَّهُ عَلَيْنَا - بَعْدَ ذَلِكَ - مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ
مُوسَى وَقَوْمِهِ ، مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ إِلَى نِيَايَتِهِ ، مِنَ الْآيَةِ (١٠٣) إِلَى
الْآيَةِ (١٧١)

أما المنافقون فهم فجرة خبثاء ؛ يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ،
ويحلفون بالله كاذبين ، وينقضون عيودهم مع الله ورسوله ،
وآيات سورة " التوبة " - والتي تسمى بالفاحشة ؛ لأنها فضحت
هؤلاء المنافقين - تبين ما عليه المنافقون من غدر وخيانة ، واقرأ
في ذلك الآيات ، من قوله تعالى : (لو كان عرضاً قريباً ...
الآيات (من ٤٢) إلى أواخر السورة) لترى ما كان عليه هذا الصنف
من الناس من لؤم وخسة ، وآيات سورة " البقرة " وغيرها من
الصور التي تحدثت عن المنافقين كالنساء والأنفال والأحزاب والفتح
وسورة " المنافقون " كلها تكشف زيف هذا النوع من البشر ، وتقدم
دليلاً واضحاً على ما يريد الله من خلقه من استقامة على منهجه ؛
وأن هؤلاء المنحرفين من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين
موضع بسخط الله وغضبه ومقته ، وبالتالي فإن المؤمنين الصادقين
في عيودهم مع الله موضع محبته ورضوانه وفضله وعظيم عطائه .
ولذلك جاءت الآيات في مدح المؤمنين تقول : { وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } (٢) فهم مراقبون لأحوالهم ؛ حاسطون

(١) الأعراف ٨ / ١٠١ / ١٠٢

(٢) المؤمنون ٦٣ / ٨ ، المعارج ٧٠ / ٣٢

لقلوبهم ونظراتهم وحركاتهم وسكناتهم حتى تمكنوا من الوفاء بعيودهم .

وتقول في " البقرة " في آية البر - التي ذكرت جملة من الصفات العظيمة والأفعال الكريمة للبررة: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١) وهؤلاء الأبرار - كما ذكرت سورة " الإنسان " ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَسَانَ شُرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) وتصف آيات " السعد " أولى الألباب بأنهم : الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق .. " وفي مقابل هؤلاء نقول : " وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْعِلُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ " (٢)

وفي " الأحزاب " يمدح الله أصحاب رسوله فيقول " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا " (٤) وما أجمله من تعبير : " ومنهم من ينتظر " !! فهذا بيان لحال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه

(١) البقرة ٢ / ١٧٧

(٢) الإنسان ٧٦ / ٧ - ٩

(٣) الرعد ١٣ / ٢٥

(٤) الأحزاب ٢٣ / ٢٣

ولم - كانوا - رضوان الله عليهم - يعيشون في هذه الدنيا لا على آمال كاذبة في دنيا يصيبونها ، إنما على أمل الظفر بالشهادة في سبيل الله ، فهم أحد رجلين : منهم من تحقق أمله وفاز بالشهادة؛ ومنهم من ينتظر أن يحظى بهذا الخير : "فمن لم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق" (١) هكذا تعلموا من رسولهم - صلوات الله وسلامه عليه - فما أعظم من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقد سبق في السورة -سورة الأحزاب- أن كشف الله عورات المنافقين ، وبين ما هم عليه من تخاذل ونقض للعهود فقال : { ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا } وسوف ينال كل فريق جزاءه : (لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) (٢)

وإذا كانت الآيات التي ذكرناها في أهل الكتاب وغيرهم ، والمؤمنين ووفائهم مما يرغب ويرهب في خلق الرفاء ؛ فإن توجيهات القرآن ما زالت تتوالى ، حيث ينادى الله المؤمنين - بصفة الإيمان - ليأمرهم بالتحلي بهذا الخلق الكريم فيقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } (٣) قال الحسن : يعنسى عقود

(١) أخرجه مسلم في : الإمارة - باب من مات ولم يحدث نفسه بالغزو ، وأبو داود في الجهاد / باب كراهية الغزو ، والنسائي في الجهاد / باب التشديد في ترك الجهاد ، وأخرجه أحمد في مسنده.

(٢) (الأحزاب ٢٣ / ٢٤)

(٣) (المائدة ٥ / ١)

الذين ، وهى ما عقده المرء على نفسه ، من بيع وشراء وإحارة وكراء ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق وتديير وغير ذلك من الأمور ، ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة ؛ وكذلك ما عقده على نفسه من الطاعات ؛ كالحج والصيام والاعتكاف والقيام والنذر وما أشبه ذلك من طاعات ملة الإسلام ، وقال ابن عباس : " أوفوا بالعقود " معناه بما أحل وبما حرم وبما فرض وبما حد في جميع الأشياء { (١) }

ويقول تعالى في " الأنعام " { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَئِنْ كَلَّفْتُمْ نَفْسًا إِيًّا وَسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٢) فهذه وصايا سورة الأنعام ؛ أساسيا الوصية الأولى : توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، وفيما يأمر الله المؤمنين بتوفية الكيل والميزان على وجه الدقة ، وبحسب الطاقة البشرية ، كما يأمرهم بالعدل في القول ، ولو كان في هذا القول ما يدين أقرب الناس كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَالْأَلْفُ أَوْلَىٰ بِمِمَّا قُلْنَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } (٣) ثم تأتى الوصية التاسعة بالوفاء بعهد الله ؛ وكان ما سبق من الوصايا جزء من الوفاء بهذا العهد الإلهي .

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ج ٦ / ص ٣٢

(٢) الأنعام ٦ / ١٥٢

(٣) النساء ٤ / ١٣٥

وفي مقدمة ذلك العيد الأزلي بتوحيده سبحانه ، وفيه يقول تعالى :
 { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
 أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا
 عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا
 ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ؟ } (١) وفي سورة "
 يس" يلوم الله الكافرين من بنى آدم لعدم وفائهم بهذا العيد فيقول
 لهم: { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَابْنِي
 آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي
 هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا
 تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا
 كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ
 أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } (٢)

وفي سورة " النحل " يأمر الله بالوفاء بعيده في آيات فيها من
 الترغيب والترهيب ما فيها فيقول سبحانه : { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا
 عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ
 كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا
 مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَانًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ
 أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ
 فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } إلى أن يقول : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنَى

(١) الأعراف ٨ / ١٧٢ ، ١٧٣

(٢) ي ٣٦ / ٥٩ - ٦٥

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأَنْحَنِيئَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (١)

ففى هذه الآيات لمحات ربانية منها :

(١) - ذكر لفظ الجلالة " الله " تسع مرات ، لتربية الميابة

فى القلوب ؛ نلمح ذلك فى قوله :

١ - " وأوفوا بعهده الله " ٢ - " وقد جعلتم الله عليكم كفيلا "

٣ - " إن الله يعلم ما تفعلون " ٤ - " إنما يبلوكم الله به "

٥ - " ولو شاء الله لبعثكم أمة واحدة "

٦ - " وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله "

٧ - " ولا تشتروا بعهده الله ثمنا قليلا "

٨ - " إنما عند الله هو خير لكم " ٩ - " ما عندكم ينفد وما عند الله باق " .

(٢) - حين قال : " وأوفوا بعهده الله " لم يذكر ما يكون فيه الوفاء ،

وذلك لإفادة العموم ، ولذلك قال القرطبي : " وأوفوا بعهده الله " لفظ

عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو

موافقة فى أمر موافق للديانة (٢) وفى الفخر الرازي - بعد أن

ذكر عدة أقوال فى المراد بعهده الله قال : (الأولى أن يحمل هذا

العهده على ما يلزمه الإنسان باختياره ، ويدخل فيه المبايعه على

الإيمان بالله ورسوله ، ويدخل فيه عهده الجهاد ، وعهده الوفاء

بالملتزمات من المنذورات ، والأشياء النسي أكدها بالحلف

واليمين) (٣)

(١) النحل ٩١ / ٩٧

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٦٦

(٣) تفسير الفخر الرازي - المجد العاشر ج ٢٠ ص ١٠٩ "

(٣) بعد أن أمر بالوفاء بالعهد أتبعه بعدة أمور تدعو إلى هذا الوفاء:

منها - في الآية الأولى - قوله " إذا عاهدتم " و " إذا " تدل على تحقق وقوع هذا العهد منيع ، وفي ذلك تكثير لهم بعهدهم مع الله ، وكأنه يقول لهم : أنتم الذين ألزمت أنفسكم بالعهد مع الله ، فلا بد - إذا - من الوفاء .

ومنها : النية عن نقض ما أقسموا عليه قسماً مؤكداً ، بأن أقسموا المرة تلو المرة وأكدوا ذلك بما ذكروا من أسماء الله وصفاته .

ومنها : أنهم حين أقسموا على ما عاهدوا الله عليه جعلوا الله شاهداً عليهم ، وهذا معنى الجملة الحالية " وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً " .

ومنها : ختام الآية بقوله " إن الله يعلم ما تفعلون " والمراد لازم العلم من المجازاة بالثواب لمن وفى ، والعقاب لمن غدر ونقض .

وفي الآية الثانية : [ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها .. الآية] يفرهم من نقض عيدهم مع الله ، وهو يشبه حال الناقضين لعبودهم بحال هذه المرأة الخرقاء التى تبذل جيدها في إحكام خيوط غزلها ثم تعود لتنقض هذه الخيوط المحكمة ، ويقال إن هذه المرأة كانت بمكة ، واسمها ربيعة بنت سعد بن تيم القرشية ، كانت تغزل هي وجواربها من الغداة إلى الظهر ، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن ، وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد تركيده ، يقول ابن كثير : وهذا القول أرجح وأظهر ، وسواء

كان بمكة امرأة تنقض غزليا أم لا " (١) أقول : لكن إذا كان بمكة امرأة هذا حاليا فضرِبُ المثل بيا أوقع في النفس ، ولعل هذا ما لفت إليه القرآن أنظارهم ، وبخاصة ، وأن الآيات مكية .

ثم ينكر عليهم سلوكا مثينا ، أساسه المصالح الضيقة التي لا تبالى عيدا ولا ذمة ، فيقول : " تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ؟ " وهو استقيام إنكاري ، يقول لهم ربنا : كيف تتخذون أيمانكم خديعة ومكرا ودهاء ، إذ ما إن رأيتم جماعة أقوى من التي حالفتموها وعاهدتموها حتى نقضتم عهدكم معها ، رغبة في القوة والمنعة ، [وهذا يصدق على من نقض عهده مع جماعة ضعيفة لينضم إلى جماعة قوية لأنه ضعيف يريد أن يقوى بغيره ، أو قوى يرى أنه لا فائدة في محالفته للضعيف ، إنما يريد قويا يزداد به قوة] ولذلك قال الفراء : المعنى : لا تغدروا بقوم لقلتم وكثرتكم أو لقلتم وكثرتهم وقد عززتموهم بالأيمان " (٢)

وفي ختام الآية يبين الله لهم أمرين ، أولهما : أن ما أمرهم به من الوفاء بعنده إنما هو اختبار لهم حتى يتميز المحق من المبطل ، ومن يثبت على ما أعطى من عيد وبيعة ، ومن يغتر بقوى الباطل فينقض عهده مع الله ورسوله ، يقول العلامة البيضاوي في قوله : "إنما يبلوكم الله به " أي يختبركم بكون أمة أربى من أمة لينظر

(١) انظر / لن كثر ٢/ ٨٤

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٧١

أنتمكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله ، أم تغترون بكثرة
قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم " (١)

أما الأمر الثاني في ختام الآية ، فهم ما جاء في قوله تعالى :
(وَلْيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) فهذا أمر مؤكد
بالقسم ونون التوكيد ، وفيه اختيار كلمة " يَبَيِّنَنَّ " والبيان إيضاح
لكل الجوانب حتى لا يخفى منها شيء ، وفيه كلمة " لَكُمْ " وهى
تعنى إلزامهم بمقتضى ما بين لهم ، وهذا البيان " يوم القيامة "
وفى ذلك من التخويف ما فيه ، ثم هذا البيان الجلى لما كانوا فيه
يختلفون ، والتعبير بالمضارع " يَخْتَلِفُونَ " ليدل على أن هذا
الاختلاف الذى وقع في الدنيا لم يكن في لحظة عابرة انتهت ، بل
استمر طيلة حياتهم حتى قطعه الموت . ودهمهم "أن موقوفون بيسر
يدي الله ليروا الحقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار .
وأن ما طمعوا فيه ، ومن أجله باعوا دينهم ، ونقضوا عهودهم ،
كان وهماً وسراباً ، ودنيا فانية لا تستحق شيئاً من هذه الخيانات ،
ولا أن يعيش الإنسان فيها فاجراً غادراً لشيء خبيثاً .

وفى الآية الثالثة : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .. الآية)
بيان لسنة الله في خلقه للإنسان ، وأنه لسو شاء لجعل الناس
كالملائكة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، أو
كالشياطين العصاة المردة ، ولكنه أعطى الإنسان حرية الاختيار
بين البدائل ليكون ما سبق به علم الله من الإيمان والكفر ، والخير

(١) الفتحات الإلهية : للعلامة الصل ٥٩٥/٢

والشر ، والهدى والضلال ، ولذلك كان ختام الآية : " ولتسألن يوم
القيامة عما كنتم تعملون " وهى جملة مؤكدة بالقسم ونون التوكيد .
تبين وقوع هذا السؤال لا محالة ، وهو سؤال تبكييت لا سؤال
استفسار وتفهم ، وهم ما يوحى بأنهم محاسبون على أعمالهم ،
ومنها نقضهم لعهودهم ، وخيانتهم لأماناتهم .

وفى الآية الرابعة [ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم .. الآية] يوجه
إليهم تحذيراً بالألا يتخذوا أيمانهم تغطية لمآربهم ، وسيراً لأطماعهم ،
وخديعة لغيرهم ، فهذا يؤدى إلى الانحراف عن طريق
الحق ، والصد عن سبيل الله ، لأن من جعل الدنيا همه ساقته إلى
الكذب والغدر والخيانة والفجور ، فهو لا يبالي بدين ولا خلق ، يعبر
عن ذلك أصدق تعبير قوله : " فتزل قدم بعد ثبوتها " إذ من تمسك
بحبل الله ، وألزم نفسه بشريعة الإسلام ثبتت قدمه على طريق
الحق ، ومن أغواه الشيطان وأضله ، زلت قدمه عن الطريق ،
وكان من الهالكين ، يعبر عن هذا المصير المشئوم قوله : ' وتذوقوا
السوء بما صدقتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم '

وفى الآية الخامسة (ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً .. الآية وما
بعدها) يلفت أنظارهم إلى ما يجب عليهم أن يعلموه ويعقلوه من أن
الإنسان فى الدنيا إنما خلق لعبادة الله ، وأنه فى سوق الحياة يعرض
عليه الخير والشر ، والإيمان والكفر ، وعليه أن يختار ، ومن
رحمة الله أن أرسل إليه رسله وأنزل إليه كتبه ، وهو فيما أنزل
إليه من كتابه ينصحه بالألا يفرط فى عهده معه ، فيبيعه ويشترى به
عرضاً من أعراض الدنيا ، فإن ثمنها زهيد ، وهى لا تساوى عند

الله جناح بعوضة ، وما عند الله من الثواب والنعيم والحياة الامنة المطمئنة خير لهم من الدنيا وما فيها ، ومهما جمع العبد فيها مسن مال ومتاع فإما أن تفارقه أو يفارقك ، وإذا لا يبقى إلا ما قدم العبد من عمل صالح يكون له ذخرا عند الله ، والأمر يحتاج إلى صبر : صبر عن المعاصي ، وصبر على الطاعات ، وصبر في مقام الجهاد في سبيل الله ، وصبر على بلاء الدنيا ومحنها ، وهناك يكون الفوز والأجر العظيم بأحسن ما كانوا يعملون ، فإن هناك وعد الله لعباده المؤمنين والمؤمنات أنه من عمل منهم عملا صالحا فليحيينه حياة طيبة في الدنيا بالأمن والرضا عن الله ، وفي الآخرة بالنعيم المقيم ولذة النظر إلى وجه الله الكريم ، فهل بعد هذا البيان الجلي يخون مؤمن عهده مع ربه ، أو يرضى بغير ما عند الله بديلا؟؟ وفي وصايا سورة " الإسراء " يأتي قوله تعالى " وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا " (١) لبيان لنا أن كل عهد بين الناس وربهم ، أو بين الناس بعضهم مع بعض يجب الوفاء به ، فإن العبد سيسأل عن ذلك يوم القيامة ، والتعبير القرآني : " إن العهد كان مسئولا " يَصور العهد بإنسان يُسأل عن سبب عدم الوفاء به فيقال له : لم نَكُنتَ ؟ وهلأ وفي بك ؟ وكم في ذلك من تَأْذِيب وتبكيّت لمن نكثوا عهودهم !!

(٣) - ألوان من الوفاء :

حين يأمر الله بالوفاء بالعهد، فإن هذا يشمل كل عهد بين العبد وربّه أو بين العبد ونفسه ، أو بين العبد وغيره من الناس ، كما رأينا ذلك فيما نقلناه من كلام الأئمة الأعلام - عليهم رحمة الله

(١) الإسراء ١٧ / ٣٤

وقد ذكر القرآن والسنة المشرفة ألوانا من الوفاء في جوانب متعددة - منها : الوفاء بعهد العبودية لله ، وقد ذكرنا ذلك في قوله تعالى : (وإذ أخذنا من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شئدنا أن نقولوا يوم القيامة إنما كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفئلكم بما فعل المبطلون ؟) وفي قوله : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وإن اعبدوني هذا صراط مستقيم) .

ومنها الوفاء بالعهد مع رسل الله ، وقد كانوا - عليهم السلام - يبايعون من آمن بهم على توحيد الله وطاعته ، وقد يذكرون في بيعتهم أمورا أخرى تتناسب مع من يبايعونهم ، وهذا رسول الله : محمد - صلى الله عليه وسلم - يبايع الأنصار في مكة بيعة العقبة الصغرى ثم بيعة العقبة الكبرى ، وقد قال عبد الله بن رواحة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة العقبة الكبرى : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قالوا : فما لنا إن فعلنا ذلك ؟ قال الجنة ، قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. الآية) (١) وهناك بيعة الرضوان ، وقد كانت في الحديبية ، وفيها يقول الله تعالى : { إن

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٩١

الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} ويقول: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} (١)

وهناك أيضا بيعة النساء ، وفيها يقول ربنا: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَّا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَّا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (٢)

إلى غير ذلك من العهود والمواثيق التي كان يأخذها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه في بعض المواقف ، أو يأخذها على من يأتيه يعلن إسلامه .

ومن ألوان الوفاء الذي أمر الله به في دين الله وحديث عليه : الوفاء بالشروط التي تشترط في عقد الزواج فإن العلاقة بين الزوجين ميثاق غليظ ، وعهد أكيد ، يجب الوفاء بكل شرط فيه ، وهذا ما جاء به القرآن وهو يحدثنا عن المير وأنه - ميمًا عظيم - ليس ثمنًا للمرأة ولا يقارن بما يتم بين الزوجين من علاقة خاصة ، قال تعالى : (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنُ مِنْكُمْ

() الفج ٤٨ / ١٠ ، ١٨

() لمحة ٦٠ / ١٢

مِيثَاقًا غَلِيظًا) (١) وفي الحديث : إن أحق ما وفيتم به من الشروط ما استحللتم به الفروج (٢)

وهناك الوفاء للإخوان والأصدقاء ، وما جاء في كتاب الله من دعوة للتآخي ، ومن بيان لما توجبه الأخوة في الإنسانية ، والأخوة في النسب ، والأخوة في الإيمان ، والأخوة في الله من حقوق ، كل ذلك تجمعه كلمة الوفاء . (٣)

والوفاء بالعهد مع خير المسلمين عنوان لعظمة هذا الدين ، ما دام هؤلاء باقين على عيدهم مع المسلمين ، وتأمل ما جاء في "المائدة" من قول الله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْيَدْيَ وَلَا الْقُلُوبَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" ومن قوله : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اخْلُوفُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (٤) فقد اعتبر الإسلام من قصدوا إلي بيت الحرام من المشركين بأنهم يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ، وذلك

(١) النساء ٤ / ٢١

(٢) متفق عليه - وانظر : الوصايا العشر - للمؤلف ص ١٧٨، ١٧٩ ، والمسلم في

عالم الروم - للمؤلف ج ٢ ص ٢١٢ ، ٢١٣

(٣) اقرأ في بيان هذه الحقوق : الفصل الأول والثاني من الباب الأول : الأخوة وحقوقها .

ص ٩ - ٧٣ من : المسلم في عظم اليوم ج ١

(٤) المائدة - ٥ / ٨٠

بحسب اعتقادهم ، وأن موقف أهل مكة من المسلمين وما كان منهم في الحديبية من صدهم المسلمين عن البيت الحرام ، ليس سببا يجعل المسلمين يعتقدون على المشركين الآخرين ، فهذا ليس من العدل الذي أمر الله به ، وإذا أحس المسلمون بأن أعداءهم يفكرون في الخيانة والغدر ونقض العهد ، وأراد المسلمون الإغارة عليهم ومباغتتهم بالهجوم فإن دينهم يمنعهم من ذلك قبل إعلان الأعداء برد عهدهم إليهم ، ولذلك يقول تعالى : " وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين " (١) وفي بيان ذلك يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " من كان بينه وبين قوم عهدا فلا يحلن لهم عهدا ولا يشدنه ، حتى يمضي أمده أو يتنبذ إليهم على سواء " (٢)

والمعاهد محفوظة الدم لا يجوز لأحد أن يعتدي عليه ، يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما " (٣)

فإن نقض هؤلاء عهودهم لم يبق لهم عند المسلمين حيد ، قال تعالى : { وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُنْمَةَ الْكَفْرِ إِنَّهُمْ لَأَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدْعُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ اتَّخَشْتُمْهُمْ فَأَلَّنَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } وهذا في المشركين ، ويقول في أهل الكتاب : { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

(١) الأنفال ٨ / ٥٨

(٢) رواه الترمذي وأبو داود

(٣) رواه الشيخان

وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ
دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ
صَاغِرُونَ } (١)

ومن الوفاء في القرآن ما جاء في توفية المكيال والميزان ، وقد
ذكر القرآن ما كان من شعيب عليه السلام - مع قومه ودعوتهم
لهم أن يوفوا الكيل والميزان ، وألا يبخسوا الناس أشياءهم ، وقد
جاء ذلك في " الأعراف " و " هود " و " الشعراء " ففي " الأعراف "
يقول ربنا : (وَأَلِّى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَلَّ يَاقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. الآيات) (١) وفى " هود " يقول :
(وَأَلِّى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَلَّ يَاقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاقِمُ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ .. الآيات) (٢) وفى الشعراء : (كَذَّبَ
أَصْحَابُ الْآيَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالُوا لَهُمْ شُعَيْبًا أَنَا
تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا
بِالْقِسَاسِ النِّسْفَيْنِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثُوا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .. الآيات) (٣)

(١) السورة ٩ / ١٢ ، ١٣ ، ٢٩

(٢) الأعراف ٧ / ٨٥

(٣) هود ١١ / ٨٤

(٤) الشعراء ٢٦ / ١٧٦ - ١٨٣

كما ذكر القرآن ما كان من " شعيب " وقومه في سور أخرى وإن لم يذكر فيما دعوته لهم بعدم تطفيف الكيل والميزان ، كما جاء ذلك في : التوبة والحجر والحج والعنكبوت و " ص " و " ق "

وجاء محمد - صلى الله عليه وسلم - بالدين الخاتم وفيه الأمر بإيفاء الكيل والميزان، يُذكر ذلك في القرآن في عدة مواضع : في : الأنعام والإسراء والرحمن والمطففين ، ففي " الأنعام " في الرصايا العشر يقول : (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَنَا نَكْلٌ أَنْفُسًا إِنْهَا وَسْعُهَا..) (١) وفي " الإسراء " يقول : (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (٢) وفي " الرحمن " يقول : (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)) (٣) وفي " المطففين " يقول : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَّا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (٤)

ولعلنا نستطيع من خلال هذا النقص الإلهي أن نقطف بعض ما يؤكد منزلة هذا اللون من الوفاء ، وأول ما نلمحه هو التأكيد على النقاء في التعامل بين الناس ، فالأمر ليس مجرد إنقاص حبات من

(١) الأنعام ٦ / ١٥٢

(٢) الإسراء ١٧ / ٣٥

(٣) الرحمن ٥٥ / ٧ - ٩

(٤) المطففين ٨٣ / ١ - ٦

كيل أو عدة جرائمات من وزن ، إنما الأمر في الدافع الذي دعا إلى هذا السلوك ، إنه شغل الناس ، وخيانتهم وسرقتهم ، ومن فعل ذلك فعل ما هو أكبر من ذلك وأعظم .

والأمر الثاني هو : ارتباط المعاملات بالدين ، وقد فهم قوم شحيب أن المعاملات سلوك بشري لا علاقة له بالدين ، فقالوا لشعيب : " أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ " (٨٧) قَالَ يَاقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " (١) ولهذا جاء الإسلام بتحريم تطفيف الكيل وبخس الميزان ، كما جاء بتحريم الاحتكار والغش والتدليس والربا وخير ذلك ما فيه إضرار بالناس ، لِيَبْقَى المعاملة الكريمة التي لا ظلم فيها ولا تزوير هي أساس التعامل بين بلى الإنسان .

وثالثا : ما جاء من عقوبة رادعة توحى بمدى الخطورة التي حاقَتْ بمن ساروا في هذا الدرب المظلم : درب الخيانة والغش واستلاب أموال الآخرين ، فهم " إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ " والقرآن يدعو عليهم بالويل فيقول : " وَيَسْأَلُ الْمُطْغَفِينَ " ويسأل سؤال تعجب وإنكار فيقول : " أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ انْعَالَمِينَ " وفي قصة شعيب ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع

(١) سورة ١١ / ٨٧ / ٨٨

وهو شديد. فله يقول فبم أنزل من غفيرة بقوم شعيب : " فَأَخَذَتْهُمْ
الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ
يَغْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ " (١) ويقول :
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ
يَغْنُوا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ " (٢) ويقول : (وَأِنْ كَانَ
أَصْحَابُ الْآيَةِ لَنَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ) (٣)
ويقول : (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ
عَظِيمٍ) (٤) ويقول : (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جَاثِمِينَ) (٥)

رابعا : حين أمر الله بالوفاء بالكيل والميزان ، أراده أمرا لا
مشقة فيه ولا حرج ، لأن حساب ذلك بالحنة والجرام قد يكون
عسيرا ، ولذلك حين قال : وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ،
قال : " لا نكلف نفيسا إلا وسعها " فالذي يريده الإسلام هو صفاء
القلوب ، ومحبة الناس ، والحرص على ما ينفعهم ، وأن يحب لهم ما
يحب لنفسه ، وألا يكون المسلم وضيع النفس يحتال على أخيه في حبات
من كيل أو شيء يسير من وزن ، مما لا يساوي شيئا يذكر ، فهذا

(١) الأعراف ٦ / ٩١ ن ٩٢

(٢) هود ١١ / ٩٤ ، ٩٥

(٣) الحجر ١٥ / ٧٩ ، ٧٨

(٤) الشعراء ٢٦ / ١٨٩

(٥) العنكبوت ٢٩ / ٣٧

يدل على مرض في القلوب ، والتواء في الطبع ، وضعف في الإيمان .

ومن ألوان الوفاء الذي أولاه الإسلام عنايته : الوفاء بالحقائق المادية ، وقد يكون من السيل على كثير من الناس أداء ما افترض الله عليهم من صلاة أو صيام ولكنهم إذا تعاملوا بيعاً وشراء ، وإقراضاً واقتراضاً لم يثبتوا ، ووجدتهم خونة كذبة ، لا يراعون عهداً ولا ذمة ، ومما يدل على منزلة هذه الحقوق في دين الله تلك الأحكام المفصلة التي نراها في تراثنا الفقهي في باب البيوع وما فيه من أحكام البيع والشراء ، واقرأ في هذا الباب بعض رموس الموضوعات التي وردت في كتب الفقه ، وستجد منها تلك الأبواب : باب الربا والصرف ، باب بيع الأصول والثمار ، باب السلم ، الرهن ، المفلس ، الحجر ، الصلح ، الحوالة والضمان ، الشركة ، الوكالة ، الإقرار بالحقوق ، الإقرار بالمجبور ، الغصب ، الشفعة ، المساقاة ، المزارعة ، الإجازات ، إلى آخر ما جاء في ذلك ، وفي كل باب من هذه الأبواب تطالعنا الآيات والأحاديث مما لا يتسع المقام لذكره ، وحسبك أن تقرأ في كتب الترغيب والترهيب ، في كتاب البيوع بعض ما ذكره الأئمة في هذا الباب ، ومن ذلك ما كتبه الحافظ المنذري في كتابه : الترغيب والترهيب ، تحت هذه العناوين : الترغيب في الاكتساب بالبيع وغيره ، الترغيب في السماح في البيع والشراء وحسن التقاضي والقضاء ، الترغيب من بخس الكيل والوزن ، الترغيب من الغش والترغيب في النصيحة في البيع وغيره ، الترغيب من الاحتكار ، الترغيب من

الذين. الترهيب من الإيمان الكاذبة الغموس ، إلى غير ذلك مما نراه في هذا الكتاب وغيره ، وإذا كان الإسلام قد أولى الحقوق المادية تلك العناية فإنه جعل الدين في مقدمة ذلك ، لم ييح للمسلم أن يستبدن إلا عند الضرورة القصوى ، وفي الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " إن الدين يقتص من صاحبه يوم القيامة إذا مات إلا من تكين في ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته في سبيل الله يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنه مسلم فلا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة " (١) وفي رواية عند الإمام أحمد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقال : يا بن آدم فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يا رب إنك تعلم أني أخذته فلم أكل ولم أشرب ولم ألبس ، ولكن أتى على إما حرق وإما سرق وإما وضيعه . فيقول الله : صدق عبدي ، أنا أحق من قضى عنه ، فیدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته ، فيدخل الجنة بفضل الله " ومن رحمة الله بعباده أن حماهم من أنفسهم وشرع لهم ما فيه سعادتهم ، ومن ذلك ما شرعه في كيفية أداء الحقوق لأصحابها ، إذ لم يكف في هذا بما ماق من آيات تخوف من أكل أموال الناس بالباطل إنما وضع القواعد لمعاملة قائمة على شرع الله وهديه ،

(١) رواد ابن ملحه

يحرصنا إيمان بالله واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار ، وأطول آية في القرآن هي آية الدِّين ، وفيها ينادى الله المؤمنين بصفة الإيمان ليأمرهم بكتابة الدين ، ويرسم خطأ واضحاً لكيفية تجهيل هذا الدين وتوثيقه بكل أشكال التوثيق ، ويشرع الرهن في مقابل الدين ضماناً له، ويحدد كيف يكون الرهن ، وهو بين ذلك يرغب ويرهب حتى يتم ذلك كله على أفضل وجه الأداء ، ولندع كلمات القرآن العظيم تعبر عن ذلك فتقول : **لَا يُؤَيِّسُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضِلُّكُمْ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (١) أرايت كيف حفظ الله للناس حقوقهم ، وجعل ذلك عبداً وذمة ، فمن خان العيد فقد خسر خزاناً مبیناً .

(١) النورة ٢ / ٢٨٢ . ٢٨٣

٤ : العلاج الناجع لعدم الوفاء :

على من يريد أن يحظى بالخير في دنياه وأخراه أن يكون من الأوفياء ، ولكن ذلك يحتاج إلى بذل وتضحية ، قيل هذا ميسور وسيل ، " لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه " هكذا قال رسول الله لمعاذ حين سأله عما يدخله الجنة ويباعده من النار ، والوفاء بعيد العبودية لله والاستقامة على أمره ، وأداء ما افترض على عباده هي وسائل دخول الجنة والابتعاد من النار ، وإنه لأمل يداعب النفوس ، ويستولي على المشاعر ، ولكن متى كانت الآمال المجردة وسيلة لتحقيق ما نرجو ؟ ولذلك يقع الناس في المعاصي ، ويرتكبون الذنوب ، وتراهم يكذبون ويفجرون ويغفرون ويخونون ، فما أسباب ذلك ؟؟ وإذا عُرف السوء كان الدواء وكان الشفاء بإذن الله .

فلنرجع إلى أول معصية وقعت في فجر الإنسانية ، إنها كانت استجابة أبينا آدم وأمنا حواء - حينما السلام - لوسوسة عدو الله وعدوهما : إبليس ، فكان أن أكلا من الشجرة المحرمة ، ووقعا في المعصية ، وقد ذكر الله لنا ذلك في : البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكيف وطه و " ص " وفي سورة " طه " يضع أيدينا على السبب الذي أدى إلى الوقوع في المعصية فيقول : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ قَتْسِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) (١) وإذا فحس

(١) طه ٢٠ / ٥

هي حاجة إلى علاج هذين المرضين : النسيان وضعف العزيمة ،
 فإذا تم ذلك فقد استقام العبد على طريق الوفاء ، وعلاج النسيان
 بالتذكير ، وعلاج ضعف العزيمة بتقويتها ، ومع وجود هذا الدواء
 الإلهي ، والعلاج الرباني إلا أن الكثير لا يهتم به ، ولا يريد أن
 يتعاطاه ، وسبب ذلك ضعف الإيمان ، فإذا قوى الإيمان بالله رباً ،
 وبالأخرة مصيراً ، فلما إلى الجنة وإما إلى نار ، بحث الإنسان عن
 وسيلة للنجاة ، واجتهد من أجل رضا مولاه ، وحاسب نفسه قبل أن
 يحاسب ، ووزن عمله قبل أن يوزن عليه ، ولذلك نرى آيات
 القرآن تحت على ذكر الله بكل الوسائل والسبل ، وقد أحصيت - من
 المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - ما ورد في مادة الذكر
 فوجدت أنها بلغت ٢٦٣ مرة ، يضاف إليها ٧ منسرات لكلماتي :
 اذكر ، ومذكر فيكون المجموع (٢٧٠) مرة ، وقريب من معنى
 الذكر معنى التفكير والعقل ، وقد جاءت الأولى (١٨) مرة ،
 والثانية (٤٩) مرة كما استعمل القرآن التعبير بـ " أولى الألباب " .
 (أي أصحاب العقول) (١٦) مرة ، وهي تعبيرات جديدة بالتأمل ،
 ويحتاج كل موضع منها إلى وقفة نقية فيما من نور الله ما يضيء
 لنا الطريق ، وهذا قد يتطلب دراسة خاصة .

أما المرض الثاني ، والذي عبر عنه قوله تعالى : " ولم نجد
 له عزماً " فهو مرض يؤدي بصاحبه إلى الضياع والهلاك ، فمع

اقتناع العقل بالإقتحام على الطاعة لله ورسوله ، والتزام طريق
الساد والرشاد في أمور الدنيا والآخرة ، إلا أن ضعف العزيمة
يقعد الكثير من الناس عن تحقيق هذه الأهداف النبيلة ، بكل ما فيها
من عزة وكرامة ومنزلة عالية ، وتمكين في أرض الله ، وجزاء
عظيم عند الله ، ودواء ذلك بالصبر على الطاعة ، والصبر عن
المعصية وهذا إنما يكون بالبحث عن الأسباب التي تؤدي إلى عدم
الصبر على الطاعات والصبر عن الشبهات ، وعلينا أسباب
تربوية أو اجتماعية تعود إلى سوء تربية الفرد فينشأ تحت سوط
القبر والكبت والحرمان ، في أسرة محرومة من الحنان والعطف
والرحمة ، وفي مجتمع تنتشر فيه الفاحشة ، ويتعامل الناس فيه
دون وازع من دين أو خلق ، و كأنهم وحوش مفترسة يعتدي قريبها
على ضعيفها ، أو سمك في البحار يأكل كبيره صغيره ، و هنا
تتباوى القيم العالية ، و المبادئ السامية ، و لذلك جاء القرآن
بإصلاح الفرد و الجماعة و أرسى أسس الحياة الكريمة الفاضلة
وتعبد الإنسان في كل مرحلة من مراحل حياته بألوان من التثذيب
والتأديب حتى بنى خير أمة أخرجت للناس ، و من يقرأ تاريخ
الأنصار و المهاجرين و يدرس حياة الصحابة و التابعين يعلم عن

قرب كيف صنع هذا الدين هؤلاء الرجال الأقوياء ، الذين كانوا
نور الحياة و ضياءها ، و نبع السعادة لهذه الدنيا و غذاءها ونماءها
ورونقها وبيجتها .. (١)

ولا سبيل لنا إلا بتجرع هذا الدواء : الذكر الذي لا يَفْشُرُ الله ، و أن
نزِيل الأسباب التي تؤدي إلى ضعف العزيمة حتى تقوى و تثبت
على طريق الحق و الصدق و الطاعة و الانقياد لله في ما جاء به
كتابه و أوضحته سنة رسوله - صلى الله عليه و سلم - وفي ذلك
الخير كل الخير .

يقول عبد الله بن المبارك :

ما بال دينك ترضى أن تدنسه وثوبك الدهر مضول من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك طريقها إن السفينة لا تجرى على اليبس
والله المستعان .

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) اقرأ في بيان هذا المنهج كتابي / منهج القرن في تربية المجتمع ط الأولى
١٩٨٠م مكتبة الخانجي - مصر

محتوى الكتاب

الموضوع	ص	الموضوع	ص
المقدمة	٥	حقوق المرأة بين ما كانت عليه	
بين يدي الشذرات	٨	في الجاهلية ، وما صارت إليه في	
نشأة التفسير الموضوعي وتطوره	١٥	شريعة القرآن.	٩٠
الفصل الأول:		أحوال المرأة عبر العصور :	
الإنسان في القرآن :		في : الصين.	٩٤
تمهيد:	٢٥	في : الهند .	٩٥
١- الإنسان: موقعه في الوجود :		في : اليونان .	٩٦
مستخلف ومكرم:-		في : المجتمع الروماني .	٩٦
أ- خلق الإنسان .	٢٨	عند : اليهود .	٩٧
ب- الإنسان المستخلف.	٤٠	في : المسيحية .	٩٧
ج- الإنسان المكرم		في فرنسا .	٩٧
٢- الإنسان وصلته بالكون:		في : الحضارة العربية القديمة .	٩٨
أ- صلة انتفاع.	٥٣	في : العصر الحديث .	٩٨
ب- صلة تفكير	٦١	في : المجتمع العربي قبل الإسلام.	١٠٠
٣- صلة الإنسان بالله:		٢- مساواتها مع الرجل في أصل	
أ- صلة عبودية، وتخویر من		الحلقة والتكليف و المسؤولية.	١٠٣
عبودية غيره	٦٦	٣- الخصوصيات التشريعية	
ب- صلة تكليف ومسئولية	٧٧	للمرأة تنساب مع وظائفها	
٤- إنسانية الإنسان مقياس		الاجتماعية :	١١٦
تقدمه وارتقائه.		في الصلاة	١١٦
الفصل الثاني:		في الصيام	١١٨
المرأة في القرآن الكريم :		في الحج	١١٨
تمهيد :	٨٩	في الجهاد	١٢٥

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٩٣	ثانيا: أثر العقيدة في الأخلاق .	١٣٣	في الميراث
٢٠٦	ثالثا: أثر العبادة في الأخلاق .	١٣٥	في الشهادة
٢٠٧	- الصلاة	١٣٦	دية المرأة
١١٧	- الزكاة	١٣٧	الحجاب
٢٢١	- الصيام	٤- العلاقة بين الرجل والمرأة	
٢٢٥	- الحج	تقوم على المودة والرحمة	
	قيم خُلُقِيَّة في القرآن :	والتعاون لا على الصراع	
	أ- التعاون	والتنازع .	
٢٣١	١- ما هو التعاون	الخطبة	
	٢- ماذا جاء في كتاب الله وسنة	حقوق الزوجة على زوجها:	
	رسوله صلى الله عليه	المهر	
	وسلم - من حديث عمن	العدل في النفقة والميت	
٢٣٢	التعاون	حقوق الزوج على زوجته:	
	٣- ما هو التعاون المأمور ؟ وما	حق الطاعة المشتركة :	
٢٣٨	هو التعاون المذموم	١- حق الاستمتاع	
٢٥٤	٤- صور للتعاون المأمور	٢- حق ثبوت النسب	
	٥- أثر التعاون	٣- حرمة المصاهرة	
	أ- أثر التعاون المأمور	٤- حسن المعاشرة	
٢٥٧	حياة بني الإنسان	ماذا فعل الإسلام لحل المشاكل	
٢٥٩	ب- أثر التعاون المذموم	الزوجية .	
٢٦٠	٦- مدى حاجتنا إلى التعاون؟	٥- اختلاف وظيفة المرأة عن	
	ب- الوفاء :	وظيفة الرجل أمر تقتضيه	
٢٦١	١- الوفاء في اللغة	طبيعة الحياة القائمة على	
٢٦٢	٢- الوفاء في القرآن الكريم	التكامل .	
٢٧٧	٣- ألوان من الوفاء	الفصل الثالث: الأخلاق في	
٢٨٩	٤- العلاج الناجع لعدم الوفاء	القرآن	
٢٩٣	فهرس الموضوعات	ما هي الأخلاق ؟	
		أولا: دعوة القرآن إلى مكارم	
		الأخلاق.	
		١٨٨	

